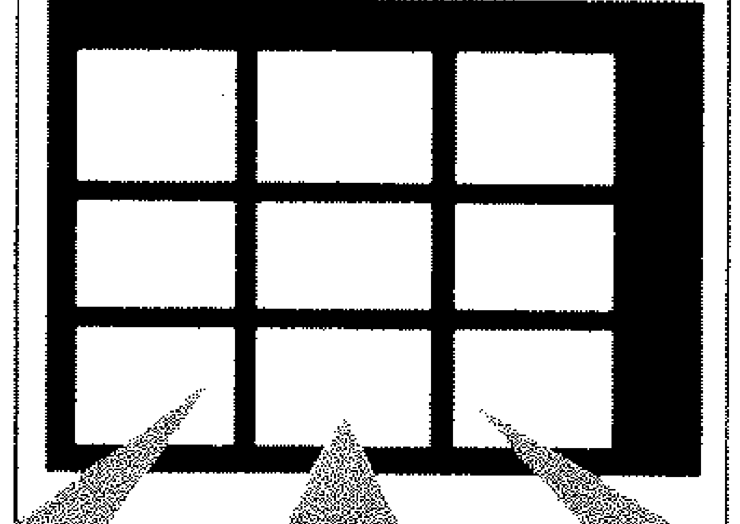
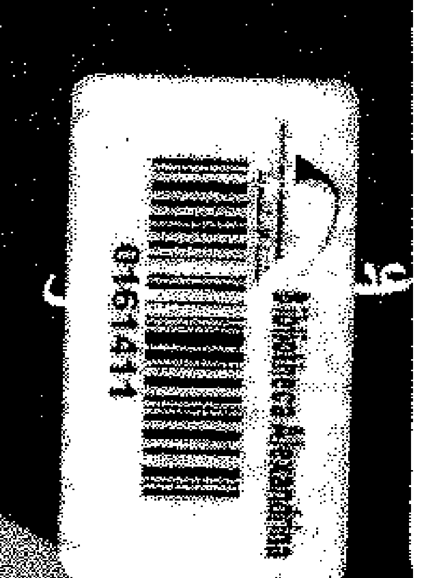




حوارات سجين

(موجز محاضرات هيجل في السجن)







حوارات سجين

الطبعة الأولى - 1995

دار الطليعة الجديدة

سوريا - دمشق - ص.ب 34494

هـ: 7775872

فكتور أنبيلوف

حوارات سجين

(موجز محاضرات هيجل في السجن)

ترجمة: عدنان جاموس

تقديم:

فكتور أنبيلوف زعيم حركة روسيا الكادحة إحدى التنظيمات الانبعاثية لحقبة ما بعد الانهيار في روسيا. مناضل عنيد فرزته التطورات الجارية ليتصدى مع المنبعثين من رماد الهزيمة لنظام الرأسمالية المافيوية الذي أقامه عملاء السي آي آي في بلاد تولستوي ولينين. ظهر في وقت بدا فيه للإمبرياليين الغربيين أنهم وجهوا الضربة القاضية للشيوعية في مهدها وتعالى صوته في خضم الأحداث التي تلت فترة الذهول ليعود بعدها حَمَلة الأمانة إلى ساحتهم التي خلت منهم سويعات. وقام فكتور أنبيلوف بدوره في انتفاضة البرلمان التي قُمعت بالدبابات، وأُلقيَ به في السجن لكن ليخرج منه مرفوع الرأس بعد أشهر قلائل بقرار متحدي من البرلمان الجديد. واستضافته سوريا العربية بعد خروجه من السجن حيث تهيأت لي فرصة الحوار معه في لقاء نظمته مجلة الحرية المناضلة. وألقيت عليه سؤالاً:

ماذا تفعلون بعد استعادة السلطة إذا ظهر لكم غورباتشوف جديد؟

فقال: لن تكون سلطة مثل السابقة. إن الحزب لن يحكم حينذاك وإنما ستحكم السوفييتات.

فلن تبقى مندوحة لواغل يخرب حكم الشعب من داخل الحزب.

وفهمت منه أن الحزب الشيوعي لن يصبح مرة أخرى «حزب حاكم» رغم أن استعادة السلطة ستكون بواسطته. ولو أطلقت العنان لخيالي

لأمكنني تصور أن الحزب بعد استعادة السلطة سيبقى في موقع المعارضة. وكيف يتم ذلك؟ لعلنا نجد الإجابة البكر على هذا التساؤل عند التاويين الأوائل في تصورهم دولة حكماء: يقودون ولايحكمون. والقيادة هي التوجيه. والتوجيه يتضمن النقد أي ما نسميه معارضة. لكنها معارضة لاتسعى لإسقاط السلطة إنما لضبطها ومنع بذور الانحراف البيروقراطي من النمو داخلها. وهذا يتم إذا كانت هناك مسافة بين الحزب والسلطة تمنع من الاندماج بينهما أي تمنع اجتماع صفتي الخصم والحكم في مؤسسة واحدة.

في السجن كتب أنبيلوف هذه المحاورات التي يترجمها عدنان جاموس وهو ترجمان متمرّس قرأنا ببغداد ترجماته للأدبيات الروسية و أفدنا منها الكثير. ولئن كنت لا أرى ضرورة لاستمرار الاعتماد على الترجمات لئلا نظل قابعين في حريم التلمذة فإن الإطلاع على وجهات نظر رفاقنا في ساحات النضال الأممي هو من مستلزمات الفهم المتبادل والتنسيق التضامني معهم.

وتتضمن محاورات أنبيلوف هذه أمور كثيرة يحتاج المناضل العربي إلى معرفتها، لأن أنبيلوف يكتب هنا كشاهد عيان ومشارك في الأحداث التي اندلعت مع مجيء غورباتشوف واستمرت تضغط على رقابنا حتى اليوم.

وفي تحليله لعوامل الانهيار يرجع أنبيلوف إلى أواسط الخمسينات لأنه يُدرج العهدين اللينيني والستاليني في عهد واحد ويرى في ستالين استمرار للينين. والانحراف عنده يبدأ من خروشوف. هذه نظرة مشتركة مع الماويين والألبان وأخذت بها القيادة المركزية للشيوعيين العراقيين أيضاً بعد انفصالها عن الحزب عام ١٩٦٨. ويبدو أنبيلوف غير قادر على استقصاء الجذور للوصول إلى أعماق أبعد للأزمة إذ يمكن التساؤل هنا عن السبب الذي يجعل فرداً واحداً يغيّر من مسار حركة عملاقة أحدثت تغيرات هائلة في المجتمع السوفييتي والعالم وكيف يمكن حل المفارقة القائمة ما بين هذه الحركة العملاقة الكاسحة التي

هزت الكوكب لعشرات السنين وبين السهولة التي تم بها لخروشوف وخلفائه إيقافها عن الفعل؟

لابد إذن من البحث في الأعماق البعيدة عن خلل في بنية ما سياسية أو أيديولوجية أو اقتصادية يسبق وصول خروشوف إلى القيادة بل ويمهد له ويسّهل عليه. ونحن ديالكتيكيون تجاوزنا المنطق الشكلي لنبحث عن العلاقات المتبادلة بين الأشياء والتسلسل المنطقي الذي يجمع برابطة العلة والمعلول ما بين السابق واللاحق.

إن الأحداث الكبرى، كانهيار الإشتراكية، لاترتبط بفرد ولاتقع فقط بنتيجة عامل خارجي فهذه المسبِّبات لاتفعل إلا بالتكامل مع عوامل داخلية تنبت في قعر الظاهرة وتجعلها قابلة للتأثير الخارجي بعد أن تكون قد فقدت مناعتها الذاتية واستعدت لاستقبال المرض.

وقد علّمنا التفسير الماركسي لدور الفرد في التاريخ أن لانرهن التحولات بالعامل الفردي لأن الفرد يفعل تحت ظروف وأوضاع تستوعبه وتؤطر فعله. وقد انتبه مفكرونا القدماء إلى هذه الصلة الدقيقة بين الفرد وظروفه بحديثهم عن الإقبال والإدبار ويقصد بالأول مواتاة الظروف وبالثاني معاكستها. واستند إليها المسعودي في تفسير فشل مروان الثاني آخر خلفاء الأمويين رغم الكفاءات العالية التي تمتع بها فقال أنه كان يعالج الأمور وهي مدبرة مشيراً إلى تجمع الأسباب التي أدت إلى انحلال الدولة الأموية. ويربط الفكر الديني هذه المسألة بالقضاء والقدر لكن المتنورين أمثال المسعودي يفهمونها على نحو تاريخي بعد أن هيأ لهم علم الكلام والفلسفة استيعاب العلاقة بين العلّة والمعلول.

ويمكن في الحقيقة إيجاد الجواب في رد أنبيلوف على تساؤلي آنفاً فهو إذ يتجه إلى القول بأن السلطة المقبلة ستعتمد على السوفييتات لمنع احتمال ظهور غورباتشوف آخر أو خروشوف آخر إذا توخينا الدقة إنما يعبر عن إدراك سببي للوضع الذي أدى إلى ظهور غورباتشوف وخروشوف.

الملحوظ بالمناسبة أن فكتور أنبيلوف يتعامل بحرية في حواره مع لينين فيرد عليه ويصحح له لكن القارئ لايلمس له استعداد مماثل في التعامل مع ستالين. وقد وجدت نفس الشيء لدى رفاقي الأعزاء من الشيوعيين السوريين الذين يتحدثون عن مفاصل شاخت من فكر ماركس ويمتنعون عن نسبة الشيخوخة إلى فكر ستالين في أي مفصل منه. ويمكن الاعتذار عن ذلك في أن العدو بدأ حربه الأخيرة علينا من الهجوم على ستالين، فمستلزمات المرحلة السياسية الراهنة أو ردّ الفعل العفوي توجب أو تدفع إلى الأغضاء عن العهد الستاليني والتأكيد على منجزات ستالين. والنضال السياسي له شروطه ودواعيه، ويبقى الفاصل الطبيعي قائماً بين عمل المؤرخ المحترف وعمل المناضل، ولامجال لجعل التكتيك اليومي حقيقة علمية، لكن رد الفعل مسؤول عن التباسات فكرية أشار إليها إنجلز في معرض الحديث عن العامل الاقتصادي. ولا أظن التباساً أشد من محاورة لينين والرد عليه والسكوت عن ستالين إلا في قياس الظروف الطارئة للعمل الثوري.

يتكلم فكتور أنبيلوف بلغة شيوعية جديدة إنما تدور حول الثوابت إياها. وهو يبدو في نظره إلى التراث البشري أوسع أفقاً من المثقفين السوفييت. وبنفس الروح يتعامل مع فلاسفة منبوذين في الفكر المادي الصرف فيضع سقراط على ملاك الفكر الإنساني ويعطيه في الحوار دور الناقد للرأسمالية.

ويُظهر أنبيلوف بذلك استعداد للعودة إلى تراث الشرق وحكمته بشفافيتها الإنسانية وجذرها الشاعي وإنما يمنعه من ذلك عدم اطلاعه عليها. وهذا عذر التمسه له متبرعاً! فقد اقتصر على الفلاسفة الغربيين في إدارة حوار شامل لهموم الإنسان في الغرب والشرق. وهموم الإنسان وجدت لها من الفلاسفة الشرقيين مالم تجده من الفلاسفة الغربيين فالفلسفة الشرقية، في مدارها الصيني، والهندي، والصوفي الإسلامي انطلقت من الإنسان ودارت حوله حتى في بحثها للطبيعة. وفي الشرق تحدد مفهوم الحكم الشعبي مقابل الحكم الديمقراطي الذي عنيت به

الفلسفة الأوروبية. وبين المفهومين تكامل يمكن الوصول إليه بـالتعمق في فكر الشرق.

وأسجل على فكتور تأييده الصريح لانحلال العائلـة، خلافاً لمبادىء لينين في وحدة العائلة وصيانة المرأة. أما التربيـة الجماعيـة فشيء آخر لايتعـارض مع وجـود العائلـة إلا في النظـام الإسـبارطي المرفـوض مـن الإشتراكيين العلميـين. وينبغـي الرجـوع إلى محـاورة لينـين مـع كـلارا زنكتن حول هذه الأمور لتكوين موقف سليم من قضية المرأة والعائلة.

تطرح المحـاورات أفكـار حيويـة حـول قضايـا الإشـتراكية والنضـال المستأنف في سبيلها والعوامل الـتي أعـاقت تطورهـا وآلـت إلى انتكاسـها وانتصار الرأسمالية في طورها الأكثر توحشاً. لكن توجيه الحـوار يعـاني من خلل في هذا الجانب. ويمكن هنا تقسيم المحاورات إلى قسمين، واحد منهـا يـدور حـول قضايـا ذات طـابع فلسفي. وقـد عالجهـا المتحـاورون بالتجانس مع نوع الأطروحات ولغة الفلاسفة المألوفة.. أما القسـم الآخـر فيدور حول قضايا الوضع المباشر الذي يعالج في المعتاد بتقريريـة خالصـة وبلغة صحافة وبيانات سياسية، وقد أخفق فكتور في تكييفه ليتلاءم مـع روح البحـث الفلسفي فجـاءت عبـارات الفلاسفة المتحـاورين مصنوعـة متكلفة تثير الشعور بالغرابة والنشاز حين تصل إلى حد استنطاق سـقراط لشتم خروشوف أو جعل أفلاطـون وديوجـين يتكلمـان في شـوارع موسـكو بأفكار الشيوعيين الروس ويتهجمون على بوريس يلتسـن.. إن مصداقيـة الحوار تأخذ مسارها الطبيعي حينمـا نستنطق سـقراط لنقد بريكلـي أو أرنست ماخ أو افناريوس، وتخرج عن مسارها حينمـا نرغمـه علـى شـتم أنور السادات أو تـأييد حسـب الله تـوفـ المعتصـم تحـت قبـة البرلمـان.. والمعيار فني بحت لكنه مؤثر في درجة الاقتنـاع. وهـو مـا أدركـه المؤلـف حينما عالج بعض أفكاره بكلام سردي لم يستنطق نيـة أحـد إذ لم يجـده ملائم للحوار. واستغرق سرده الفصل العاشر من المحاورات. وكان الأليق لو اتبع نفـس الطريقـة في عـرض القضايـا الأخـرى المماثلـة لاسيما وهـو لاينوي تأليف مسرحية وإنما استوحى محاورات أفلاطون.. من المعتاد في

الحوار المسرحي ترميز الفكرة، ولو مع التضحية بتقريبر فيها اللازمة لإيصالها دون حواجز إلى الجمهور الأوسع، إذا كان المقصود تقديم عمل فني، ولكل مقام مقال كما يقول نقادنا القدامى. وليس هذا هو غرض فكتور من محاوراته.

وأني لآمل على أي حال أن يجد القراء في هذه المحاورات كثيراً مما يتوقون إلى معرفته من أوضاع روسيا قبل الانهيار وبعده وما يفكر به مناضلوها في هذه المرحلة الحرجة من تاريخها وتاريخنا. وسيقرؤون فيه حقيقة مناضل في سبيل الخير الأسمى وضد مكامن الشر والفساد في بلاده التي أنجبت لينين ولونا تشارسكي وحري بها أن تنجب، وفي بلاد أمة منجاب، تلامذة له يتوارثون مبادئهم المغموسة في الوجدان البشري حيث تتجوهر الذات البروليتارية في مواجهة قوى العدوان ويستعيد التاريخ دورته المتوقفة، بقوة صانعيه الأفذاذ.

هادي العلوي

مقدمة:

أنبيلوف وقلعة بريست

ماهو شعور الشيوعي المعتقل في بلد ثورة أكتوبر؟

هذا هو السؤال الذي كنت أتوق إلى توجيهه إلى الرفيق فكتور أنبيلوف عندما رأيته مكبلا بالقيود وتحت حراسة رشاشات جلاديه، ومن ثم عندما ساقوه إلى عربة ليأخذوه إلى السجن. وعندما رفع أنبيلوف رأسه ونظر إلى كاميرا الصور مبتسماً ابتسامة تحمل كل معاني الثقة بالنفس، شعرت أنه يجيبني: هذا أمر عادي...

كان هذا في أعقاب انقلاب يلتسين الوحشي على الدستور ممثلاً بالبرلمان في تشرين الأول ١٩٩٣، وبعد أن برز أنبيلوف كأحد قادة الدفاع عن الشرعية.

وعندما زار أنبيلوف سورية بدعوة من الحزب الشيوعي السوري للاستراحة، بعد إطلاق سراحه، في تموز ١٩٩٤ : أردت التأكد مما قرأته في عينيه. هل ستكرره شفتاه؟ فأجابني عن السؤال الذي راودني «وجودي في السجن أمر طبيعي للشيوعيين والمناضلين. لقد سجن رفاق كثيرون في ظروف أقسى بكثير مما عانيت ـ في إيران وفي تشيلي.

«عندما كنت أعد دفاعي فكرت بفيديل كاسترو وجيورجي ديمتروف. لذلك لم أكن وحيداً. وكنتم معي أيضاً. وحتى في السجن قرأت عن الانتفاضة. وهكذا علمت أن النضال مستمر ولم أنهر. كنت جزءاً صغيراً من شيء كبير ـ الشيوعية العالمية. كنت جزءاً من أسرة كبيرة. أسرة مناضلة».

عرفت كيف شعر أنبيلوف في السجن. وهذا ما كنت أتوقعه منذ أن تعرفت عليه في ١٩٩٢/١١/٢٢ . ولكن تبقى الإجابة غير كاملة، وأعني ما الذي جعل بلد ثورة أكتوبر يسجن الشيوعيين كما فعلت إيران وتشيلي وكما تفعل إسرائيل بأبطال المقاومة الفلسطينية؟

وللإجابة عن هذا السؤال تجب العودة إلى الماضي. لنتذكر أن العشرينات والثلاثينات والأربعينات من هذا القرن حملت مساهمة تاريخية لاتجارى لقضية الإشتراكية والتحرر الوطني. فقد أقام الشيوعيون في بلد ضرب ديكتاتورية الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء والمتوسطين والشغيلة ضد الطبقات المستغلة القديمة. وعبأوا الطبقات المضطهدة منذ قرون من أجل بناء السلطة السوفييتية. وانجزوا تصنيع البلد بسرعة لا تصدّق، ونشروا تعاونية الزراعة ليسدوا بذلك الطريق أمام التطور الرأسمالي العشوائي نحو ديكتاتورية الكولاك والفلاحين الأغنياء. ونفّذوا بنجاح ثورة ثقافية كبيرة حاملين التربية العلمية إلى أبعد الأطراف.

وخاضوا حرباً عظمى ضد الفاشية وحطموا نواة الجيش النازي. كان ستالين قائداً شيوعياً كبيراً، وتحت إرشاده نفذ الحزب المهام الجوهرية التي فرضتها عليه تعرجات التاريخ. وزعم الانتهازيون من مختلف الألوان، منذ خروشوف، أنهم أرادوا تصحيح أخطاء ستالين. ولكنهم كانوا بعيدين عن تصحيح هذه الأخطاء التي كانت واقعية إلى حد كبير، وفي حالات عديدة، لامناص منها في تلك الفترة. وهاجموا أساس التصور اللينيني الذي دافع عنه ستالين. منذ خروشوف، وخطوة خطوة، ووفق سرعة وتكتيكات محسوبة جيداً، وضع هؤلاء المحرفون موضع الريبة كل الموضوعات الماركسية اللينينية، وتبنوا بصراحة متزايدة الأفكار التي نشرتها البورجوازية الغربية. وقدموا ذلك على أنه التكييف الخلاّق للماركسية في ضوء الواقع الحالي، وإعادة اكتشاف الإنسانية الإشتراكية، وتعميق الإشتراكية الذي يكسبها وجهاً إنسانياً. كما لو أن الفقراء والمضطهدين لايملكون الوجه الإنساني، ووحدها البورجوازية وأصحاب

الصارف وأنبياء الحضارة الغربية يملكون الوجه الإنساني الذي تحتاجه الإشتراكية، وفقاً لصيغة ميتران. وطوال ثلاثين عاماً جسدت الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية، في الأساس، تصورات خروشوف، التي لم يكن لديها عملياً ما يجمعها بالتصورات الثورية التي ازدهرت بشدة في أيام ستالين. واستخدمت على الأغلب كلمة «ستالينية» للإشارة إلى كل موضوعات الإشتراكية وقيمها، وتحت لواء المعركة ضد الستالينية جرت معركة لتصفية آخر آثار الإشتراكية. وبعد أن نضجت الظروف تمكن الخائن غورباتشوف من تنفيذ الثورة المضادة المخملية (كما يقول لوودمارتنس رئيس حزب العمل البلجيكي) أو أعقب التحول النوعي التراكم الكمي (كما يفضل تسميتها سمير أمين).

وقد تألمت ككل وطني وتقدمي في كل أرجاء المعمورة لسقوط الاتحاد السوفييتي ـ السقوط الذي أثق إنه مؤقت ـ وزاد من ألمي أن بعض من أسموا أنفسهم شيوعيين، وساروا وراء غورباتشوف حتى بعد انتقاله إلى مواقع العداء السافر للشيوعية والولاء الواضح للامبريالية والصهيونية والتخلي عن كل كرامة شخصية، أقول إن هذا البعض اتهم أمثالي بالبكاء على الأطلال! فلاعجب إذا بادرت في مطلع لقائي الأول مع أنبيلوف، إلى طلب التعليق على هذا الوضع فأجاب:

عندما هاجمت ألمانيا الفاشية الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٤١ كانت هناك قلعة اسمها قلعة بريست. ومنذ اليوم الأول للحرب تجاوزت الجبهة هذه القلعة إلى عمق الاتحاد السوفييتي. وبعد أسبوع لم تعد أصوات المدفعية الثقيلة تسمع في هذه المدينة أيضاً. ولكن حامية بريست صمدت وبقي العلم الأحمر مرفوعاً فوق القلعة التي تحولت إلى أنقاض. وبعد نصف عام من المقاومة بقي شخص واحد في القلعة التي صارت خطوط الجبهة بعيدة عنها مئات الكيلومترات. وكان هذا الرجل يخرج من القلعة ويطلق النار على الأعداء. كان هذا الانسان شيوعياً ـ المفوّض السياسي للقلعة. وأثبت التاريخ أن هذا الرجل كان محقاً على الرغم من أن قلعة بريست كانت قد تحولت إلى أطلال، وكان يعيش تحت القلعة.

بالنسبة لنا نحن شيوعيي روسيا اليوم، الذين نهضنا من القواعد لنكافح، يجب أن تكون في قلب كل منا قلعة بريست. وإذا حدث ذلك فلن يكون هناك مكان للدموع، وإنما قد نبكي وإياكم من الفرح عندما نلتقي في الساحة الحمراء، ويحتضن بعضنا البعض الآخر ونبني معاً مجتمع العدالة على الكرة الأرضية. لن يقضوا علينا أبداً ولن يقضوا على الاتحاد السوفييتي بغض النظر عن ملايين الدولارات التي أنفقتها المخابرات المركزية الأمريكية على تخريب الإشتراكية ومحاولة إنهائها. وذلك لأن قلعة بريست لاتوجد في قلب أنبيلوف وحده ولكنها شمخت من جديد في قلوب الملايين.

عندما التقيت للمرة الأولى المناضل الروسي البارز وزعيم حركة روسيا الكادحة فكتور أنبيلوف لإجراء حديث لمجلة «إلى الأمام» اشترك معي رئيس التحرير. وعندما خرجنا من اللقاء سألته عن رأيه بأنبيلوف فأجاب «ا لله يحميه». فأنبيلوف هو حقاً المناضل الأكثر جذرية وجرأة في التصدي للسلطة اليلتسينية العميلة والحركة الصهيونية في روسيا. وقد شاهدناه في مظاهرات الأول من أيار ١٩٩٣ لثلاثة أيام متتالية على شاشة التلفاز وكان دوماً في طليعة المتظاهرين والخطباء والمتحدثين إلى أجهزة الإعلام. ولكننا افتقدناه لدى نقل مظاهرات عيد النصر في التاسع من أيار. وتبين فيما بعد أن أنبيلوف اختطف واعتدي عليه عشية الاحتفال بعيد النصر.

ففي الثامن من أيار استدعي فكتور أنبيلوف إلى النيابة العامة الروسية للإدلاء بشهادته حول أحداث الأول من أيار الدامية التي نظمتها سلطات يلتسين الإجرامية في موسكو. وعند خروجه ورفيقه من النيابة العامة انقض عليهما مجرمون بلباس رسمي ومسلحون فكسروا أصابع يدي أنبيلوف بعقب مسدس وادخلوه قسراً إلى سيارة وانهالوا عليه بالضرب وبأسلوب محترف ومتقن، وقيدوا يديه خلف ظهره واستمر اختطاف أنبيلوف وتعذيبه حتى ليلة العاشر من أيار حين ألقوا به في غابة.

وكان الهدف من اختطافه واضحاً، وهو منع أنبيلوف من قيادة مظاهرات عيد النصر. ولكن المناضل الفذ أعلن بعد هذه الحادثة أن عزيمته لم تلن وأنه مصمم على متابعة الكفاح ضد سلطة عصابات الإجرام المعادية والخائنة لمصالح الوطن والشعب مؤكدا إصراره على الكفاح مهما تعاظمت واشتدت الضغوط والتهديدات.

ينحدر أنبيلوف من أسرة فلاحية. له شقيقان وثلاث شقيقات، وهو أصغر الجميع. حصل ثلاثة منهم على التعليم العالي. وحصل فيكتور نفسه على دبلوم الدراسات العليا في كلية الصحافة في جامعة موسكو. وعمل معلقاً سياسياً في إذاعة موسكو. وكان في عامي ١٩٨٤ ـــ ١٩٨٥ مراسلا تلفزيونياً وإذاعياً في نيكاراغوا، وكذلك في كوبا التي زارها مرات عديدة لفترات قصيرة. متزوج ولديه طفلان.

ويرى أنبيلوف ضرورة إعادة بناء الحزب الشيوعي من خلال الجماهير. ويخالف البعض الذين يجدون إعادة بناء الحزب بفضل أشخاص من اللجنة المركزية القديمة، لأن هؤلاء الأشخاص أنفسهم حطموا الدولة، وتحت قيادتهم بدأت الحرب الداخلية. وهؤلاء الأشخاص أيضاً وافقوا على التفاوض مع الحكومة ويلتسين.

ووقف هؤلاء الأشخاص كذلك موقف المتفرج في معركة البرلمان، وشاركوا في الاستفتاء والانتخابات التي أعقبتها ممّا أعطى الشرعية لدستور يلتسين. هذا في الوقت الذي كان يقبع فيه أنبيلوف في زنزانته في سجن ليفورتوفو في موسكو مع الكثير من الوطنيين الآخرين. وقال بيان لجنة الدفاع عن فكتور أنبيلوف أن هدفه الوحيد هو أن تحيا روسيا حياة مزدهرة وكريمة وأن تقرر شعوبها مصيرها بنفسها لاكما يشاء الغرب لها.

وكان فكتور أنبيلوف زعيم العمال الشيوعي الروسي وحركة روسيا الكادحة واحداً من أولئك الذين أطلق سراحهم بقرار من البرلمان في ٢٦ شباط ١٩٩٤ . وخلافاً لبعض قادة المعارضة الذين سجنهم الرئيس بوريس

يلتسين، كان الرفيق أنبيلوف خصماً شديداً لبعث الرأسمالية منذ أيام ميخائيل غورباتشوف.

في ختام لقائي الأخير مع أنبيلوف قال لي إنه يريد إنهاء تأليف الكتاب الذي بدأه في السجن. ولشد ما كان سروري عندما علمت بأن دار الطليعة الجديدة تنوي، وبهذه السرعة القياسية، إصدار الكتاب المذكور فجئت بهذه الانطباعات التي تكونت لدي من خلال معرفتي بأنبيلوف والتي يشرفني أن تكون مقدمة متواضعة لكتاب مناضل عظيم.

رشاد كرم

لم يتح لأحد حتى الآن أن يقيد الطاقة، وبالأحرى الطاقة الإبداعية، تقييداً تاماً ولمدة طويلة. لم يصمد أمامها البلور الصلد، ولا قضبان السجن، وانهارت أمامها الأسيجة والموانع المتعددة التي كانت تضعها وحدات الشرطة الخاصة. فقد كانت الطاقة تتغير نوعاً، وتتكامل نوعية، وتتحول بعزيمة لا تقهر إلى جوهرها الانساني - إلى عمل.

بين يديك، أيها القارىء، عمل فيكتور أنبيلوف - خثارة حارة من الطاقة الفكرية تشكلت في ظروف استثنائية غاية في القسوة، بين جدران سجن «ليفورتوفو» الشائكة.

عمّ يتحدث هذا الكتاب؟ إنه يتحدث قبل كل شيء عن عمليات طبيعية وطبيعية - تاريخية معاصرة: عن ضغط جنازير الدبابات وزخات الرصاص على حرية شعبنا واستقلاله، عن الهجمة الشرسة التي تشنها التلفزة المأجورة على وعي الجماهير، وعن السهولة التي يبيع بها «المناضلون المبدئيون في سبيل الديمقراطية» أنفسهم؛ كما يتحدث طبعاً عن المقاومة، أي عن رد الفعل الطبيعي الذي يبديه العقل السليم إزاء محاولات المجانين الرامية إلى إعادة التاريخ إلى الوراء.

أنت لم تلاحظ سقراط وأرسطو في تلك الليلة الأيلولية عند الشغيلة قرب مبنى السوفييتات لسبب واحد فقط هو أن هذا الكتاب لم يكن قد كتب بعد. وربما لم تقدر حق التقدير الغدر والقسوة اللذين تفتقت عنهما ديمقراطية طغيان اللئام الفاشية لأن مكافحي الطغيان في العالم القديم لم ينبهوك؟

افتح الصفحة التالية التي تصل بين الأزمنة، وتوحد الفلسفة الكلاسيكية والوعي الطبقي، وتربط خبرة المفكرين والرواد التي تعود إلى أكثر من ألف سنة بخطوات مناضلي اليوم الذين يكافحون في سبيل المساواة والعدالة. إن وسائل الإعلام الجماهيري المسخرة لخدمة النظام الدموي الحاكم لاتحاول الافتراء على تاريخ وطننا وتلطيخه فحسب، بل تسعى إلى الإلقاء بعيداً بمرتكزات التفكير المنطقي، والاستعاضة عنها، على الطريقة الاستعمارية، ببهارج ذات طبيعة استهلاكية. يقول مستهلك الملكة الأميركية المحترم: «من يملك يسر»(١) ولايرى شيئاً: «لاقذارة الإهمال» في العالم المحيط به، ولا الحفرة النتنة التي أمامه.

الفلاسفة المشاركون في الجلسات المسائية السرية في زنزانة سجن ليفورتوفو يعلمون الحس السياسي والمنطق الفولاذي. لذلك فإن فصول الكتاب لايمكن، وليس لها الحق في أن تكون من نوع «القراءة المسلية». لذا، أيها القارىء المحترم، أعد قراءة المقاطع التي يصعب فهمها، والأفكار التي تضيق عنها الأطر المألوفة لديك، وحاول أن تنشىء من حقائق الواقع اليقينية المتاحة لك لوحة واقعية للوجود تثبت أو تنفي أطروحات الكاتب النظرية. إن معيار الحقيقة كان دائماً وسيبقى الممارسة العملية وليس البلاغة الخطابية. سواء في أثناء التمشي في أكاديمية أثينا أو في أثناء التمشي في باحة السجن في موسكو.

يمكن ألا تتفق مع الكاتب في الرأي، وفي هذه الحالة ينبغي أن تناقش وتفند وتفكر. تفكر! لأنك إن لم تفعل، فمن سيفعل؟ !

كلمة الناشر ـ الطبعة الروسية.

---

١ ـ تحريف للقول الدارج: «من يعش ير» وفعل يملك بالروسية يشكل مع فعل يعيش جناساً ناقصاً.

الفصل الأول

«لاتنسَ، وأنت تقرأ، أن كلَّ حرف
في هذا الكتاب،
قد أنشىء في أيام عاصفة
على طريق الأحزان.
في موسم العواصف الكانونية
كتبت هذه السطور.»

ـ أوفيد يوس ـ

المصادفة

خمس خطوات على البيتون المطلي بالسيرقون ـ فإذا بك أمام القضبان، وخمس خطوات في الاتجاه المعاكس ـ فإذا أنت أمام باب حديدي فيه فتحة صغيرة. حوض المغسلة، والمرحاض المصنوع من البيتون بشكل قمع، والأسرّة المعدنية الثلاثة تنفي أية إمكانية للانحراف عن خط السير: خمس خطوات إلى هناك حيث القضبان، وخمس خطوات بالعكس حيث الفتحة الصغيرة. التفكير في أن مئات وآلافاً من الرفاق في ألمانيا وإيران وغواتيمالا وتشيلي والبرازيل والبرتغال، فضلاً عن بلدك روسيا قد حملوا قبلك صليب المعتقل ولم ينهاروا، لم يخونوا معتقداتهم يغدو سنداً حقيقياً لك. وفي أثناء «التنفس» الساعي في باحات السجن يسقط الثلج من خلال الشبكة المعدنية على رأسك. فإذا ما عرضت وجهك له أحسست على خدّيك بقطرات المطر المداري الذي غسل وجه تشي غيفارا قبل المعركة الأخيرة. كم من الأصدقاء وكم من الرفاق يربط بينهم هذا الثلج: سورفانوف في سفيردلوفسك، بيرا في سان باولو، تيولكين في لينينغراد، قدري في دمشق، أسييف في جيليزنوغورسك، لي في بخينيان (بيونغ يانغ)، لودو في بروكسل... نحن أكثر تماسكاً. يربط بيننا المطر والثلج والهواء وقضيتنا المشتركة ـ النضال في سبيل سعادة أناس العمل على هذا الكوكب. لست أول من دخل السجن، فقد مر بهذا قبلي رفاق لي لن أعرف أسماءهم أبداً، وكانت ظروفهم أقسى في سجون ماوبيت، وفي قيود وأغلال الطواغيت الآسيويين. ولكنهم صمدوا. الظروف هنا، في سجن ليفورتوفو، أسهل. ثلاث وجبات في اليوم. لازيادات ولاسلطات، بل حسب معدل مدروس علمياً. ويمكنك الحصول في الزنزانة على شطرنج وكتب مما يزيد سرعة مرور الوقت مرتين وأحياناً أربع مرات.

إن لينين على حق فعلاً عندما يقول: الثوري ملزم بأن يستخدم السجن لتثقيف نفسه.

بمحض المصادفة أحضر لي الموظف المسؤول عن تسليم الكتب من مكتبة السجن كتاب «محاضرات في تاريخ الفلسفة» لهيجل، المجلد الثاني (دار النشر الحزبية، موسكو ١٩٣٢) بدلاً من كتاب ديدرو الذي طلبته. وهكذا دخل إلى زنزانتي رقم ٣٢ مع هيجل فلاسفة الإغريق القدماء. من قبل، عندما كنت طالباً في الجامعة، اكتفيت، شأني شأن طلاب كثيرين، بالإطلاع على الموجز اللينيني لمحاضرات هيجل. بيد أن الأصل، على الرغم من المقاطع «المملة» التي تصادفك فيه أحياناً، ومن الإعادة والتكرار، يدهشك طبعاً عندما تقرؤه بتأن وروية ـ وهذا الشرط لايتحقق لإنسان نهاية القرن العشرين، على مايبدو إلا في السجن.

«ليس ثمة فكرة إنسانية أو اختراع علمي لم يعبر عنهما أو يخمنهما الإغريق القدماء بسذاجة طفولية»، هكذا كانت تقول لنا يليزفيتا بيتروفنا كوتشبورسكايا عندما كنا طلاباً في كلية الصحافة في جامعة موسكو. وكم أشعر بالأسف الآن لرحيل كوتشبورسكايا عن دنيانا واستحالة تقديم الشكر لها على تلقيننا هذه الحقيقة.

وكلما كنت أعيد قراءة هيجل كانت تخطر لي فكرة تلخيص الفلسفة الإغريقية. طبعاً دون الطموح إلى تكرار الموجز اللينيني. كنت أرغب في التحقق من أفكار القدماء بمقارنتها مع واقع روسيا والعالم اليوم. وأعتقد أن محاضرات هيجل سيعاد تلخيصها مرة بعد مرة لأن هذا يتيح فرصة رائعة لتذكر وصية سقراط الكونية: اعرف نفسك.

أن تعرف نفسك ـ يعني أن تعرف الأخطاء التي اقترفتها كي لاتكررها من جديد. وآمل أن يساعد تلخيص محاضرات هيجل على «توليد الأفكار» حسب تعبير سقراط. فأنا أرى أن التطوير المفرط لوسائل الإعلام الجماهيري في نهاية القرن العشرين ينتزع من الانسان أثمن ما وهبته إياه الطبيعة ـ وهو القدرة على التفكير. فنحن ليلاً ونهاراً نستهلك أفكار غيرنا، إذ أننا منذ مدة طويلة لم نعد نعرف كيف نولد أفكارنا الخاصة. وقد لجأ سقراط إلى

هذا التشبيه لأن أمه فيلاريتا التي ولدت الفيلسوف العظيم في العام الرابع من الأولمبياد السابع والسبعين ـ الموافق عام ٤٦٩ قبل الميلاد ـ كانت تعمل قابلة تساعد الأخريات على الولادة. وأمي لوكيريا بيتروفنا، المرأة القروية العادية، ولدتني، أنا سادس أولادها، دون مساعدة من أحد. كانت تقلع البطاطا في مبقلة الدار في أوائل تشرين الأول الدافىء في كوبان، وبغتة فجأها المخاض، فعادت إلى الدار وطردت أخوتي وأخواتي الكبار إلى الخارج، وأخرجت من الصندوق خيطاً حريرياً لربط السرة... ولم تحدث أية عارضة مرضية في أثناء الولادة، ولم يؤذ أحد جمجمتي بملقط التوليد، وكان حليب الأم الأخلاقي نقياً من الناحية البيئية. وما أن وقفت على قدمي حتى وجدت أنني يجب أن أساعد أمي بأي شكل كان.

أخذت بادىء ذي بدء استخرج البزور من أزهار عباد الشمس الشائكة، وبعد ذلك أصبحت أقوم بانتقاء وتجميع حبات البطاطا. وفيمابعد أصبحت اقتلعها بنفسي. فأبي، مثله مثل كثير من آباء أترابي، قد عاد من الجبهة معوقاً. والمرء لايستطيع أن يقلع كثيراً من البطاطا بيد واحدة. ثم إن النساء ظللن مدة طويلة بعد الحرب يقمن بكثير من الأعمال الأخرى في القرى والضياع الروسية. فتنظيف الآبار المشتركة ـ بئر لكل خمسةً أو ستة أحواش ـ كان أيضاً يتطلب سواعد نسوية معافاة. وقبل بدء العمل كان يحتدم الجدل عادة ـ من التي ستنزل إلى قعر البئر، ومن التي هبطت إلى هناك منذ سنتين. وكان يرتفع الصياح واللغط، وتتطاير كالشرر الحاقد كلمات لانفهمها نحن الأطفال. وعندئذ كانت أمي تتنهد وتقول موافقةً: «يعني الدور عاد لي ثانية». وذات مرة انقطع الحبل البالي وسقط الدلو المتلىء بالطمي على رأس أمي. وقد انتشلها الجيران من البئر بصعوبة وغسلوها ومددوها على السرير نفسه الذي ولدتني عليه. كانت أمي تئن، وكان أنينها يبعث الرعب في نفسي، ولا ينفك يلوح أمام ناظري شدق البئر الأسود. كنت أمسّد وجنتيها بيدي وأقول متشجعاً: «ماما، عندما أكبر سأنزل أنا إلى القعر....» ولكنني طوال حياتي لم أنزل مرة إلى قعر البئر، ولم أعرف ما الذي كانت تشعر به أمي وهي هناك. وقد ظهرت في قرى كوبان فيما بعد آبار ارتوازية ومدّدت أنابيب المياه إلى كل حوش تقريباً.

ولكن الذي حدث في روسيا إنه مع تحقق الرفاهية تفشت نفوس الناس ووعيها الاجتماعي بالطمي. ومع أن وطننا قد أنجب مفكرين من أمثال لينين وتولستوي وستالين ومينديلييف وكروبوتكين وبليخانوف إلاّ أننا فجأة أقلعنا على نحو ما عن ثقافة التفكير. يمكن بالطبع أن نلعن ثانية التلفزيون والصحف الهابطة والراديو، ولكن ما الذي سيتغير نتيجة لذلك؟ ينبغي أن ننزل إلى القعر، ينبغي أن ننظف أعماق ينابيع الوعي. وآمل أن ابن القابلة الأثيني العظيم الذي أوصى بالمساعدة على «توليد الفكرة» سيمد يد المساعدة لي أيضاً.

وربما لن يتسنى لي أن أرى سوى الوحل، وربما سيحطم الدلو الساقط المتلىء بالطمي رأسي. ولكن من الذي يجب عليه أن ينزل إلى القعر إذن؟!

ينبغي استجماع الشجاعة والشروع في الحديث مع العظماء على قدم المساواة. ففي نهاية المطاف، قد عوّدنا الخونة منذ وقت بعيد أن نفكر ونتصرف وفق المعادلة التي تقول: «إذا لم أكن أنا فمن إذن؟»

إذا كنت أنا غير قادر على أن أشرح كيف يخدعوننا، وإذا لم أشر بإصبعي إلى الأوثان البشعة التي فرضت على الشعب ليسجد لها، ولم أقدم على تطهير «الديرموقراطية»[1] القذرة، فلم أعيش إذن؟ ولماذا كنت أدعو الناس إلى السير في طريق معينة؟

ولماذا ضحيت بالأسرة والطمأنينة؟! صعب! ولكنني مازلت أفكر، إذن فأنا حر! فليفتح بويب تقديم الطعام الصغير (للتسهيل يمكن تسميته الطاقة) في باب زنزانتي الحديدي، وليقل المراقب. «مبيت!» الآن سأفتح الكتاب وسيدخل إلى هنا أشخاص عظماء، وتبدأ المحاورات، يبدأ البحث عن الحقيقة في الزنزانة رقم ٣٢ في سجن ليفورتوفو.

---

١ ـ الديرموقراطية: كلمة منحوتة من كلمتين هما: ديرمو ومعناها: البراز، وديمقراطية.

الفصل الثاني

«كلّ ما هو واضح ومألوف وبسيط،
كله اختلط، وانهارت الأركان،
وغابت الحياة. الحياة تبدو لنا في الحلم فحسب»

ـ لويس دي كاموينس ـ

الإحماء

٩ كانون الثاني عام ١٩٩٤ من العصر الجديد. في الساعة ٢٢ تفتح النافذة الصغيرة في الباب الحديدي للزنزانة رقم ٣٢ في سجن ليفورتوفو. يقول المراقب. «مبيت!». يطفأ المصباح ولا يبقى سوى نور المناوبة الكابي.

وتمتلىء الزنزانة بمفكرين ولدوا قبل العصر الجديد بـ ٤٠٠ ـ ٣٠٠ سنة. ويدخل فلاسفة أصغر عمراً: هيجل وكانت ولينين الذي لا يزال في مقتبل العمر. وكل منهم يشترك في الحوار عندما يرى ذلك ضرورياً.

سقراط: أجل، المكان ضيق هنا. عندما زجوا بي في السجن قدموا لي قبل الموت مأوى أكثر اتساعاً. وعلى كل لاينبغي أن يؤثر هذا في التفكير.

السجين: المكان المغلق يثقل على النفس ويرهقها. وليس عن عبث ربطتم أنتم القدماء بين الحقيقة والنشاط والحركة.

سقراط: الإنسان بصفته مفكراً معيار جميع الأشياء. وحتى أربع خطوات كافية لأن تضم العالم كله بفكرك وتحول جوهره وقوانينه الخفية والمرئية إلى قانون للوعي. إذا كنت تفكر فأنت حر.

السجين: أنا أفكر وأستطيع أن أعتبر نفسي حراً، ولكن أغلبية الناس الذين لا يمكن للمرء أن ينكر قدرتهم على التفكير يرون غير هذا: يعتبرون أنني خلف القضبان.

هيجل: هذا تصور العاديين الضيقي الأفق. إن علاقة الواقع الملموس بالحقيقة هي علاقة اصطلاحية للغاية. وعلى العموم فإن مايكتسب أهمية عند التفلسف وما يمكن أن يعبر عنه هو العام فقط، أما «هذا» الواقعي، المعقول، فلا يمكن حتى التعبير عنه البتة ـ إنه وعي وفكرة لم تصل إليها بعد على الإطلاق ثقافة عصرنا الفلسفية.

السجين: في حالتي كان من الأفضل لي لو أنني كنت حراً في كلا الحالين: في المستوى العام وفي الواقع التافه. نعم أنا أفكر وبوسعي اعتبار نفسي حراً، بيد أن هذا «العام» الذي يخصني ينقله المجتمع وكثرة كثيرة من الناس بصيغة الإنكار. والحقيقة يجب أن تكون ما هي عليه في الواقع القائم وفي العام الشامل على حد سواء

سينيكا: الحكيم حر حتى وهو مغلول في السلاسل لأنه يتصرف بدافع من داخله، دون أن يتحكم فيه الخوف أو الشهوة

هيجل: إذا اعتبرناك، أيها الزميل المحترم سينيكا، رواقياً، توجب عليك ألا تستاء من الإشارة إلى حقيقة أنك أنت، نفسك لم تغل بالسلاسل. إن التأملات الأخلاقية جيدة، ولكنها ستكون أفضل إذا أضفنا إليها الروح العملية، وهذا ضروري كضرورة إضافة الملح إلى اللحم، وإلا غدا من السهل توجيه اللوم إليك بسبب الثروة والترف اللذين أنعم بهما عليك الدكتاتور نيرون الذي كنت تكتب له خطبه. مع أنه ليس ثمة شك في أن نقائضك وخطبك الذكية المرهفة كانت قادرة على بث العزيمة في النفس.

أبيقور: بغض النظر عن الوضع المادي أو الواقعي ينبغي علينا أن نفضل كوننا تعساء مع العقل على كوننا سعداء مع الجهل، إذ الأفضل أن نحكم على تصرفاتنا بشكل سليم من أن تظللنا السعادة بجناحيها. احتفظ بهذه التعاليم في عقلك طوال نهارك وليلك ولاتسمح لأي شيء بأن يعكر طمأنينتك النفسية لكي تعيش كإله بين الناس. لأن الإنسان الذي يعيش مع هذه النعم الباقية لاوجه للشبه بينه وبين الكائنات الفانية. إن بداية البدايات وكبرى النعميات هي حكمة العقل التي تفوق الفلسفة لأن منها تولد جميع الفضائل الأخرى

السجين: نصيحتك، ياأبيقور، رائعة. إنها تجعل الحياة أيسر حتى في الزنزانة. ولكن إذا افترضنا أنني امتلك حكمة العقل فإنها ستملي علي فوراً ضرورة تحديد ماهية العقل، وماهية الفلسفة والفضيلة.

أفلاطون: إن معرفتنا للأروع: العقل والخير والفضيلة تبدأ من المعرفة التي تعطينا إياها العينان. التمييز بين ما نراه من ليل ونهار وشهور

ودوران للكواكب، قد هدانا إلى معرفة الزمن، وأيقظ فينا الصبوة إلى تقصي طبيعة الكلي. وهذه الصبوة أوصلتنا إلى الفلسفة، ولم يحظ الناس قط ولن يحظوا بنعمة أكبر من نعمة الرب هذه. إن الفلسفة هي حركة الفكر الخالص في طبيعة الكلي. وها أنا الآن بعد مرور ألفين وثلاثمئة سنة مازلت اعتبر أن الدولة يجب أن يحكمها الفلاسفة.

السجين: أواه! إن الاختلاف بين المرغوب فيه والواقع لايقل عن الاختلاف بين الوجود والعدم. عندنا في روسيا يحكم اليوم منفذو الأعمال في الورشات والمتلاعبون بالعملة والمحتالون والمرتشون — ومختلف أصناف البشر ماعدا الفلاسفة والمفكرين.

هيجل: ولكن بغية التقويم الصحيح لعبارة «إن حكام الشعوب يجب أن يكونوا فلاسفة» علينا أن نتذكر ما الذي كان يفهمه أفلاطون، وما الذي كانوا يفهمونه على العموم في زمانه من كلمة فلسفة وباختصار، أتى على الناس زمن كانوا يسمون فيه الشخص الذي لايؤمن بوجود الأشباح والشياطين فيلسوفاً.

السجين: الأزمان تتغير، ونحن نتغير معها. نحن اليوم، في نهاية القرن العشرين نميل إلى تسمية من يؤمن بوجود الشياطين والأشباح وتأويل الأحلام وقراءة الطالع وكل ما شابه ذلك من خزعبلات فيلسوفاً.

هيجل: كان الإنكليز في وقت ما يطلقون صفة فيلسوف على كل من يجري تجارب فيزيائية أو يحوز معارف نظرية في الكيمياء وتصميم الآلات الخ.. والفلسفة عند أفلاطون تختلط بإدراك مافوق الحسي، أي بما نسميه نحن الوعي الديني.

لينين: نعم، إن أفلاطون كفيلسوف: مثالي كلاسيكي. ولكن المهم في الأمر أن المثالية العاقلة أقرب إلى المادية العاقلة من المادية الغبية.

السجين: إيليتش، يمكن أن نستنتج من تعليقك هذا أن الأضداد في الفلسفة يمكن أن تتقارب. وفي تلخيصك لمحاضرات هيجل إشارة مباشرة إلى أن «مثاليته الموضوعية (بل وأكثر من ذلك: المطلقة) قد اقتربت بتعرج (وشقلبة) اقتراباً لصيقاً من المادية بل وتحولت جزئياً إليها...». لم يكن «الشيخ» يستحق منك أن تصفه «بالوبش المثالي» ففيما

بعد. عندما غبت، بذل الخدامون بأقلامهم قصارى جهدهم ليصوروك ملحداً شتاماً.

لينين: الأضداد يمكن أن يتقاربوا، ولكن «التراضي» كما أصبحوا يقولون الآن، لن يحل بينهم أبداً. فلامناص هنا من الشجار، خذ هذا بالحسبان. وفي أثناء الشجار لاوقت لانتقاء الكلمات واللكلمات. ثم كيف تريدني أن أتصرف إذا كان «الشيخ»لايني يفتري طوال الوقت بهمة شاب موفور الصحة على أبيقور وعلى المادية عموماً، ويهبش من أرسطو زعمه «إن العقل وما يدركه العقل فقط ـ هما الشيء نفسه»... أنا موافق على أن هيجل بالذات يمكن الوقوف منه موقفاً لبقاً وتفنيد أخطائه بدون إهانات. ولكن لاتنس أن الأمر كله يعتمد على معرفة مايأتي: من الذي يستخدم أخطاء المثاليين «الطيبين» وكيف يستخدمها ولأية غاية. إن أخطاءهم تكلف البشرية غالياً. ولا يجوز أن نحاكي الخنزير الذي أشار إليه الريبي بيرون لافتاً إليه أنظار مرافقيه المذعورين في أثناء العاصفة البحرية، عندما كانت السفينة مهددة بالغرق، بينما ظل الخنزير في حالة لا مبالاة تامة واستمر في التهام الطعام بهدوء. وقد قال بيرون لتلاميذه: «على الحكيم أن يظل متحلياً بمثل هذا الهدوء». لا، أنا إنسان، والعواطف الانسانية ليست غريبة عني.

سقراط: كلكم خرجتم عن الموضوع. كثير من الكلام ــ وقليل من الحقيقة. علماً بأن الحقيقة بسيطة، وبالتالي ينبغي التعبير عنها بكلمات بسيطة.

السجين: ولذلك اقترحت ان نعّرف العقل والفلسفة والفضيلة.

سقراط: يجب ان تعلم أن على الأنسان أن يجد الغاية من أعماله، وغاية العالم النهائية على حدّ سواء، انطلاقاً من نفسه فحسب، وعليه ان يتوصل إلى الحقيقة بقواه الذاتية.

السجين: موافق على الرأي الأخير: فلا أحد يمكنه أن يساعدني على معرفة الحقيقة، إذا كنت أنا نفسي لا أرغب في ذلك، بيد أن الرأي الأول يربكني: فهل يمكن معرفة الحقيقة انطلاقاً من الذات فقط دون الإطلاع على ما تراه أنت، سقراط، على الأقل في هذا الموضوع. وكيف

يمكن تجنب الوقوع في حلقة مفرغة. انطلاقاً من ذاتي استنتج أنني حر، ولكن المحيطين بي لايرون هذا الرأي، والواقع مختلف، وفي ممر سجني يقترب وقع خطوات المراقب.

هيجل: لكي تفكر بشكل صحيح ينبغي أن تقيس على رأسك إكليل الشوك الذي كان يتوج رؤوس المفكرين القدماء. إن اجتياز العقبات للوصول إلى الحقيقة بأقصر الطرق غير ممكن إلاّ بعد استيعاب كل ما وعاه العقل خلال آلاف السنين قبلك. إذا نحن لم نجتز الطرق التي سار عليها القدماء حكمنا على أنفسنا بالتيهان في المجاهل

سقراط: لنبدأ بالأبسط. إذا كان الإنسان «الأنا» يفتش عن الحقيقة، دعونا نحدد ما هو «الأنا»، وإذا كانت الحقيقة هي الخير، دعونا ندقق ما هو هذا الخير

السجين: في هذه الحالة ستعتبر محاولتنا مجرد إحماء ذهني قبل بداية مسير الماراتون نحو الحقيقة.

هيجل: هذا الماراتون يمتد آلاف السنين.

السجين: صمتاً! المراقب عند باب زنزانتنا.

صوت:

(نهوض)!

السجين: انتهى! لننم. إلى اللقاء.

الفصل الثالث

«تكفي كلمة واحدة،
لتلتهب الأهواء حريقاً مخيفاً
ويكفي نذل واحد
لتصبح حياة الكثيرين كابوساً»

ـ حمزة تسَدَسا ـ

الكلمة

الساعة ٢٢ في ١٠ كانون الثاني عام ١٩٩٤ بعد ميلاد المسيح. تفتح الطاقة في الزنزانة ٣٢ في سجن ليفورتوفو.

صوت: مبيت!

يدخل فلاسفة الإغريق القدماء. أكبرهم سناً غورغياس (ولد في العام الثاني من الأولمبياد الثامن والثمانين عام ٤٢٧ قبل ميلاد المسيح)[1] ومعه سقراط وأرسطو وآخرون. لينين وهيجل يتجادلان في أمر ما.

سقراط: إذا كان الإنسان المفكر هو معيار كل الأشياء، إذن فمدة حياة الانسان لا تقدر بثمن. ولذا فإننا لن نهدر الوقت في أمور تافهة. فلنتجه إلى الجوهر رأساً دون مواربة.

السجين: ألا تعتقد، يا سقراط، أن علينا قبل كل شيء أن نجد الموضوعة الأساسية الثابتة المفهومة لنا جميعاً، ومن هذه الموضوعة العامة ننطلق نحو الحقيقة. وإذا كانت الحقيقة بسيطة، فإن العام أيضاً ليس صعباً. فكيف نسميه؟ وبأية كلمة ندل عليه؟

هيجل: أشير هنا إلى أن المجيب في اليونان القديمة كان يقف موقف الاحترام من السؤال، ويتقيد تماماً بما يسألون عنه.

سقراط: نعم، أنا كنت ضد مقاطعة المتحدث، وضد جعله ينحرف عن الموضوع باقحام مزحة أو إيماءة استخفاف. وأنا نفسي كنت أحب أن

---

١ ـ تجمع المراجع على أن غورغياس ولد حوالي عام ٤٨٠ وتوفي حوالي ٣٨٠ ق.م علما بأن عام ٤٢٧ يطابق فعلاً العام الثاني من الأولمباد الثامن والثمانين إذ ان الألمباد الأول بدأ عام ٧٧٦ ق.م وأصبح يتكرر كل أربع سنوات.

أريك محاوري باستنباطي العام من المشخص، أي بالكشف عن مجهول في الأشياء المألوفة للمحاور. ولكنني لم أعمد قط لا أنا ولا تلاميذي إلى التلاعب بالكلمات. الكلمة مقدسة، وينبغي أن تحمل مفهوماً محدداً بدقة.

هيجل: لا بأس، هذا يتفق مع قواعد الفلسفة في القرن الثامن عشر بعد ميلاد المسيح، ومع قواعد الفلسفة الخيّرة عموماً. إن افحامك الشخص الذي يتبادل معك حديثاً عادياً، بحيث تجعله لا يعرف بم يجيبك يبدو لنا تصرفاً غبياً، ويفضي إلى البحث عن تناقضات صورية، وإذا أقدم أحدهم على هذا فإنه يعرض نفسه للملامة، وذلك لأنه لا يفكر إلا في الكلمات، ولأنه يمارس التلاعب الفارغ بها. ولذا فإن جديتنا الألمانية تأبى أيضاً التلاعب بالكلمات وترى في كل ذلك ذكاء فارغاً من المضمون، بيد أن الإغريق كانوا يضعون الكلمة المحضة والنظر المحض في الجملة في مرتبة عالية تبلغ مرتبة الجوهر نفسه، وإذا كانوا غالباً ما يقابلون الكلمة بالجوهر فإن من الواجب القول أن الكلمة أعلى من الجوهر وذلك لأن الجوهر غير المعّبر عنه هو، في الحقيقة، شيء ما غير معقول، وذلك لأن المعقول لا يوجد إلاّ على شكل لغة.

السجين: نعم، المعقول، الموجود، يسعى لإيجاد شكل يعبر به عن نفسه، ويجده في الكلمة، سواء المنطوقة أو المكتوبة.

لينين: اسمح لي يا عزيزي! آمل أنك تعرف أن الكلمة نفسها يختلف لفظها باختلاف اللغة التي تنتسب إليها. وهذا يعني أن المهم ليس الكلمة ذاتها، بل المفهوم الذي تتضمنه. وهنا يا محترم، لا مناص من مصادفة المحتالين. فبينما يكون بعض الفلاسفة مشغولين بالتنقيب عن جوهر الكلمة يعمد بعض النصابين إلى فرض مفهوم آخر لها.، وقد حدث هذا في زماني مرات كثيرة.

السجين: ليس لدي ما أواسيك به، إيليتش! فبعدك وبعد ستالين تحولت روسيا إلى مرتع للمتلاعبين بالكلمات. وينبغي أن نقدم قصب السبق في زخرفة الكلام للمدعو غورباتشوف، الذي خرب حزبك، يا إيليتش، وخرب الدولة. وكل هذا بدأ من كلمة طنانة هي «بيريسترويكا» (إعادة البناء).

لينيـــن: لا يأتي من عمليات إعادة البناء هذه سوى المصـائب! قبـل أن يفلحوا في عمل أي شيء تراهم يطالبون بإعادة البناء.

السجين: ليت الأمر يقتصر على هذا! ففي عصرنا لم يكتف أنصار إعادة البناء بالتحرك الفوضوي المتعجل، بل عكفوا على هدم ما كان قد أنجـز قبلهم. ولم يكن لدى غورباتشوف مـن جـواب علـى جميـع التساؤلات سوى عبـارة: «البيريسـترويكا! العملية بـدأت!». أيـة بيريسـترويكا؟ وماذا تعني إعادة البناء هذه؟ وما الذي ينبغي إعادة بنائه، ولأية غايـة؟ لا أحد من الفلاسفة الرسميين (ما عـدا معلمـة الكيميـاء المتواضعـة نينـا أندرييفنا) وجد أن من الضروري تخصيـص الوقـت الكـافي للتسـاؤل عـم تخفيه وراءها هذه الكلمة الدارجة.

لينيـــن: وطبعاً ظهر أوغاد صرفوا كل همهم إلى ملء هذه الكلمة الفارغـة بالمضمون اللازم لهم.

السجين: نعم، ظهر أمثال هؤلاء الأوغاد يا إيليتـش! سـواء في وطنـك أو فيما وراء المحيط. وقد أعادوا البناء بطريقة لم تترك حجراً على حجـر في الدولة الاشتراكية. أما الكلمات العقيمة الأخرى مثل: الاصلاحات، والديمقراطية. فقد طرحوها للاستعمال فيما بعد..

لينيـــن: وحتماً هم يصرخون في كل مكان قائلين: إن الديمقراطية ـ هـي حرية انتزاع الخبز والعمل والمسكن من الشعب من جهة، وتوفيرإمكانية فضح اللصوص علانية من جهة أخرى

السجين: الحالة أشبه بحفلة من حفلات الخلاعة والفجور الباخوسـية لم يكن يجري تحوير الكلمات فحسب، بل كانوا يحورون بعض أجـزاء الكلمات أيضاً. ففي استونيا استنفروا الأكاديمية بأسـرها، لا لشيء إلا ليبرهنوا على ان اسم عاصمة استونيا «تـالين» يجـب أن يكتـب باللغـة الروسية بنون مضاعفة في نهايته. وانتهـى الأمـر إلى أن استونيا وسائر جمهوريات البلطيق كانت أول من خرج من نطاق الاتحـاد السـوفييتي، وأول من أبدى الرغبة في الإنضمام إلى حلف الدول الرأسمالية العسـكري (الناتو). وهي الآن تسعى بسرور لاستيعاب اللغة الأنكليزية، بيـد أنهـا لا تلاقي أية مشكلات بالنسبة إلى حرف «النون» لقد كان الصراع حول

كل كلمة وكل حرف يعكس احتدام الصراع السياسي بشكل لم يسبق له مثيل. وتكاثرت في روسيا أسراب المتهافتين على تحريف وتغيير معاني الكلمات. فمنذ مدة قصيرة، في نيسان عام ١٩٩٣ بعد ميلاد المسيح أجرى الرئيس الروسي يلتسين والأوساط المحيطة به استفتاءً شعبياً، طلبوا فيه من الشعب الذي انهكته «إعادة البناء» والاصلاحات و«الديمقراطية» على وجه العموم أن يجيب عن سؤال: «هل أنت موافق على اجراء انتخابات مبكرة لرئيس روسيا؟» وكان المطلوب، وفق قواعد الإغريق القدماء بالضبط، الإجابة بـ «نعم» أو «لا». ومن أصل ١٠٨ ملايين مواطن روسي يحق لهم التصويت أجاب أكثر من الثلث بقليل بكلمة «لا»، وأجاب ثلث آخر بكلمة «نعم»، أما الباقون فقد رفضوا الاشتراك في الاستفتاء أصلاً. والآن قل لي، يا سقراط، كيف ينبغي أن نفهم هذه الأجابة التي أدلى بها الشعب؟

سقراط: إن ثلث مجموع مواطني روسيا الذين يحق لهم التصويت عبروا عن معارضتهم لإجراء انتخابات رئاسية مبكرة. ولكن لم يتسن استيضاح إرادة أكثرية الشعب.

السجين: ما حدث بالضبط هو أن عدد الذين صوتوا ضد إجراء انتخابات مبكرة للرئيس يزيد قليلاً عن عدد الذين صوتوا إلى جانب إجرائها. ولكنكم لا تستطيعون أن تتصوروا أية ضجة أحدث أنصار الرئيس يلتسين، زاعمين أن الشعب قد أيّد من جديد «المنتخب من قبل الشعب كله».

هيجل: لا يمكن ان يحدث هذا إلاّ في حالة غياب ثقافة التفكير لدى الشعب، وعدم إبداء الدولة أي اهتمام بتعليم مواطنيها تعليماً فلسفياً.

السجين: الرئيس يلتسين الذي يستمد الإلهام من «التأييد» الذي لا وجود له، يأمر بقصف البرلمان الروسي بقذائف الدبابات ومن البدهي أنهم عادوا من جديد لتمويه هذه البربرية بكلمة «الديمقراطية» وضرورة حمايتها. ولكي لا يتردد في مسامع الشعب صدى انفجارات قذائف الدبابات وأنين احتضار غير الموافقين على مثل هذه «الديمقراطية» باشروا على الفور بقرع الطبول إيذاناً باجراء استفتاء جديد آخر. وقد

طرحوا للتصويت في هذه المرة السؤال الآتي: «هل تؤيد دستور روسيا الاتحادية؟ نعم أم لا؟» في ذاك الوقت كان يعمل في البلاد بالدستور الذي عدله يلتسين. وقد «فصّل» أنصار يلتسين على مقاسه مشروع دستورهم الاستبدادي. وكان يوجد إلى جانب ذلك مشروع الدستور الاشتراكي الذي جمع الشيوعيون مليون توقيع تأييداً له.

هيجل: وعلى أي دستور صوّت الروس، إذا كان السؤال قد طرح عن الدستور عموماً؟

السجين: هنا يكمن جوهر القضية، فالملعوب كله يقوم في أنه بغض النظر عما جرى التصويت عليه أوّلت نتائج الاستفتاء في صالح دستور يلتسين. لقد انتشلوا مشروع يلستين من أذنيه لينقذوه من السقوط، خارقين في أثناء ذلك قانون الاستفتاء بفظاظة، وهنا تجد نفسك تفكر دون إرادة منك في معنى «الكلمة»، وفيما إذا كان بمقدور «الكلمة» عموماً أن تعكس بدقة جوهر الموضوع أو المفهوم بشكل يمنع أي وغد من أن يتجرأ على تأويل المعنى كما يحلو له.

غورغياس: لقد أحجمت حتى الآن عن الاسهام في الحوار. ولكنني وأنا أصغي إلى نقاشكم لا أستطيع أن أتمالك نفسي عن أن أؤكد صوابية الفلاسفة الذين عاشوا قبل ألفين وخمسمئة سنة من الأحداث الآنفة الذكر التي وقعت في روسيا. فمعاصريّ، وأنا نفسي، لم نكن نشق بالكلمات. وحتى لو أننا تصورنا الموجود (المفهوم، الجوهر) لم نكن لنستطيع التعبير أو الإبلاغ عنه. الأشياء يمكن أن ترى وتسمع الخ.. وأن تحس عموماً. والمرئي يدرك بواسطة البصر، والمسموع بواسطة السمع، وليس العكس. وبالتالي لايمكن إظهار شيء بواسطة آخر، والكلام الذي بواسطته كان ينبغي التعبير عن الوجود ليس هو الوجود: إن ما يجري إبلاغه، بالتالي، ليس هو الشيء نفسه، ليس هو الفكر نفسه، بل هو الكلام فقط.

لينين: صحيح، أيها الشيخ! الكلمة والكلام لايمكنهما التعبير عن الوجود ليس فقط لأنهما لاينتميان إلى الاحساسات التي بفضلها نتعرّف الواقع المحيط بنا، بل بالدرجة الأولى لأن الواقع المحيط بنا والمادة

لانهائيان بجوهرهما. الكلمة لا يمكنها أن تعبر عن اللانهاية، وهدفها هو أن توصل إلى الوعي الجوهر النسبي بأكبر دقة ممكنة. فلنأخذ الكوب الخشبي الذي كنتم، أنتم القدماء، تشربون به. عند اللزوم كان يمكن إلقاؤه في النار للاستدفاء. وإذا ما نشّطنا خيالنا بعض الشيء أمكننا أن نتصور كيف يصلح هذا الكوب للعراك، وذلك باستخدامه لضرب الخصم على الرأس. والفيزيائي المعاصر بوسعه القول أن الكوب هو امتزاج ذرات معينة. وفي المستقبل سيفكك العلم المعاصر الذرات ونواها وبمقدوري الافتراض أن التفكيك سيستمر إلى إن يتحول الوجود وتتحول المادة إلى ضدهما ـ إلى العدم وكل هذا جوهر شيء ملموس. وهذا الجوهر يستحيل التعبير عنه بكلمة. ومع ذلك فإن المفهوم الرئيسي الذي يبرز مع كلمة «كوب» هو وعاء لشرب الماء، والأحسن ـ لشرب الخمر

ديوجين: عندما رأيت كيف يشرب صبيان أثينا الماء من الينبوع براحات أيديهم طرحت كوبي. فالإنسان الذي تجرأ على السعي إلى بلوغ الحقيقة، تعرقل الأشياء، والملموس مساعيه.

لينين: إن أية كلمة تزيد المعرفة غنى. الإحساسات والمشاعر الحسية ترينا الواقع المحيط بنا. والفكرة والكلمة تقومان بالتعميم.

هيجل: الاستعمال الصحيح والدقيق للكلمة هو مطلب حتمي من مطالب الفلاسفة. وقد كان السوفسطائيون في اليونان القديمة يدركون بوضوح أنّ الاستعمال الصحيح للكلمة هو عنصر جوهري من عناصر البلاغة ـ الفن الذي أصبحوا هم أساتذة فيه. وكانوا يرون أن الشخص الفرد يمكنه عن طريق البلاغة في الخطابة أن يحظى بإجلال الشعب له، كما لو أنه قد حقق شيئاً لخدمة الشعب ومنفعته، ومن البدهي أنّ هذا يتطلب وجود بنية ديمقراطية للدولة يكون القرار الأخير فيها للمواطنين. إن البلاغة تتسم على وجه الخصوص بأنها تطرح وجهات نظر متعددة، وتمنح القوة لتلك التي تتفق مع ما يبدو لي مفيداً. وعلى هذا فهي ثقافة تسمح لنا بأن نقدم، بالنسبة إلى حالة معينة ملموسة، وجهات نظر محددة، ونؤخر وجهات نظر أخرى.

السجين هذا دليل على أنّ الكلمة التي يقصد منها التعبير عن حقيقة الوجود بواسطة البلاغة تهدف بادىء ذي بدء لتحقيق خير الشعب، ثم تسخّر فيما بعد لخدمة مصالح معينة لشخص معين، وتخضع للإرادوية والتدليس. كثيرون من «كتاب الخطب» وفرق رؤساء الجمهوريات والديكتاتوريين يرغمون الكلمة على خدمة مصالح أشخاص معينين. في روسيا المعاصرة لي شاع مثل يقول: «اللغة لاتستخدم للتعبير عن الأفكار بل لإخفائها». وها هم السوفسطائيون أنفسهم قبل ٢٣ ــ ٢٤ قرناً، لم يلتزموا طويلاً على قدر فهمي، بالأهداف الموجهة لخير الشعب، بل سرعان ما أتقنوا تكنيكاً في استعمال الكلمة يجعلهم يبدون أمام الملأ في أحسن صورة، ويقلل من شأن المحيطين بهم، وقد حفظ لنا التاريخ أمثلة كثيرة على هذا. لننظر في بعضها كي نتفهم تكنيك الإرباك، أو كما يعبرون باللغة المعاصرة، تكنيك «برمجة» الناس.

هيجل إننا، قبل كل شيء، نجد عند أرسطو في تفنيده للأغلوطات السوفسطائية كثيراً من هذه الأمثلة التي كان أبطالها إما من السوفسطائيين أو من المحاورين القدماء. كما نجد لديه أيضاً حلولاً لهذه السفسطات. وينبئنا التاريخ أن فن الجدل الذي يقوم على إرباك المحاورين وإفحامهم بتوجيه الأسئلة وبالقدرة على الإجابة عنها كان لعبة منتشرة يمارسها الفلاسفة الإغريق سواء في الأماكن العامة أو حتى على موائد الحكام. وبما أن الحقيقة بسيطة، فإن المطلوب هو الإجابة عن الأسئلة ببساطة. ويعتبر هذا المطلب هو مطلب العقل فعلاً. وعلى هذا فإن التشويش كان يتأتى من مطالبتهم بالإجابة عن السؤال المعقد بجواب بسيط إلى حد البدائية: «نعم» أو «لا». وبما أن المحاور لايستطيع أن يقدم على قول «لا» ولا على قول «نعم» يشعر بالارتباك، لأن عدم القدرة على الإجابة عن السؤال يظهر قصور العقل.

السجين ما أشبه هذا بما يفعله مندوبو وسائل الإعلام «الديمقراطية» في روسيا: فهم يطرحون أسئلة معقدة اجتماعياً، ويطالبون بجواب بدائي مؤلف من كلمتين، متذرعين بعدم وجود حيز في الصحيفة أو على الأثير الخ...

هيجل: إن هذا المبدأ يتجلى بالشكل الآتي: إذا كان لدينا حكمان متناقضان فلابد من أن يكون أحدهما صادقاً (حقاً) والآخر كاذباً (باطلاً). فالحكم إما صادق أو غير صادق، والموضوع لايمكن أن يكون له محمولان متناقضان. وهذا المبدأ الأساسي للعقل الذي يسمى: Principum exlusi tertii (مبدأ الثالث المرفوع) يضطلع بدور كبير في جميع العلوم إنه مبدأ سقراط وأفلاطون الذي ينص على أن الحكم الصادق يجب أن لايناقض نفسه. وفي إحدى تفنيدات أرسطو، وهي تحمل اسم «الكاذب»، يطرح السؤال الآتي: «إذا قال شخص إنه يكذب فهل هو يكذب أم يقول الحق؟» والمطلوب جواب بسيط، لأن البسيط الذي ينفي ضده يعتبر حقيقياً. فإذا أنت أجبت: إنه يقول الحق كان قولك مناقضاً لمضمون كلامه: فالرجل نفسه يعترف بأنه يكذب، وإذا زعمت أنه يكذب، توجب الاعتراض على هذا الزعم بأن اعترافه يكون في هذه الحالة صادقاً. وعلى هذا فهو يكذب وفي الوقت ذاته لايكذب. ولايمكنك بحال من الأحوال أن تعطي جواباً بسيطاً عن السؤال المطروح، وذلك لأن الطرح هنا يجمع بين ضدين ـ الصدق والكذب ـ والتناقض المباشر بينهما. وقد نشأ مثل هذا الوضع مرة بعد أخرى بأشكال مختلفة، وشغل أذهان الناس في جميع العصور.

أفلاطون: كتب الرواقي الشهير خريسيبس (كريزيب) عن هذه المسألة ستة مجلدات. أما فيليت الكوسكي فقد مات بالسل الذي أصيب به بسبب الجهود المفرطة التي بذلها من أجل حل هذه المعضلة.

السجين: والحقيقة، كشأنها دائماً، بسيطة! إن السؤال القائل: «هل يكذب أم يقول الصدق الشخص الذي يزعم أنه يكذب» لايمكن الإجابة عنه إجابة بسيطة. وليس ذلك لأن القضية معقدة، لا، مطلقاً، بل كل ما في الأمر أن السؤال نفسه غير تام. فإذا كان المتكلم يعترف بأنه يكذب، يبرز السؤال الآتي: فيم هو يكذب؟ اعترافه بأنه يكذب أمر جيد يستحق عليه الثناء. وهذا الجانب الظاهر من القضية لايرقى إليه الشك. ولكن الكذب نفسه له شأن آخر. فمتى هو كذب، وعلى من كذب، وبم كذب؟ والسؤال قد أخفى عنا هذه التفصيلات الجوهرية، وبالتالي فنحن

نملك الحق في أن نتهرب من الجواب ونتهم السائل بالاحتيال الكلامي.

هيجل: خلال مايقارب ألفي سنة نصادف مثل هذه الأمثلة في الأدب العالمي. وعلى سبيل المثال نجد في رواية سيرفانتس «دون كيشوت» الحادثة الآتية: يعرض على سانشو بانسا حاكم جزيرة بارتاريا في أثناء ممارسته القضاء بين الناس كثير من القضايا القائمة على الدهاء. من هذه القضايا أن أحد الأغنياء في الجزيرة المذكورة بنى جسراً على نفقته لنفع المسافرين، ونصب بجانب الجسر مشنقة. وكان الحراس يسمحون لأي شخص باجتياز الجسر شريطة أن يقول بصدق إلى أين هو ذاهب، وإذا كذب عوقب بالشنق. وذات مرة جاء شخص إلى الجسر يريد اجتيازه، وعندما سئل إلى أين هو ذاهب، أجاب بأنه ذاهب ليشنق على هذه المشنقة. ووقع حراس الجسر بحيرة شديدة من هذا الجواب، فإذا هم شنقوا الرجل كان معنى ذلك أنه صدق فيما قاله وكان ينبغي أن يدعوه يجتاز الجسر بسلام، وإنْ هم سمحوا له باجتياز الجسر فإنه سيكون كاذباً فيما يقوله. ولحل هذه المعضلة يستنجدون بحكمة الحاكم. ولم يجهد سانشو بانسا نفسه بالتفكير الطويل وقضى أنه في حالات الشك ينبغي اختيار الإجراء الأخف.

السجين: لقد تصرف سانشو بمنتهى الحصافة! ففي القضايا التي يكون الخيار فيها بين الحكم بالاعدام والعفو ثمة دور كبير لا للكلمة فحسب، بل حتى للفاصلة التافهة وللمكان التي توجد فيه. وكلنا نذكر الحاشية التي كتبها أحد ملوك فرنسا على التماس بالعفو قدمه شخص حكم عليه بالإعدام على المقصلة: «الاعدام لايجب العفو» ولم يضع الملك فاصلة في الجملة. فإذا وضعت فاصلة بعد كلمة «الاعدام» كان معنى ذلك أن المطلوب هو قطع رأس المحكوم عليه، وإذا وضعت فاصلة بعد عبارة «لا يجب» ظل الجلاد دون عمل. وعلينا من الوجهة الانسانية أن نؤوّل سهو الملك تأويلاً يخفف الحكم، أي أن نعتبره مساوياً للعفو. أما فيما يخص المشنقة قرب الجسر فإن المنطق البسيط بمقدوره أن يدلنا على المخرج الصحيح. أولاً ـ كان لزاماً على المحسن

الذي أقام الجسر والمشنقة أن يصدر للحراس أمراً أكثر وضوحاً: ولايشنق سوى من يكذب ولايسمح بالمرور إلا لمن يقول الصدق فقط. وبما أن الحراس غير قادين على التحقق من صدق أقوال المسافرين فإنهم لن يتحولوا أبداً إلى جلادين. أما بالنسبة إلى الشخص الذي حيرهم فقد كان بمقدورهم في هذه الحالة أن يفسحوا له إمكانية شنق نفسه دون أن يخالفوا الأمر الصادر إليهم. فهو لم يعبّر حتى مجرد تعبير عن رغبته في اجتياز الجسر، وبالتالي عليه أن ينفذ رغبته بنفسه، ولكن الحراس لايملكون أي حق في شنقه. ولم يكن ثمة داع لإزعاج سانشو بانسا الطيب بشأنه.

أفلاطون إن كل من لايريد أن يخدع بالسفسطة أو التلاعب بالكلمات ينبغي عليه أن يبحث باستمرار عن المعنى الأصلي للكلمة والمصطلح. لأن الذي لايولي الكلمات أهمية يقع فريسة سهلة في براثن المحتالين.

السجين يقولون اليوم إن التلاعب بمثل هذا الشخص أمر سهل.

أفلاطون إن معرفة المعنى الدقيق للكلمات والمفاهيم، والقدرة على رؤية مصالح قوى معينة وراء هذه الكلمات هو جزء من الثقافة الفلسفية، والفرق بين الحالة المتسمة بوجود الثقافة الفلسفية والحالة المتسمة بغياب هذه الثقافة كبير. تصوروا مأوى تحت الأرض يشبه الكهف له مدخل ضيق موجه نحو النور، وسكان هذا الكهف مقيدون إلى الجدار ولايمكنهم الالتفات، وبذلك فهم لايستطيعون أن يروا سوى الجزء الخلفي من الكهف. وعلى مسافة بعيدة خلفهم ثمة شعلة يبدد نورها الظلمة، ضمن هذا الحيز يوجد في الأعلى طريق يمتد على طوله جدار منخفض، وخلف هذا الجدار يقف أناس متجهون نحو النور يحملون بأيديهم تماثيل مختلفة تصور بشراً وحيوانات شبيهة بالدمى في مسرح العرائس، ويرفعون هذه الدمى إلى ما فوق الجدار. وهم يتحادثون تارة ويلوذون بالصمت تارة أخرى. وبما أن سكان الكهف مقيدون إلى الجدار فإنهم لايستطيعون أن يروا سوى الظلال التي ترتسم على الجدار المقابل، وهم يظنون أن هذه الظلال كائنات حقيقية، وأن الكلام الذي يتبادله حاملو الدمى، والذي يصل إليهم صداه فحسب هو رجع كلام الظلال. ولو

أتيح لأحد هؤلاء المقيدين أن يتحرر ويصبح بمقدوره الالتفات برأسه إلى جميع الجهات ورؤية الأشياء نفسها لاظلالها، لظن أن ما يراه الآن هو أضغاث أحلام وأن الظلال هي الواقع الحقيقي ولو أخرج أحد هؤلاء المقيدين من الكهف إلى النور لبهرهم الضياء وأعمى أبصارهم ولما رأوا شيئاً، ولكرهوا الشخص الذي أخرجهم إلى النور واعتبروا أنه قد سلبهم الحقيقة، وأورثهم بدلاً منها المصائب والويلات.

السجين: مرحى ياأفلاطون! مرحى أيها الرائع! أن يعيش المرء في القرن الخامس قبل العصر الجديد (ولد أفلاطون، كما يذكر دودويل في العام الرابع من الأولمبياد السابع والثمانين ـــ ٤٢٩ قبل العصر الجديد) ويستطيع أن يخمن بدقة تقريباً دور التلفزة في نهاية القرن العشرين أمر لايكاد يصدق! كل أمر موصوف بدقة! طبعاً، الأكاديمي ياكوفليف الذي يرأس مركز التلفزة في أوستانكينو لايحمل على رأسه قروناً ولا أحد ينيره بضوء الشعلة. والتقنية ووسائل الاتصال المعاصرة تحوّل بواسطة التلفزة دون أي عناء مئات ملايين الشقق إلى كهف واحد. أضف إلى ذلك أن الصور التي تصل إلى كل خلية من خلايا هذا الكهف على درجة من الجمال ومن الاختلاف عن العالم الواقعي نحو الأحسن تجعل من غير الضروري تقييد المشاهدين بحيث لايستطيعون تحويل أبصارهم عن الشاشة. إن مئات ومئات الملايين يشاهدون طواعية ودون انقطاع كيف يبكي الأغنياء بمرارة وكيف تعاني الأمة إيزاورا[1] وتتقلب من جنب إلى جنب على سرير باتساع ملعب الكرة الطائرة. ومن المفهوم أنه إذا كان القدماء يعلموننا أن نحترس إزاء كل كلمة، أوعلى الأقل ألا نثق بالكلمات إلا بعد أن نستوضح معانيها، فإن موقفنا من التلفزة يجب أن يتسم بحذر وتيقظ أكبر. وكم هو كبير هنا الإغراء الذي يدفع إلى التلاعب بوعي الجماهير الغفيرة. أواه! إن مشاهدي التلفزيون، شأنهم

١ـ بطلة مسلسل تلفزيوني أجنبي طويل يبالغ في التصوير الميلودرامي لحياة إناس مترفين يعيشون في بذخ ورفاهية. عرضه التلفزيون الروسي في عهد البيريسترويكا وحظي بشعبية واسعة.

شأن سجناء كهف أفلاطـون، مستعدون لتمزيـق كـل من يتجـرأ علـى انتزاعهم من أمام الشاشة الصغيرة وإدارة وجوههم نحو العـالم الواقعـي. ثم إن تقنية التصوير والإرسال التلفزيوني لاتنفك تتطـور وترتقـي. ومـن المحتمل إلى حد كبير أن يضيفوا قريباً جداً إلى صـورة حشوة الفسـتق و «طبقة الشوكولاته السميكة السميكة» في قطعة «السنيكرز» رائحة القطعة أيضاً. عندئذ يغدو من المتعذر انتزاع الجائعين مـن أمـام التلفزيـون حتـى ولو كانوا مهددين بخطر الموت جوعاً.

سقراط: ولذلك كنت أعتـبر أن الكلمـة والاحساسـات (مـاتراه وتلمسـه وتسـمعه) ليسـت بعـد مـن الخـيرات، وليسـت هـي الحقيقـة بعـد. فالحقيقة، المتمثلة في العام، موجودة في تفكـير الإنسـان بـالذات. ولكـن التفكير يجعل الحقيقة فعالة نشطة عند البعض فقط، بينما نجدها عنـد البعض الآخر غافية كالضفدع في فصل الشتاء، وذلـك بسـبب الكسـل أو الجهل. إن التفكير، العقل، هو الذي يحكم ويحدد ذاتـه، هـو العـام. التفكير هو المبدأ الأولي المستقر الثابت الذي ينبغي الاعتمـاد عليـه عنـد البدء بالبحث عن الحقيقة. اعرف نفسك ومـن ثـم يصبـح مـن الأسـهل عليك أن تعرف العالم والناس الآخرين. على الإنسان أن يجد الغاية من أعماله وغاية العالم النهائية انطلاقاً من نفسه فحسب، وعليه أن يتوصل إلى الحقيقة بقواه الذاتية.

السجين: سنتحدث عـن هـذا، علـى الأرجـح، في المـرة القادمـة. والآن صمتاً.

[تفتح الطاقة في الباب الحديد للزنزانة رقـم ٣٢ ويرتفـع صـوت يقـول: «نهوض!»]

الفصل الرابع

«إذا كنتُ قد استطعت أن أتجاوز
تيار الدموع ـ وأبحر بإرادة القدر
إلى البعيد ـ فإنني لن أهاب
هذا التيار ولا هذه الهاوية.»

ـ لويس دي كاموينس ـ

حلم فوق الهاوية

كل كلمة تعبر عن مفهوم، وكل مفهوم له حدود. ولكننا لن نجد أبداً كلمة تعبر عن «هذا». حتى كلمة «الكون» ضيقة بالنسبة «إليه» وغير مقبولة. وأنجح تسمية «له» هي التي أطلقها «عليه» لومونوسوف: «انفغرت الهاوية، ملأى بالنجوم، نجوم لا عدد لها والهاوية ـ لاقعر لها...»(١).

إن عظمة الهاوية تملأ القلب برعب بارد لاتفسير له وبسرور نيّر هادئ في الوقت نفسه. وما كان يبدو لنا نجمة تائهة في ظلام الهاوية الحالك تبين عند الاقتراب منه أنه مجرة تدير على عمودها المحوري عدداً لا يحصى من النجوم. وقبل أن نرى أو نحس بما جرى يكون قد ومض في مكان ما من «الهاوية» تجمعات مجرات جديدة، ولوّنت دروبُ تبانةٍ جديدة أرجاءً خفيةً من «الهاوية» بسديم مضيء. وتزيد كواكب بكر جديدة من سرعة عدوها في مدارات حول النجوم. ويدفع التطور إلى شواطئ محيطات برتقالية وحمراء وزرقاء وخضراء بكائنات خيالية ستجتاز، خلال ملايين السنين الأرضية وعبر الصراع من أجل الحياة والتمتع بمشاهدة «الهاوية» والإحساس بها، الطريق إلى العقل، وستشرع، مفعمة بأمل مجنون لايخبو أواره، بالبحث في رحم «الهاوية» عن مثيلات لها. وسيتوقف نجاح البحث على المصادفة والزمن.

---

١ ـ كلمة الهاوية بالروسية منحوتة من كلمتين معنى الأولى: «بلا» ومعنى الثانية «قعر» وهكذا تصبح الكلمة «بلا قعر» وتستعمل للتعبير عن العمق البعيد في السماء والأرض. والهاوية بالعربية: المهواة التي لايدرك قعرها (لسان العرب) والجو (المعجم الوسيط والمنجد). (المترجم).

لا أحد يمكنه القول ما الذي يحمله لنا الزمن. اليوم يحمل لنا قوة ارتقاء كامنة إيجابية خلاقة في أحد قطبي المكان، وغداً يبدأ عَدْوٌ سلبي معاكس في القطب الآخر. وعندئذ تبدأ المجرات بالانكماش كالجلد المُحبحب(1). العقل المضطرب الذي ومض بسعادة في هذه النقطة من الهاوية، يتوجس اقتراب العواصف والكوارث التي ستحرق الحياة، فيبحث عن النجاة ويندفع بالفكر نحو الفراغ الهائل مفعماً بالرجاء.

وهناك، حيث نجح العاقلون خلال المهلة المتاحة لهم في التغلب على الفردية والتلاحم إلى الدرجة التي تصبح عندها مصالح العام أعلى دائماً من مصالح الخاص، ويتطابق الخاص دائماً مع العام، هناك تتحد شعوب الكواكب والمجموعات النجمية، وتتوحد موارد الطاقة والامكانات التقنية. وتتعاظم قدرة العقل الجماعي للحضارات حتى تبلغ درجة عظمة الهاوية نفسها.

وتبنى أساطيل فضائية كاملة أو تُبعد منظومات نجمية كاملة عن الكارثة القادمة. وتبدأ هجرة فضائية للعقل. وحيث لايعثر على إمكانات طاقية للرحلة الفضائية التي تقوم بها الكواكب أو المركبات يتأهب العقل الجماعي لملاقاة العدم. يتأهب بهدوء، دون ذعر، مستمداً الشجاعة من ذاته، وشاحذاً همة كل عضو من أعضاء المجتمع، ومهتماً بمشاعر الحنان والحب والانسجام لدى كل فرد حتى اللحظة الأخيرة من الحياة العامة.

أما هناك، حيث الفردية لم تنجح في تجاوز نفسها، يبدأ العقل بافتراس ذاته: فحتى قبل بداية الكارثة الكونية تندلع الحروب بين الشعوب، ويستخدم العاقلون لإبادة بعضهم بعضاً أسلحة مرهفة، وينتزع الأخ من يد أخيه آخر شربة ماء، وآخر كسرة خبز.. ولا أحد يسمع اللعنات الأخيرة وأنّات الاحتضار الأخيرة. لم يتغلب العقل على الفردية خلال المهلة المحددة، وتحكم عليه المادة بالإبادة باعتباره تجربة لها غير ناجحة لبلوغ الكمال الذاتي...

---

1 ـ إشارة إلى رواية أونوريه دي بلزاك «الجلد المُحبحب» وهو جلد مسحور لايني يتقلص، ويقصر بذلك حياة مالكه. (المترجم)

وتنطفىء النجوم، ولاتنفك تتساقط وتتساقط مجموعات ومجموعات كبيرة من الذرات نحو مركز الكواكب السابقة. وتضغط قوة ثقالة مهولة على الأغشية الالكترونية وتسطح دون شفقة نوى الذرات، تتكاثف مادة نجوم الأمس تكاثفاً مفرطاً، وتنسحق لا النوى الذرية فحسب، بل والجسيمات المتناهية في الصغر التي لايزال العقل إزاءها في مرحلة التخمين. وفي مكان ما في الهاوية يجري في تلك اللحظات بالذات انضغاط ثقالي كارثي للمنظومات النجمية. وتبدأ المادة المتكاثفة تكاثفاً مفرطاً بالتحول إلى ضدها ـ إلى انفجار طاقي، وينبعث من جديد إشعاع ضوئي للمليارات السنين.

أما إذا اتفق أن استمر انضغاط المجرة فإنها تتحول عندئذ إلى ثقب أسود في الهاوية وتطير نيوترينات ـ جسيمات أولية متناهية في الصغر كتلتها صفر في حالة السكون ـ بسرعة الضوء نحو مركز الثقب الأسود، متطايرة من تحت مكبس الفضاء الذي يسحق ذرات النجوم. وإذ تصل سرعة هذه النيوترينات إلى قيم لايمكن تصورها تجتاز الثقوب السوداء وتلحق بسفن الحضارات التي استطاعت الإفلات من الكارثة، وتخترق، دون أن تتوقف، درع الكبسولات التي ينام فيها العاقلون وهم في حالة ركود حياتي، وتطير عبر أجرام كواكب التجمعات النجمية الجديدة. وخلال الهنيهات القليلة التي تنفذ فيها النيوترينات عبر الأشياء التي تقابلها على الطريق تدفق معلومات الأجسام المخترقة، وتنقل لجسيمات مجهولة في الذرات تلك المعلومات التي تجمعت من قبل خلال طيرانها اللانهائي.

ولا أحد يعرف هل سيبقى هذا الحجم الهائل من المعلومات المنقولة مهملاً لا يطلبه أحد أم أن عقلاً خفياً آخر في مكان ما من الهاوية سيفك شيفرة الرسالة ويرتعد من الأسى، عندما يعلم بدمعة الطفل الذي ضربته العاصفة الفضائية من ملايين السنين... إن طيران النيوترينات، شأنه شأن الوجود، لا يتعلق بإرادة أو وعي أحد: إنه يخترق بالقوة نفسها الخثرة التافهة لطاقة أجسام السفن الفضائية، وتراكمات الغرانيت السميكة في الكواكب، وجمجمة السجين النائم في سجن ليفورتوفو في موسكو.

يرى السجين في الحلم أنه يجلس على الأرض قرب شجرة دلب انقشر اللحاء عن جزء من جذعها فبدا هذا الجزء ضارباً إلى الخضرة ومغطى ببقع

صفراء باهتة كأنه جسم أفعي عملاقة من نوع البيثون. وعند سفح الربوة المنخفضة التي تكللها الدابة يتنزه في ظل أشجار الزيتون أشخاص يرتدون قمصاناً طويلة فاتحة اللون مشدودة عند الخصر. ويتعالى هنا وهناك صياح باعة الماء واللحم المشوي على الفحم.

يجلس بجانب السجين رجل ربعة قوي البنية عريض المنكبين، تحيط بوجهه ذي العينين الحزينتين لحية جعداء. إنه غورغياس لِدَةُ سقراط، وأحد أكثر مواطني أثينا ثقافة، ورجل الدولة البارز الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. كان غورغياس يرتدي قميصاً طويلاً ذا لون فاتح مشدوداً على الخصر بحزام أحمر عُلِّقَ به سيف قصير. أما السجين فكان يرتدي بنطال جينز واسعاً كان قد اشتراه بالمصادفة في روما في أثناء اللقاء الدولي للمناضلين من أجل السلام في عام ١٩٩٣، وقد رُسم على كنزته التي أهداها إليه شيوعيو دمشق علم أحمر، عليه صورة منجل ومطرقة، وفي أسفله كتابة بحروف عربية.

أشار غورغياس بيده باتجاه الغيضة قائلاً: لقد غرس مواطنو أثينا هذه الغيضة على شرف البطل أكاديم. ولذا فإنهم يسمونها الأكاديمية. توجد هنا حلقة دراسية، ويجتمع هنا أيضاً كبار الفلاسفة جميعاً ليتبادلوا الأحاديث. وقد اكتسبت الأكاديمية شهرة حقيقية عندما بدأ أفلاطون يلقي هنا محاضراته. ولكن سقراط أيضاً عقد حواراته في ظل أشجار الزيتون هذه. أنت، كما أرى شديد الإعجاب بسقراط، ولكن عليك أن تكون حذراً.

سأل السجين بصوت متوتر: لماذا؟

فأجاب الفيلسوف:

ذلك لأن الأسئلة التي يلقيها سقراط في أثناء الحوار من شأنها أن تربك أي شخص. إن هدف سقراط هو إفحام محاوره مقنعاً إياه بأنه لايعرف شيئاً عن الأمور التي كان قبلاً يعرفها جيداً.

ويعمد سقراط إلى الانتقال من الخاص، الملموس، إلى العام. ومن يستطيع أن يتباهى بأنه يعرف جوهر العام؟ إن سقراط يشبه سمك الشفنين الرعّاد الذي يعيش في البحار الحارة. فالسمكة الرعّادة ما أن تلمسها حتى تفقد

القدرة على الإدراك وكأنك ضيف ثمل في وليمة أنت فيها غريب والجميع فيها صاحون.

فجأة صاح أحد الباعة بصوت حاد من جانب الدلبة: «ها هو الذي سيأكل! تأكل لحماً ـ يمكنك التفكير، تشرب خمراً ـ تعرف الحقيقة» كان من الواضح أنّ البائع يتسكع ويعبث على طريقة الصحفيين العاملين في صحيفة «موسكوفسكي كومسومولتس».

ـ تعال هنا!

قال غورغياس آمراً وكان ثمة عبدان (مثل هذا لايمكن أن يتراءى سوى في الحلم ولاتثبته أية حفريات أثرية) يجران عربتين ويسيران خلف البائع. وكانت العربة الأولى عبارة عن منقل من الحديد الصب مغطى بالسخام ومحمول على عجلات ويحتوي على فحم مشتعل يتصاعد منه الدخان وقطع كبيرة من لحم الضأن تشوى على سيخ. أما العربة الثانية فكانت تحتوي على أباريق مملوءة بنبيذ أبيض، وعلى بقول عشبية وفواكه. تناول غورغياس إبريق نبيذ من العربة ووضعه أمام السجين، ثم أخذ من العربة نفسها بطيخة وقطعها عدة قطع. وسرعان ما حطت نحلة على اللب الريان وبدأت تمصه. مد غورغياس يده إلى السيخ واقتطع بالسكين نفسها التي تشبه الخنجر قطعة لحم مشوية شهية ووضعها فوق بضعة أرغفة، وقال للبائع:

ـ اذهب! سأدفع لك الثمن عندما أعود إلى المدينة.

انقض السجين على اللحم المشوي، ولكنه مالبث أن توقف ورفع بصره إلى غورغياس بنظرة تنم على الشعور بالذنب، وقال بلهجة تبريرية:

ـ لقد نسيت في السجن طعم اللحم المشوي.

فأشاح غورغياس بيده قائلاً:

ـ لاتشغل بالك بأي شيء، كل. وأردف قائلاً وهو يفك من حزامه كوبين خشبيين ليسا كبيرين.

ـ هيا نشرب نخب حريتك ونخب لقائنا.

شربا النبيذ البارد المخفف بالماء. وكان القيظ يخيم في سماء أتينا الزرقاء وتحوم في الجو عقاب وحيدة.

لاحظ غورغياس دون اهتمام:

ـ الطائر مر من يسارك، إذن ستنال حريتك.

فتساءل السجين متعجباً:

ـ هل تؤمن بالتطير؟

فأجاب غورغياس وهو يهز كتفيه:

ـ هكذا يعتقد الإغريق، أما أنا فأنني لا أؤمن إلاّ بما يمكن أن يثبته العقل.

ـ سقراط كان يقول هذا أيضاً.

ـ لا أجادلك في هذا، ولكن الانصاف يفرض علي أن أنبهك.

ـ إلامَ؟

ـ إلى أن أول فيلسوف قال: «الإنسان مقياس جميع الأشياء» قبل سقراط هو بروتاغوراس.

ـ ولكن سقراط أدخل تعديلاً جوهرياً: الإنسان كمفكر هو مقياس جميع الأشياء.

ـ نعم ولكن أول من كشف عن عنصر الوعي هو بروتاغوراس. فقبله كان الإيونيون القدماء يفكرون ولكنهم لايتفكرون في التفكير نفسه. وعلى هذا فإن تاريخ الفلسفة اليونانية يجب أن يبدأ من بروتاغوراس

ـ اسمع، ياغورغي ـ هتف السجين الذي شعر بالنشاط بعد تناوله اللحم والنبيذ ـ حدثني عن بروتاغوراس، فأنت على معرفة به.

ـ نعم، إنه أكبر مني بقليل، وقد أصابه ما أصاب أنا كساغوراس، إذ إنه طرد من أثينا

ـ لماذا؟

ـ أعلم أنه ليس لدينا في أثينا قوانين مكتوبة لجميع الحالات التي تحدث في الحياة، كما هو الحال عندكم...

ـ ربما كان عندنا قوانين، وهي مكتوبة، ولكن الحكام الحاليين ينتهكونها بشراسة لم ير الإغريق القدماء مثلها ولا في الأحلام.

ـ قوانيننا ليست مكتوبة. ولكنها من وضع الآلهة، ويحترمها جميع المواطنين: من القيصر حتى دبّاغ الجلود. ومن هنا جاء الاحترام العام

المألوف للآلهة. وقد ألّف بروتاغوراس كتاباً استهله بالكلمات الآتية: «لاأستطيع أن أعرف أي شيء عن الآلهة، هل هم موجودون، أم غير موجودين؟ ذلك أن أموراً كثيرة تحول دون معرفة ذلك، أهمها غموض المسألة وقصر العمر». وقد أمرت الدولة بإحراق كتاب بروتاغوراس أمام الملأ، وكان هذا الكتاب على حدّ علمي أول كتاب يلاقي هذا المصير.

قال السجين ضاحكاً:

ـ لقد أفرط بروتاغوراس في قسوته على الآلهة وأعتقد أنه لو كتب مثل هذا الكلام في روسيا نهاية القرن العشرين من العصر الجديد لقام حكامنا برسم شارة الصليب على جباههم نفاقاً أمام كاميرات التلفزيون ليظهروا ولاءهم للآلهة ولأحرقوا كتابه من جديد.

ومضى غورغياس يقول: ـ الحقيقة، حسب رأي بروتاغوراس، هي ظاهرة من أجل الوعي، ولاشيء يوجد قائماً بذاته، بل كل شيء له حقيقة نسبية.

فهتف السجين مبتهجاً:

ـ لنشرب نخب بروتاغوراس، إنه، حسب رأيي، مادي: ففد أقر الوجود (أو كما نقول نحن: المادة) وأدرك أن الوجود موجود بالاستقلال عن الوعي، واعترف بأن الوعي يمكن أن يمتلك الحقيقة النسبية لا المطلقة. فالحقيقة المطلقة مع إنها موجودة إلاّ إنها لايمكن أن تدرك بكامل أبعادها، لأن الوعي جزء من الوجود، وبالتالي فلكي يعرف الوجود اللانهائي عليه أن يصبح هو ذاته لانهائياً.

ـ احم، احم! ـ تنحنح غورغياس وقال: ـ باللطرافة! أنا أيضاً أصر على أن الجزء لا يمكن أن يكون كلياً. وعلى كل سنتحدث عن هذا فيما بعد. لقد بيّن بروتاغوراس أن الملموس ليس هو العام، وبالتالي هو ليس متطابقاً مع نفسه. وقد استقى أمثلته من الحياة اليومية، من مجال الظواهر الحسية. فهو يقول «عندما تهب الريح ترى أحدهم يبرد وآخر لايبرد. وعلى هذا فإننا لانستطيع أن نقول عن هذه الريح إنها حقاً باردة أو ليست باردة». وقد أبطل أفلاطون فيما بعد هذا المبدأ زاعماً أن البياض والدفء وكل ما

نقوله عن الأشياء لايوجد قائماً بذاته، بل من الضروري وجود العين والاحساس لكي يوجد من أجلنا.

قال السجين باضطراب:

ـ مهلاً، مهلاً! يبدو لي أن الشيخ بروتاغوراس قد فتح هنا ثغرة للمثالية، وقد نفذ منها أفلاطون ورسخ هناك مواقعه. أولاً ـ إن بروتاغوراس يجعل الدفء والبرد يتوقفان على إحساسات مختلف الناس. وهذه الإحساسات ذاتية ونسبية. ولكن الدفء أو البرد في الواقع لايتوقف فقط على ما يرتديه هذا الشخص أو ذاك. فدرجة حرارة الريح أو أي موجود آخر ترتفع أو تنخفض بغض النظر عما إذا كنا نشعر بهذا أم لا. وكذلك الأمر بالنسبة إلى البياض، فالعين فعلاً ضرورية لكي نرى البياض، ولكن مع ذلك فإن البياض هو خاصية لجسم واقعي معين تتمثل في عكس جزء من طيف الضوء، وهو ـ أي البياض ـ يوجد مستقلاً عن الوعي. أما إذا سرنا وراء ذاتية بروتاغوراس وأفلاطون النسبية فإننا، عاجلاً أو آجلاً، سنصل إلى استنتاج مؤداه إن الشيء، إن الملموس، لايوجد من أجل الوعي فقط، بل هو لايمكن أن يوجد بدون الوعي. وهذا كما يبدو لي، هراء أيديولوجي.

صمت المتحادثان وانشغلا بالأكل. ثم بادر غورغياس إلى القول: ـ عليك أن تكون أكثر تسامحاً مع فلاسفة عصري. فنحن كشفنا عن الحقيقة عن طريق ملاحظة الطبيعة فقط، وصياغة استنتاجات وتعميمات ذهنية. أما أنتم فلديكم، كما أتصور، أجهزة دقيقة، وتقنيتكم سمحت لكم بغزو الفضاء والنزول على سطح القمر.

ـ ليس هناك أية تقنية يمكن أن تجنبك عيوب التفكير وتغنيك عن مزاياه؛ فالإنسان المفكر يظل، كما في السابق، مقياس جميع الأشياء.

ـ هاك مثالاً آخر من بروتاغوراس: «إذا كان أمامنا ستة مكعبات ووضعنا بجانبها أربعة مكعبات أخرى فإننا نقول إن المكعبات الأولى أكثر، أما إذا وضعنا بجانبها اثني عشر مكعباً فإننا نقول إن المكعبات الأولى أقل. وهكذا فإننا نقول عن الشيء نفسه إنه أكثر وأقل، أي إن هذا «الأكثر والأقل» هو مجرد صفة نسبية لا أكثر.

قال السجين معترضاً:

ـ وهذا أيضاً ليس أكثر من نسبية خارجية بل لنقل نسبية طفولية، وبالتالي جدل طفولي ولكن حتى بالنسبة إلى «الجدل الطفولي» فإن الأمثلة الكمية ليست مقنعة. إن كل إنسان، إذا كان سليم العقل، يوافق على أن ستة مكعبات أكثر من أربعة، وبالتالي فليس هنا أية نسبية. وربما كان مثال العصا لبروتاغوراس أكثر إقناعاً في هذا الصدد: فإذا أنت أوقفت العصا في وضع عمودي تلاحظ إنه أصبح لها أعلى وأسفل، وإذا بدأت بتدويرها فوق رأسك، يصبح لها محور دوران، وإذا ألقيتها على الأرض تجد أنه أصبح لها طرف أيمن وطرف أيسر، وهذه نسبية بحتة يسبغها وعينا على الشيء. ولكن العصا في الحقيقة ليس لها أعلى ولا أسفل ولاطرف أيمن ولا طرف أيسر. إن كل التحديدات المشابهة يسبغها وعينا على الشيء لتسهيل تصورنا لوضع العصا، بيد أن العصا ذاتها لاشأن لها بكل هذا. إن الجدل (الديالكتيك) الحقيقي العميق للشيء يوجد في الشيء ذاته وليس في وعينا.

غورغياس: إن هذه الأمثلة لم تعجبني قط: أكثر ـ أقل، حبة قمح واحدة أم كومة قمح... الموجود يجب أن يكون إما واحداً وإما كثرة، ولكنه لايمكن أن يكون لاهذا ولاذاك، وذلك لأنه إذا كان واحداً يكون حجماً أو استمرارية، أو كمية، أو جسماً، ولكن كل هذا ليس واحداً، بل هو منوع، قابل للتقسيم وكل واحد حسي هو بالضرورة وفي حقيقة الأمر وجود آخر مختلف، وتنوع. وإذا هو لم يكن واحداً فإنه لن يكون أيضاً كثرة، وذلك لأن الكثرة هي كثير من الواحدات. وهذا نوع من اللحظات المختفية: الواحد يتحول إلى كثرة، وبالعكس الكثرة هي واحد

السجين الذي كان يصغي بانتباه إلى الفيلسوف نهض من مجلسه من شدة الاضطراب وشد على يد غورغياس صائحاً:

ـ أحسنت! أحسنت! ومرة أخرى أحسنت! إن الفكرة التي عبرت عنها يمكن أن تستخدم للتعبير عن أولاً: تعريف للمادة اللانهائية وغير القابلة للتقسيم. وبما أن الكثرة واحد فإننا ـ أنا وأنت ووعينا جزء أو واحد من الكثرة العظمى للمادة الموحدة. وثانياً: «اللحظات المختفية» كوجود وعدم!

لقد أشار لينين في حينه إلى تحديدك الرائع هذا للديالكتيك. أين حدود الوجود والعدم؟ هذا ما ينبغي على الفلاسفة أن يجهدوا في التفكير فيه.

ابتسم الفيلسوف مزهواً بالثناء، وصبَّ في كوبه بعض النبيذ من الإبريق، وأومأ إلى السجين كي يتابع الأكل. ثم عاد إلى الحديث قائلاً:

ـ لقد فكرنا نحن في هذا. خذ مثلاً تصورنا عن النقطة. النقطة حسب تصورنا ليس لها حدود. ولكن مهما كانت الريشة التي ترسم بها النقطة على الرق دقيقة ورقيقة، فإنك إذا نظرت إلى هذه النقطة عبر عدسة مكبرة وجدت أن لها أبعاداً وحدوداً. وعلى هذا فإن الذهني دائماً ذاتي وبالتالي فهو موجود، وذلك لأننا عن طريق التفكير نحول الموجود إلى ذهني.

عقب السجين عابساً:

ـ لقد عدنا! نخيط ونفتق ونعود نخيط من جديد. لقد أصبت في افتراضك منذ قليل عندما قلت إن الكلي هو كثرة، وإننا غير قادرين على معرفة الكلي، بيد أننا قادرون على الإحاطة بجزء من هذا الكلي، أي بالحقيقة النسبية.

ـ الجواب واضح لا أحد يمكنه أن يمتلك كل الحقيقة، بل فقط حقيقة نسبية ما.

ـ هذا يعني أن النسبي الذي نتعرّفه يوجد في الواقع وليس في الوعي، وأن الشيء الذي لم نتعرّفه موجود أيضاً، ولكن ما دمنا لم نعرفه بعد فإنه غير موجود بالنسبة إلى وعينا.

ـ هل النقطة موجودة؟

ـ موجودة في وعينا فقط. إن القضية هنا مماثلة لقضية أعلى وأسفل العصا. ويمكننا أن نمثل النقطة بجسم مادي متناه في الصغر لايمكننا رؤيته عبر أقوى عدسة مكبرة ولاعبر المجهر الالكتروني وهذا الجسيم يسمونه النيوترينو. بيد أن «لحظاتك المختفية» ستلعب معنا لعبة طريفة: فالنيوترينو لايوجد في نقطة محددة، بل يوجد فقط متحركاً بسرعة الضوء في المكان الكلي اللانهائي.

ـ أتعرف أيها السجين؟ إنني مسرور بلقائك. نحن لم نسمع شيئاً عن النيوترينو في زمننا. بيد أن حديثك أقنعني بأنني على حق: لاشيء

موجود، وإذا كان شيء ما موجوداً فهو غير قابل للمعرفة، وإذا كان قابلاً للمعرفة كهذا النيوترينو الذي تتحدث عنه فإن الإبلاغ عن هذه المعرفة غير ممكن. وذلك لأن كلامك الذي تريد بواسطته أن تعبر عن وجود النيوترينو ليس هو الوجود، وبالتالي فإن ما قمت بإبلاغه ليس هو الشيء ذاته بل هو كلام فقط.

قال السجين وهو يرفع كتفيه:

ـ ومن يجادل في هذا؟ طبعاً إن كلامي لايمكن أن ينقل الجوهر. بيد أن المهم هو أنك تذكر: نقطة النيوترينو توجد فقط كحركة تعادل سرعتها سرعة الضوء أي ثلاثمئة ألف كيلومتر في الثانية. ولا أظن أنك ستحاول دحض رأيي على أساس «الحس السليم»؟ .

ـ الحس السليم من المعتقدات البالية التي كانت قائمة في حينها. وكل فلسفة لابد لها من أن تسير إلى أبعد من حدود «الحس السليم»، لأن الحس السليم ليس فلسفة.

ـ لايندر أن يحرفنا الحس السليم عن الحقيقة. فقبل كوبيرنيكوس على سبيل المثال كان الحس السليم يزعم أن الشمس تدور حول الأرض. بيد أن ما كان يلاحظه الحس السليم يومياً تبين أنه نسبي وليس حقيقياً.

أصغى غورغياس وظل لائذاً بالصمت، وتناهت إلى الأسماع همسات الريح بين أوراق شجرة الدلب، وتلاعبت عند أقدام المتحادثين بقع النور التي ترسلها الشمس من خلال أوراق الدوحة الوارفة. رفع غورغياس رأسه المنكس ونظر إلى عيني السجين مباشرة وقال:

ـ اقترب موعد ذهابي إلى الخدمة. تذكر آخر أقوالي لك: إن الموجود إما أن يكون موجوداً بذاته وليس له بداية أو يكون حادثاً. والفرض الأول مستحيل لأن الموجود بذاته ليس له بداية، وبالتالي فهو لانهائي. وبما أنه لانهائي فإن من المتعذر تحديده بالكامل، وهو لذلك غير محدد. إلاّ أن الوجود أيضا ليس حادثاً، لأنه لو كان حادثاً لكان يجب أن يحدث إما من وجود أو من عدم، وهو لم يحدث من وجود، لأنه في هذه الحالة يكون قد وجد أصلاً، كما أنه لم يحدث من عدم لأن هذا الأخير لو وجد في مكان ما لكان المكان

الذي هو موجود فيه مختلفاً عنه، ولكن ما يختلف عن آخر، وما يتموضع ضمن آخر لا يمكن أن يكون لانهائياً.

قال السجين بأسى:

ـ أي نعم، النبيذ المتموضع في الإبريق ينتهي، إنه قابل للانتهاء. والسؤال: فيم يتموضع الإبريق؟ وهكذا إلى مالانهاية... وأنا أيضاً مسرور بلقائك ياغورغياس. إن إحدى أعظم أفكارك عن أن «الوجود غير حادث» تدل على أنك وجدت في نفسك الشجاعة للنظر في هاوية المادة، والإدراك أنها أبدية وغير زائلة. لقد فهمت أن الهاوية تجمع النقيضين: الوجود والعدم. أما أنك لم تستطع أن توافق على اللانهاية؟.. فيمكن فهم موقفك كإنسان: لقد نظرت إلى الهاوية فساورك الخوف. أما الذين سيتجرؤون على أن يفعلوا هذا بعدك فإن الأمر سيكون أسهل عليهم. وداعاً!

تسمع قعقعة الطاقة وهي تفتح في الباب الحديدي للزنزانة رقم ٣٢ في سجن ليفورتوفو في موسكو.

ويرتفع صوت يقول:

ـ الغداء. حساء ملفوف وعصيدة برغل الشعير.

خلف القضبان تضحك شمس شتوية في الثالث عشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٩٤ من العصر الجديد.

الفصل الخامس

القانون

«الحرية تجلّةٌ
وليس لأحد سلطة عليه
والكذب، مطلياً بالذهب،
لايجرؤ على الدنو منه»

ـ رسول حمزاتوف ـ

«يتحدثون عن سقراط الذي كان بمقدوره
أن يتعفف أو يقنع بالقليل،
حيث الكثيرون يعجزون عن التعفف،
وينغمسون في الملذات. إن امتلاك القدرة
على هذا، والبقاء متيقظاً في كلتا الحالتين،
من صفات الرجال ذوي النفوس
المتماسكة التي لاتقهر.»

ـ مارك أفريليوس الأنطونيني ـ
[تأملات]

في الساعة الثانية والعشرين حسب توقيت موسكو يفتح المراقب في سجن ليفورتوفو الطاقة في الباب الحديدي للزنزانة رقم ٣٢ ويصيح «مبيت!» ويدخل زنزانة السجن فلاسفة الإغريق القدماء، وبصحبتهم هيجل وديوجين الذي يدخل دون أن يلقي التحية متابعاً جداله مع أفلاطون

ديوجين: قل لي يا أفلاطون، إذا أنت رأيت على الأرض حبة قمح، هل يمكنك القول إن أمامك كومة حبوب؟

أفلاطون: لا، بل سأقول إنني أرى حبة واحدة.

ديوجين: وإذا أضفنا حبة أخرى، هل تغير رأيك؟

أفلاطون: لا.

ديوجين: وإذا أضفنا حبة أخرى؟

أفلاطون: لافرق، فثلاث حبات لا تشكل كومة.

ديوجين: وإذا ظللت أضيف إلى حبوب القمح حبة إثر حبة يوماً بكامله وأسبوعاً بكامله، ثم ألقيت في النهاية حبة أخرى...

أفلاطون: عندئذ على الأرجح، سأكون مضطراً إلى الاعتراف بأنك بفضل صبرك ومثابرتك قد ألقيت أمامي كومة من حبوب القمح.

ديوجين: ولكن كيف استطاعت تلك الحبة الواحدة التي أضفتها في النهاية أن تشكل فجأة كومة. فأنت نفسك قد أكدت أن الحبة الواحدة ليست كومة. وافق معي إذن على أن الواحد يتحول إلى ضده ـ إلى الكثرة.

أفلاطون: أنا مضطر إلى الإقرار بأنك على حق، وإلى الاعتراف بحكمتك يا ديوجين.

السجين: يبدو لي أن هذا الجدل يذكرنا بمكعبات بروتاغوراس وأفكاره حول نسبية مفهومي «الأكبر» و«الأصغر». للوهلة الأولى نجد أننا في مثال الحبة الواحدة والكومة نقف أمام مقولة ثابتة من مقولات الديالكتيك: تحول التغيرات الكمية إلى تغير كيفي. ولكن هذا للوهلة الأولى فقط. أما في حقيقة الأمر فإن الزيادة البسيطة في عدد الأشياء لايعطينا بعد ديالكتيكاً، أي صراعاً بين الأضداد.

ليفيس: الديالكتيك يكمن داخل الشيء ذاته.

السجين: لقد كان الفلاسفة القدماء يدركون هذا أيضاً. أعرف أن المرجع الذي سأستند إليه لن يعجب إيليتش، ولكنني سأقتبس ما يقوله الأنجيل عن حبة القمح هذه.

ليفيس: لاينبغي إدراجسي دون أي داع في عداد الأصوليين المتعصبين القدماء. إنني لاأطيق الكهنوت ولكنني أقف باحترام أمام نصوص الإنجيل باعتباره أثراً من آثار الثقافة الإنسانية.

السجين: كلنا يعرف مثل المسيح عن الزارع، وخصوصاً حيث يتحدث عن أن الحبة التي نجت من الهلاك هي تلك التي سقطت في تربة عميقة فنبتت وضربت بجذورها إلى الأرض. أي أن الحبة (الثمرة) تتحول إلى ضدها (الجذور) والنتيجة النهائية هي الزيادة الكمية في عدد الحب بغض النظر عن إرادة ديوجين أو أي شخص آخر يرغب في تحويل حبة واحدة إلى كومة.

ليفيس: مثال جيد، مع أنني يجب أن أشير، ياعزيزي، إلى أنك «اقتبست» بتصرف مفرط بداية الإصحاح الثالث عشر من إنجيل متى. بيد أن المثال يشير بشكل صحيح إلى الديالكتيك المستور الداخلي للشيء.

ديوجين: وأنا أقول لكم إننا حتى ولو أضفنا الحب حبةً حبةً، سيكون لدينا في نهاية المطاف حبّةً واحدة بل شيء جديد نوعياً ـ أي كومة.

سقراط: في هذه الحالة يكون بروتاغوراس محقاً في قوله: كل شيء نسبي. فهذا الشيء الجديد سيكون بالنسبة إلى أحدهم كومة، وبالنسبة إلى آخر ليس كومة، فما هو الشيء الذي يمكن اعتباره «كومة»؟

السجين: ايفريكا[1]! يبدو لي أن ديوجين على حق أيضاً. نعم إن الديالكتيك العميق هو خاصية الشيء ذاته ولكن الزيادة البسيطة في عدد الأشياء يمكنها أيضاً أن تؤدي إلى إظهار جوهر هذا الديالكتيك. اتركوا حبة قمح واحدة في مستودع معتم سنة كاملة تجدوها مازالت كما هي، لم تتغير. ولكن إذا أنتم تركتم كومة حبوب دون أن تحركوها ستجدون بعد مرور بضعة أيام أن الحرارة داخل الكومة بدأت بالارتفاع. وبعد بضعة أيام أخرى «تصحو» الحبة في الكومة وتبدأ بالإنتاش. وهكذا فإن العام (الكومة) يساعد الفرد (الحبة) على إظهار جوهره العميق ــ النزوع إلى الإنتاش. إن هذه الخاصية في كتلة الحبوب يعرفها كل من يخزن المحصول. فما أن يخل العاملون في صوامع الحبوب بنظام التجفيف المستمر «للكومة» وتقليبها حتى تبدأ بالتمرد، فترتفع حرارتها، ويبدأ الحب إما «بالاشتعال الذاتي» أو بالتوسع إلى الحد الذي يؤدي إلى تحطيم البيتون المسلح للصومعة وكأنه رق مهترئ.

سقراط: نعم، إنها ملاحظة مثيرة للاهتمام: العام يساعد الفرد على إظهار الجوهر المتواري فيه. إنني افترض أن هدف الفرد يكمن بالضبط في أن يقوم هو نفسه، معتمداً على ذاته فقط، بإظهار جوهره وجوهر الأشياء جميعاً.

السجين: إن المثال الذي أوردته عن إنتاش الحبوب في الكومة هو مثال حدّي، وذلك عندما تكون الحبة الفردة محرومة من إمكانية الإنتاش، من «إعدام الذات» في ظروف طبيعية متساوية بالنسبة لجميع حبوب الكومة.

سقراط: وهل يمكن أن تنشأ «ظروف حدية» بحيث يصبح مصير الكومة متعلقاً بمصير حبة واحدة، أي يصبح مصير العام متعلقاً بمصير الفرد؟

السجين: أعتقد أن هذا غير ممكن في حالة الكومة. أما فيما يتعلق بالكائنات المفكرة، بالمجتمع الإنساني، فإن من الصعب علي الإجابة عن سؤالك. هناك أمثلة على حالات جلب فيها الفرد، الشخص

---

[1] ـ «وجدتها»! صيحة أرخميدس الشهيرة.

الواحد، الخير للمجتمع، وساعد على ارتقائه إلى أعلى درجات التطور. وهناك أمثلة أخرى على حالات تسبب فيها شر كبار الشريرين بكبح تطور المجتمع. ولا لزوم للذهاب إلى بعيد. فروسيا اليوم مثال على هذا ولكن في نهاية المطاف كان الخير الذي هو من خصائص العام ينفي شر الفرد، ويُطاح بالطغاة وتلعنهم الشعوب.

ديوجين: بما أن الأمر هكذا فإن السير قدماً نحو الحقيقة وفق القاعدة المتبعة من قبلنا يقتضي أن نحدد ما هو الخير؟ سألتك بجميع الآلهة. ياسقراط أن تقول لنا ما هي الفضيلة؟ !

سقراط: الفضيلة هي الغاية التي يطمح إليها الإنسان لكي يكون نافعاً لنفسه وللقريبين منه وللدولة، وهذا الحكم، كما تعرف، يقتضي القيام بأعمال ملموسة، أعمال عادلة.

ديوجين: أنت على حق ياسقراط! إن الإنسان الذي يعيش حياته في كسل ولهو، ويتهرب من العمل النافع لايجوز وصفه بأنه إنسان طيب وعادل.

سقراط: كما يمكن للحرفيين أن يصفوا لنا أعمالهم ويحددوا طبيعتها، كذلك فإن العادلين، كما أعتقد، يمكنهم أن يصفوا لنا أفعالهم ويبينوا حقيقتها.

ديوجين: لايجوز ألاّ نوافق على هذا القول.

سقراط: إذن لنكتب في جانبٍ تحت الحرف «آ» أفعال الإنسان العادل، وفي جانب آخر تحت الحرف «ب» افعال غير العادل.

ديوجين: في هذه الحالة اكتب في جانب «ب» مايأتي:

الكذب، والخداع، والسلب، وتحويل الإنسان الحر إلى عبد ـ هي أفعال الإنسان غير العادل.

السجين: أضف إليها عدم التنفيذ الكيدي للتعهدات التي اتخذت قبل الانتخابات، وهدم الدولة رغم إرادة الشعب، والحنث باليمين، وخرق الدستور، والتهرب من الخدمة العسكرية عن طريق إيذاء الذات، تتكون لديك صورة أشهر قائد في روسيا.

سقراط: هل يمكن أن يمارس رجل الدولة أعمال السلب؟! أظن أن في الأمر مبالغة واضحة.

السجين: البتة! قبل رجل الدولة هذا كان لدى كل أسرة عندنا عمليا مدخرات معينة. وبسبب السياسة الاقتصادية الرعناء التي فرضها اندلع عندنا تضخم مسعور، ففقدت النقود قيمتها وذهبت المدخرات هباء، وسلبت أموال عشرات الملايين من الناس.

ديوجين: لص!

السجين: انظروا بتمعن إلى كف يده اليسرى التي يحرص بعناية على إخفائها عن عيون الكاميرات السينمائية.

سقراط: ينقصها الإبهام والسبابة. لعله فقدهما، في القتال ضد أعداء الوطن.

السجين: رأيك في حاكمنا جيد أكثر من اللزوم، ياسقراط! لقد حدث هذا فعلاً إبان الحرب الدموية المنهكة التي خاضها شعبنا ضد الغزاة القادمين من الغرب. وكانت المعركة ضارية إلى الحد الذي دفع بالنساء ليحاربن إلى جانب المقاتلين الرجال في الأرض والجو. وكان الأطفال يساعدون آباءهم: فيرصدون تحركات العدو ويخطفون منه الذخيرة، وحتى السلاح. وكان قائدنا المقبل آنذاك صبياً يافعاً، وبينما كان أترابه يتسللون إلى مستودعات جيش العدو مخاطرين بحياتهم كان هو يعيش في أعماق المؤخرة، ويتسلل إلى مستودع جيشه. وقد سرق من هناك قنبلة يدوية وأحضرها معه إلى المدرسة، وبعد الدروس حاول أن يفككها مع أصدقائه، فانفجرت القنبلة، وقتلت أحد الصبية، وبترت إصبعين من الكف اليسرى لقائدنا المقبل. وقد أنقذه من السجن، كما تكتب الصحف الوطنية، أبوه الذي كان يعمل آنذاك مديراً عالي المرتبة في مجال الإنشاء.

سقراط: إن هذا المثال الملوس من حياة قائد دولة روسيا يؤكد بشكل رائع أن ثمة حالة يجب أن نسجل فيها سرقة السلاح والقتل في جانب أفعال الرجل غير العادل...

السجين: فيما بعد سأحدثكم كيف أمر بإطلاق النار على الناس الذين كانوا يدافعون عن القانون الذي انتهكه...

سقراط: . وفي حالة أخرى تعتبر سرقة السلاح من مستودع العدو الذي يحارب شعبك، ويعتبر قتل العدو بالسلاح المستولى عليه ـ بطولة.

ديوجين: وفي مثل هذه الحالة علينا أن نسجل دون تـردد أفعـال هـؤلاء الناس في جانب الفضيلة، جـانب الحـرف «آ». هكـذا يتضـح أن اعتبـار الفعل خيراً أو شراً يتوقف على تحديد الجهة الموجه ضدها هذا الفعل. فإذا كان موجهاً ضد الأعداء فهو خير، وإذا كان موجهاً ضد الأصدقـاء، ضد شعب التخص القائم به فهو شر.

سقراط: ليس هكذا تماماً. فإذا ما رأى القائد العسكري أن الخوف بـدأ يدب في صفوف جيشه في اللحظة الحاسمة من المعركة، فعمد إلى خـداع جنوده لكي يقودهم إلى النصر، ولجأ إلى الكذب مؤكداً لهم أن ثمة مـددا في طريقه إليهم، أفلا ينبغي أن نعتبر هذا التصرف عادلاً؟

ديوجين: أعتقد أنه كذلك.

السجين: أعتقد أن كل شيء يتوقف على نتائج المعركة. القائد الحقيقـي يجب أن يحسب قواه بدقة قبل المعركة، وإذا كانت غير كافية لإحـراز النصر فمن الأفضل التراجع، وإلا كـانت النتيجـة كتلـك الـتي أسفرت عنها أحداث الرابع من تشرين الأول عام ١٩٩٣ من العصر الجديد أمام مبنى السوفييت الأعلى في روسـيا. فقـد عـين السـوفييت الأعلـى قـادة عسكريين: وزيراً للدفاع، ونائباً له، ووزيراً للأمن ووزيراً للداخلية. قبـل هؤلاء هذه المناصب ولكن لم يكـن لديهـم جيـش باسـتثناء جمهـور مـن الناس العزل وحفنة من المتسلحين ببنادق آلية. وأكد القادة العسـكريون أن المدد على وشك الوصول، وأن ثمة كتائب عسكرية ستأتي لنجدة حماة الدستور، ولكن تبين أن هذا غير صحيـح، فالقـادة العسـكريون والنـواب الذين عينوهم لم يهتموا سلفاً بتأمين قدوم المدد فعلاً. وكان هذا خطأً قاتلاً.

سـقراط: مرة أخرى نرى أن أفعـال الإنسـان يجـب اعتبارهـا في حالـة معينة فضيلة، وفي حالة أخرى لا. فإذا كان الطفل المريض لايريد تناول الدواء، وأبوه يخلط له هذا الدواء مـع الطعـام، والطفـل يتعـافى بفضـل ذلك، فهل نعدُ هذا عدلاً أم لا؟

ديوجين: نعم هذا عدل. إذ أن ما فعله الأب خير.

سـقراط: هاأنت ترى أن الخداع في حالة معينـة يكـون شـراً وفي حالـة أخرى يكون في أعلى مراتب الخير والعدل.

ديوجين: إن أحكامك ياسقراط تفحم أي إنسان، وأنا نفسي بدأت أشك: هل الخير موجود فعلاً أم لا؟

سقراط: بدون الإنسان وبدون أفعاله ليس للخير وجود.

ديوجين: أنت تناقض نفسك: فمنذ قليل كنت تؤكد أن الخير هو الهدف الذي يصبو إليه الإنسان. والآن تقول أن الخير لاوجود له بدون الإنسان. قل لنا بصراحة: هل بمقدورك أن تعلمنا الخير؟

أفلاطون: ليس بإمكان الإنسان أن يتعلم شيئاً، وليس بإمكانه أن يتعلم الفضيلة كذلك.

سقراط: شكراً ياصديقي أفلاطون على هذه الفكرة الصائبة. إن الخير لايأتي من الخارج، بل هو موجود في طبيعة الروح، لذا فإن تعليم الخير مستحيل. في الطبيعة كل شيء نسبي، أما الخير فإننا نكسبه بواسطة المعرفة من الوعي الذي لايتعلق بإرادة أحد سوى إرادتي الذاتية. وبالتالي فإنني بفضل التفكير أتعرف الخير في ذاتي كما أتعرفه كظاهرة عامة إن الوعي يستمد من نفسه فهم الحق والخير.

السجين: إن تعريفك ياسقراط يخلو من مفهوم الواقع الفعلي، ويخلو من مفهوم القانون، الذي يستحيل بدونه أن تحدد ما هو الخير في كل حالة ملموسة في الظروف المعطاة.

سقراط: إذا عرف الإنسان نفسه وعرف وعيه استنتج مفهوم الخير من ذاته.

السجين: وعلى هذا فإن الانسان قادر على استنباط القانون من ذاته؟

سقراط: نعم.

السجين: ألا يتناقض قانونك المستنبط «من ذاتك» مع القانون المستنبط «من ذاتي»؟

سقراط: إذا أنت عرفت وعيك فعلاً ينتفي التناقض. فالحق والخير عامّان وغير قابلين للقسمة.

السجين: يبدو لي ياسقراط أن المجتمع، حتى مجتمع اليوم، ليس مهيأً البتة لتقبل «القانون المستنبط من ذات» كل فرد من أفراده. فأنت في هذه الحالة ستصطدم عند كل خطوة بقانون يقره المجتمع، وأخشى أنك ستصاب بعدد غير قليل من الكدمات.

سقراط: ولكن إذا رفض المجتمع «القانون المحض المستنبط من الذات» بواسطة المعرفة كان معنى ذلك أن قوانين هذا المجتمع لن تخدم الإنسان، بل مجموعة معينة من الناس، وربما خدمت طاغية مستبداً.

السجين: أنت محق ياسقراط. فالقوانين الاجتماعية تخدم مجموعات معينة من الناس، تخدم طبقات كما نقول نحن اليوم.

سقراط: ولكن هذا ليس عدلاً! فالقانون يجب أن يخدم الإنسان.

السجين: موافق! ولكن القانون المستنبط من ذات كل فرد لايمكن أن يطبق دون عقبات سوى في حالة تغلب المجتمع على الانقسام إلى مجموعات (إلى طبقات). عندئذ يغدو من شأن كل « قانون من الذات» بحكم ثقافة الناس، وبحكم عنايتهم المستمرة بالخير العام، أن ينسجم مع «القانون من الذات» العائد للمجتمع بأسره. ولكن ما دام المجتمع كله لم يصل إلى درجة الكمال بعد فإنه لن يتحمل كمال الفرد.

أفلاطون: إن حياة سقراط نفسه ومصير تعاليمه برهان على هذا. فأحباب سقراط، أولئك الذين حبتهم الطبيعة بقدرات عبقرية من أمثال الكيبيادوس، نابغة الطيش الذي تلاعب بالأثينيين، وكريتيوس، أنشط «الطغاة الثلاثين» لم يسترشدوا سوى بالقانون «من الذات»، وقد اعتبرهم الأثينيون، وبسبب الدور الذي لعبوه، خونة وأعداء لمواطنيهم، وطغاة في حكم الدولة.

السجين: التاريخ يعيد نفسه بعد قرون في روسيا. فالمجتمع منقسم، ونار الحرب الأهلية تحت الرماد، والحكام بدلاً من الالتزام بالقانون (الدستور) ينتهكون الحقوق، ويسترشدون بقانون «من الذات»، وهذا هو الطغيان بعينه

هيجل: تنبغي الإشارة إلى أن الشعب الأثيني عاش في عصر سقراط مرحلة إدراك وجوده. وبرز آنذاك عدم الثقة في القانون الموجود بما هو كذلك. وتزعزع ما كان يعتبر حقاً طبيعياً (حددته الآلهة)، وحلت الحرية العليا بالنسبة للموقف المتخذ من كل موجود وكل قيمة. وهذه العودة إلى الذات هي عبارة عن الازدهار الأسمى للروح اليونانية، باعتبار هذه العودة ليست وجوداً للأخلاق فحسب، ولكنها وعي حسي

لها لايزال يمتلك المضمون نفسه، إلا أنه كروح يتحرك في هذا الوجود بحرية. وهذه الحيوية العليا للأخلاق تمثل، إن صح التعبير، وعياً حراً للقيمة الذاتية، وتمتعاً بهيجاً بهذا الاحساس. فالوعي والوجود هنا يمتلكان قيمة مباشرة واحدة، ميزة واحدة؛ إن ما هو موجود هو الوعي، وليس ثمة وعي يسيطر على وعي آخر. وقوة القانون ليست عبئاً على الوعي، وكذلك فإن أي واقع ليس فعلاً معاكساً لهذا الوعي، لأن الوعي واثق بنفسه. إن المباشر لم يعد يمتلك قوة، وينبغي أن يبرر نفسه أمام الفكر.

ومن وجهة النظر العليا هذه ينبغي أن ننظر إلى سقراط وإلى الشعب الأثيني وسقراط ضمنه. وهنا يبدأ استبطان الوعي لذاته، ومعرفة الوعي عن ذاته بما هو كذلك، معرفته أنه هو الجوهر، أو بتعبير آخر، معرفته أن الإله هو الروح.

لينين: مرحى هيجل! هاكم المثل على أن المثالية الذكية يمكن أن تكون أقرب إلى المادية من المادية الفاسدة. إنك، صورت انتصار العقل في المجتمع اللاطبقي، عندما تتلاشى الدولة.

أرسطو: إن ما قاله سقراط عن الفضيلة أفضل على وجه العموم مما قاله عنها فيثاغورس، ولكن مع ذلك لم تكن أقواله صحيحة تماماً. وذلك لأنه حولّ الفضائل إلى معرفة. وهذا بالذات غير ممكن لأن أية معرفة ترتبط بتعليل ما. والتعليل لايوجد إلا في التفكير. وهو بالتالي يضع كل الفضائل في الجانب المفكر من النفس.

وبهذا يلغي سقراط الجانب الحاسّ من النفس، وبالذات الميول، والأخلاق، والحقوق، التي تدخل أيضاً في عداد الفضائل. وكان الأصح أن يميز بين الجانبين المفكر والحاسّ في النفس مما يتيح إمكانية فحص قضيلة «القانون من الذات» في الحياة الواقعية.

السجين: انتقلنا من القانون إلى مفهوم أوسع هو مفهوم الحق[1]. وقد تأخر الوقت الآن، ولذا فإنني اقترح مناقشة هذه المسألة في المرة القادمة.

---

١ ـ كلمة «الحق» هنا تستخدم بالمعنى القانوني لا بالمعنى المعرفي المرادف لكلمة الحقيقة.

وبما أن الغد، اليوم السادس عشر من كانون الثاني عام ١٩٩٤ من العصر الجديد، هو يوم أحد فإن جميع البشر الأسوياء يخلدون فيه إلى الراحة.

هيوجين: أنا من بني البشر وليس من شيء إنساني عني بغريب.

السجين: إذن سنستريح غداً. ولكن إذا كان هيجل لا يمانع فإن بمقدوري الاجتماع به لنتحدث عن سقراط. وداعاً.

الفصل السادس

سقراط

السادس عشر من كانون الثاني عام ١٩٤٤ من العصر الجديد. الساعة ٢٢ بتوقيت موسكو. بعد إعلان المبيت في الزنزانة ٣٢ في سجن ليفورتوفو يظهر هيجل.

السجين: مرحباً! كنت بانتظارك.

هيجل: مساء الخير. بم يمكنني أن أفيدك؟ إنّ ما بمقدوري أن أحكم به انطلاقاً من أحاديثنا السابقة هو أنك مادي. وكلاسيكيوك، أو، على وجه الدقة، أوليانوف ـ لينين، لم يكن يميل إلي انظر في الموجز الذي لخص فيه محاضراتي! افتح على أية صفحة (يفتح الكتاب الملقى على طاولة السجين). انظر من فضلك! «إن هيجل يطنب اطناباً فاحشاً في تفصيل فلسفة أفلاطون الطبيعية والأفكار الغيبية المغرقة في الهذر كالفكرة القائلة: «جوهر الأشياء الحسية هو المثلث» وما شابه هذا من الهذر الغيبي. وهذا مميز جداً له. إن هيجل الغيبي المثالي ـ الروحاني (شأنه شأن سائر أصحاب الفلسفة المثالية الكهنوتية الرسمية في عصرنا) يمدح ويجتر المثالية ـ الغيبية في تاريخ الفلسفة متجاهلاً المادية ومهملاً إياها باستخفاف. قارن: هيجل عن ديمقريط ـ لابأس! عن أفلاطون ـ سيل من الحشو الغيبي». انتهى النقل. فما الذي تريده أنت الذي تعد نفسك تلميذاً وتابعاً للينين من هيجل الغيبي ـ المثالي ـ الروحاني؟ دفعة جديدة من «الحشو»؟

السجين: إيليتش لم يجامل، هذا صحيح. ولكن أنت أيضاً، اعذرني، لابأس بك! ما قيمة قولك: «جوهر الأشياء الحسية هو المثلث» إن هذا القول يصيب من يقرؤه، أياً كان، بتلبك في المعدة. لاتغضب بروفيسور! ثم أن لينين يمدحك في أماكن أخرى

هيجل: نعم، إنه هنا بالذات يعترف بأن حديثي عن ديمقريط «لابأس» به!

السجين: من حيث الجوهر، من حيث عمق الفكرة أنتما لاتختلفان بقدر ما تتقاربان

هيجل: أنت تواسي الشيخ؟

السجين: لا... البتة! ماذا يعني مفهوم «الحقيقة المطلقة» عندك أو «الروح الكونية العامة»؟ عبّر عن هذا المفهوم بكلمة أخرى تختف الهوة بينك وبين لينين

هيجل: بأية كلمة؟

السجين: المادة! المادة الموجودة وجوداً مستقلاً عن وعينا، الجوهر الأبدي اللانهائي الذي يسعى في تطوره إلى معرفة ذاته. أليس هذا هو «الفكرة المطلقة التي تتأمل ذاتها عبر الوعي الإنساني»؟

هيجل: رأي مثير للاهتمام.

السجين: كل ما في الأمر أنك تعاند، عفواً عن هذه الكلمة الفظة، في فصلك الوعي عن الوجود الواقعي معتبراً أن الملموس (المشخص) هو مقولة متدنية عامية تتوقف على الاحساسات ولاتوجد إلا بفضل وعينا. أما لينين فيصر بعناد أكبر على أن الوجود، المادة، توجد باستقلال عنا وخارجنا. وهكذا يبتعد الوعي مرة ثانية عن الوجود ولكن بشكل آخر. والحقيقة، كما أرى، تقوم في أنه على الرغم من أن الوجود الكلي موجود وجوداً مستقلاً عن الوعي، فإن هذا الأخير هو جزء من الوجود الكلي. نعم، إن الوجود أولي والوعي ثانوي، ولكن من غير الصحيح أن نفصل الوعي عن الوجود على أساس الأولية والثانوية. الوضع هنا كوضع الينبوع المنبثق من الأرض. الينبوع ليس الأرض، ولكن بدونها لايمكن أن يوجد.

هيجل: هذه الأطروحات تحتاج إلى تدبر عقلي. هل دعوتني من أجل هذا.

السجين: لا. بل كنت أرغب في التحدث معك عن سقراط.

هيجل: ولماذا عن سقراط بالذات؟

السجين: لأن سقراط بالذات هو أول فيلسوف حل المسألة الأساسية في الفلسفة وهي: ما هو الأولي: الوجود أم الوعي؟

هيجل: اذكرك أن هذه المسألة في زمن اليونان القديمة لم تكن قد صيغت بعد.

السجين: لم يكن قد عُبِّر عنها بالكلمات، هذا ماأردت قوله يابروفيسور! أما المسألة بحد ذاتها فقد كانت موجودة، وفي حلها بالذات أجهد القدماء أذهانهم. وأنت تشير إلى هذا في محاضراتك.

هيجل: تُعتمد كأمر بديهي. ولكن لماذا قررت أن سقراط بالذات له شرف حل هذه المسألة التي لم يكن قد عبّر عنها بالكلمات في زمنه.

السجين: أوليس هو أول من حوّل الفكر إلى داخل الذات، إلى الوعي؟

هيجل: نعم هو وقد كتبت أنا عن ذلك.

السجين: بالضبط! أنت كتبت أن سقراط قد جعل الفكرة «تستبطن» الوعي، لأنه الوحيد الذي يكشف للفكرة عن جوهره دون وسطاء. لاحظ أن سقراط لم يحطَّ قط من شأن الوجود، ولم يتجاهل العالم المحيط. ولكن بما أنه كان يفهم أن الأقرب إلى الفكرة بشكلها المحض المباشر، إذا جاز القول، هو الفكرة نفسها (الوعي) لذا كان يردد دعوته: «إعرف نفسك». ومعرفة الذات، معرفة جوهر الوعي، هي الطريق الأضمن والأكثر اقتصاداً في الطاقة من أي طريق آخر للوصول إلى الحقيقة. فإذا كان الوعي، الفكر، هو الزبدة، هو ثمرة تطور المادة في سعيها إلى إدراك ذاتها افلا يكون التصرف الأكثر حكمة هو أن نتعرف الوعي مباشرة، بدلاً من التخبط بين فروع شجرة لانهاية لها. ومرة أخرى نرى أنه ليس عن عبث قيل: الشجرة تُعرف من ثمرها. وقد اختار سقراط عن وعي الثمرة السحرية للمادة ـ وهي الوعي، لأنه كان يدرك أن هناك الحق والخير. ثم أن أروع ما في الأمر هو فكرة سقراط عن أن الحق (الحقيقة) والخير لايمكن أن يبقيا من توابع الوعي الواقعي. وبالتالي فإن الوجود (المادي) إذ يحقق تشوقه الداخلي إلى أن يعرف ذاته يجد هذه الذات في المثالي (الوعي). والوعي بدوره يسعى لفوره إلى تجسيد ذاته في شكل ملموس (مشخص) وفي أفعال ملموسة، في الوجود. وقد

لاحظ سقراط غريزياً هذا الحنين لدى المثالي إلى المادي. إن الوعي بدون الطبيعة - زيف.

هيجل: أنا لم أنكر أنه في التفكير فقط يتم فعلاً التطابق الحقيقي بين الموضوعي والذاتي.

السجين: إن سقراط هو أول من رفع هذه الموضوعة إلى مقام المبدأ، ولذلك أردت التحادث عنه.

هيجل: حقاً أن شخصية سقراط العظيمة تستأهل التحدث عنها باستفاضة إنه شخصية تاريخية - عالمية، وأحد معلمي الإنسانية الذين أثّروا وسيظلون يؤثرون دائماً في تطورنا. لقد عاش بين مواطنيه وهو يمثل أمامنا كإحدى تلك الشخصيات المنسجمة المعبرة العظيمة المنحوتة من كتلة واحدة، الشخصيات التي اعتدنا رؤيتها في ذاك العصر كأثر فني كلاسيكي كامل رفع نفسه بنفسه إلى تلك المرتبة السامية. إن أمثال هذه الشخصيات لم تصنعهم الطبيعة، بل هم بأنفسهم جعلوا أنفسهم ماكانوا عليه: لقد أصبحوا ما كانوا يريدون أن يكونوه، وظلوا أوفياء لطموحهم هذا حتى نهاية الحياة.

السجين: ماذا يمكنك أن تخبرنا عن أبوي سقراط، وعن الظروف التي نشأ في كنفها؟

هيجل: ولد سقراط في العام الرابع من الأوليمبياد السابع والسبعين (الموافق للعام ٤٦٩ قبل ميلاد المسيح) لأب ينحت التماثيل يدعى سوفرونيكس وأم تعمل قابلة اسمها فيلاريتا. علمه أبوه فن النحت فأحرز فيه نجاحاً كبيراً، وينسبون إليه نحت تماثيل الحسناوات الكاسيات الموجودة في أكروبول أثينا. ولتعلم أن عمل النحات يؤدي إلى تطوير قوة يديه بقدر غير عادي. وقد كان لهذا فيما بعد دور هام في المعارك الحربية التي خاضها سقراط. وكان يتقن فن القتال بالسيف اتقاناً تاماً، ويمكنه بضربة واحدة إسقاط السلاح من يد خصمه. ولم يكن بحاجة إلى حمل الترس أمامه، بل كان يحمله على ظهره كي يحمي نفسه من الضربات الغادرة. وفي أثناء معارك الحملة الأولى التي اشترك فيها والحصار الطويل التي تعرضت له مدينة بوتيديم في فراقيا أصبح

الكيبيادس واحداً من تلاميذه. وفي إحدى المعارك جرح الكيبيادس وطوقه الأعداء ليأسروه ويحولوه إلى عبد. فما كان من سقراط إلا أن اندفع إلى الأمام دون أن يتلقى أمراً بذلك، بل تلبية لصوت هتف به من داخله، واستطاع أن يحطم بسيفه الحلقة المحدقة بتلميذه ويخرج به من ساحة المعركة وأراد القادة العسكريون أن يكللوا هامة سقراط بالغار تقديراً منهم لمأثرته. وكانت العادة آنذاك تقضي بمكافأة أشجع المحاربين بأكاليل الغار، بيد أنه أبى ذلك وأصر على أن يتوج الأكاليل هامة الكيبيادس. وفي حملة أخرى اشترك فيها سقراط في بيوتيا خاض الأثينيون قرب ديليون، وهو معقل محصن صغير قريب من البحر ويقع تحت سيطرتهم، معركة فاشلة، إلا أنها لاتتسم بأهمية عسكرية كبيرة، وقد اضطروا إلى الهرب، ووسط الذعر الشامل والفوضى لاحظ سقراط أن تلميذه الأثير كسينوفون قد فقد رمحه وسقط على الثرى جريحاً. فألقى بترسه على ظهره وكرّ راجعاً إلى ساحة المعركة، وتولت الدهشة الأثينيين وهم يرون كيف كانت تتطاير السيوف المنتزعة من أيدي الأعداء المنقضّين على سقراط وتلتمع فوق رؤوسهم كومضات البرق. وعادت مهارة سقراط كمحارب وقوة يديه كنحات لتخدماه ثانية بوفاء وتمكناه من تخليص كسينوفون، فحمله على كتفه وعاد به إلى معسكرهما بهدوء شديد وهو يرد بسيفه الأعداء الذين كانوا يلاحقونه. وكانت الحملة الثالثة التي اشترك فيها سقراط هي التي جرت في ايدونيد قرب خليج ستريمون. وفي أثناء هذه الحملات لاحظ الأثينيون أن سقراط يغرق أحياناً في تأملات عميقة بحيث لاينتبه إلى شيء مما يجري حوله. وقد وقف مرة وهو في مثل هذه الحالة طوال النهار وطوال الليل دون حراك، ولم يخرجه من حالة الوجد هذه سوى شروق الشمس.

السجين: بأية صفة كان أهالي أثينا يعرفون سقراط أكثر. أكمحارب أم كفيلسوف؟

هيجل: كفيلسوف بالدرجة الأولى دون شك. وإذا كان الأيونيون قد اخترعوا فلسفة الطبيعة فإن سقراط قد أضاف إليها الأخلاق، وفيما بعد أدخل إليها أفلاطون الديالكتيك. وكان فضل سقراط الأكبر، كما أشار

شيشرون وكتيرون غيره، يتمثل في أنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، وأدخلها إلى الأكواخ وإلى حياة الإنسان اليومية، أو، كما يقول ديوجينوس اللايرتي، أخرجها إلى السوق. وبفضل سقراط وقدرته على التشكيك بالحقائق اليومية المستقرة أصبحت ضرورة التفكير والبحث عن الحقيقة العامة الشاملة هي التعبير الروحي عن المجتمع في اليونان القديمة.

السجين: إن ذكاء سقراط وقدراته الخارقة كان يمكن أن يبعثا فيه الشعور بالتعجرف والتكبر على من حوله من الذين لايحيطون بالحقيقة».

هيجل: بالعكس! إن مثال سقراط بالذات يقول لنا إن امتلاك الحقيقة يرتقي بالإنسان إلى أعلى مراتب الإنسانية وسلوك سقراط إزاء الآخرين لم يكن عادلاً وصادقاً وصريحاً وخالياً من القسوة وشريفاً فحسب، بل نرى فيه إلى جانب ذلك مثالاً على أسلوب التصرف المرهف للغاية المتبع في المجتمع الراقي الأتيكي. وأعني بذلك الحرية والإنطلاق في التعامل مع الناس، والإقبال على الحديث بصراحة على نحو لاينسى، والجمع بين امتلاك العمومية الداخلية من جهة وانتقاء الموقف الصحيح الحي الذي يناسب كل شخص يتعامل معه ويلائم الظروف التي يجري فيها هذا التعامل من جهة أخرى. إن الاجتماع بسقراط يعني التعامل مع شخص على أعلى درجة من الثقافة، وهو مع كل ما يمتلكه من لوذعية لايدخل في علاقاته مع الآخرين أي شيء شخصي، ويتجنب كل مايزعج. إن المحاورات السقراطية التي كتبها كسينوفون، وعلى الأخص أفلاطون، تمتل نماذج سامية لهذه الثقافة الإجتماعية المهذبة المرهفة.

السجين: إن الوصف الذي أوردته يابروفيسور للتعريف بقدرة سقراط على التعامل مع الناس بغض النظر عن مركزهم الاجتماعي يصلح أن يكون درساً لكل من تنطح للقيام بدور الشخص المثقف المهذب. ويبدو الأمر بمنتهى البساطة: فكل إنسان، سواء أكان عاملاً يحفر الأرض أم رائد فضاء أم راعياً أم رئيس جمهورية، يحمل في وعيه جزءاً معيناً من الحقيقة العامة، ولذلك فهو يستحق الاحترام وبالقدر نفسه الذي يستحقه به الآخرون. وللأسف، عندما يتقهقر المجتمع في تطوره،

وعندما يبدأ بالتفسخ يُضرب بموقف سقراط من الإنسان عرض الحائط بوقاحة وفظاظة. وفي أمثال هذه الفترة التي تعيشها روسيا الآن لايقدرون الإنسان لكونه إنساناً، بل يقدرونه بحسب محفظة نقوده. أما أولئك الناس الذين ينبغي عليهم أن يدافعوا عن كرامة الانسان بحكم كونهم كتّاباً وممثلين وسياسيين فإنهم يبدؤون وطأه بالأقدام واصفين الانسان البسيط بأنه «دابة عمل» و«متخلف عقلياً» و«مسلوب الإرادة». حقاً ليس ما يدخل الفم يُنجّس، بل ما يخرج من الفم[1]. وسيأتي وقت يندم فيه «أرباب الثقافة» ولات ساعة مندم. اعذرني يابرفيسور فقد أخرجني الاستطراد عن الموضوع. لنعد إلى شخصية سقراط العظيمة، كيف كان في حياته المعيشية؟

هيجل: كان رابط الجأش، ورعاً، ومثالاً للفضائل الأخلاقية: الحكمة، والتواضع، والتعفف، والاعتدال، والانصاف، والشجاعة، وشدة الشكيمة، والتمسك الصلب بالشرعية أمام الطغاة والشعب. وكان أبعد ما يكون عن الحرص على المنفعة الخاصة وعن شهوة السلطة على حد سواء. وكان عدم اكتراثه بالمال قراراً نابعاً من ذاته لأن أخلاق ذاك الزمان كانت تتيح له إمكانية كسب المال كغيره من المعلمين عن طريق تلقين الشباب العلوم التي بحوزته. ولكن الارتزاق عن طريق التعليم كان لايزال آنذاك في اليونان القديمة موضع الاختيار الحر. وقد آثر سقراط أن لايتقاضى من تلاميذه شيئاً لقاء التعليم. كما أن الاعتدال في أسلوب المعيشة كان من ثمرات قوة الوعي، بيد أن هذا الاعتدال لم يكن من المبادىء المقررة الثابتة، بل انبثق من ضرورة التكيف مع إمكاناته المادية، إذ أنه كان في المجتمع يقصف ويلهو وقد لاحظ أفلاطون أن سقراط كان يأكل ويشرب في الولائم ليس أقل من الآخرين، ولكن لم يكن يسكر البتة، وكان بوسعه أن يبقى الليل بطوله والكأس بيده، وهو يتبادل الحديث مع أريستوفان حول موضوع: هل بوسع شخص واحد أن يكتب المأساة والملهاة على حد سواء. وبعد الوليمة كان سقراط يتوجه

---

١ ـ من انجيل مرقس (١٥/٧).

إلى الأكاديمية وكأن شيئاً لم يكن ليتمشّى هنساك بين الأشجار منشغلاً بأحب الأمور إليه: الحديث مع التلاميذ، أو الجدال مع الفلاسفة.

السجين: كيف حدث أن زُج بسقراط في السجن وهو المتسم بهذه الشخصية المثالية المنسجمة، والمخلص في تنفيذ واجبه كمواطن على أفضل وجه (مشاركته في الحملات الحربية الثلاث)؟

هيجل: تنبغي الإشارة إلى أن الشاعر الهزلي أريستوفان كان قد كتب قبل صدور الاتهام بحق سقراط كوميديا «الغيوم»، وخلافاً لكوميدياته الأخرى لم تنل هذه الكوميديا جائزة المسابقة التقليدية، بل أنها صُنِّفت في عداد الكوميديات الأخيرة. وقد جاءت «الغيوم» كاحتجاج مقصود ضد فلسفة سقراط بالذات. وكان العنصر الكوميدي فيها يقوم على أن سقراط الذي تصوره المسرحية كان يحقق بجهوده الأخلاقية عكس ما يطمح إليه.

السجين: ولكن أريستوفان، شأنه شأن أي مُخبِر، لم يكن يأنف من التخيل والمبالغة الفظة. فسقراط عنده يسير دائماً فاغر الفم حتى أن العظاءة الحقيرة الزاحفة على حافة سطح منزله يمكنها أن تسلح في فمه قبل أن يتمكن من إغلاقه. ربما كانت الفكاهة في المجتمع الإغريقي آنذاك لم تزل في طورها الجنيني، ولكنني أعتقد أن أريستوفان في «الغيوم» قد استبق انحطاط «أرباب الثقافة» في روسيا نهاية القرن العشرين.

هيجل: أياً كانت الحقيقة فإن ظهور ملهاة «الغيوم» أدّى إلى صدور اتهام محدد.

السجين: وكيف صيغ الاتهام؟

هيجل: كان الاتهام يتألف من بندين: «إن سقراط يجحد الآلهة الذين يعترف بهم الشعب الأثيني ويختلق آلهة جدداً، وهو بالإضافة إلى ذلك يفسد الشباب».

السجين: الإتهامات في جميع العصور تفتقر إلى التحديد الملموس. لقد اتهموني بأنني على حد زعمهم «منظم للشغب الجماهيري بموسكو في ٣ ـ ٤ تشرين الأول عام ١٩٩٣». إلام كان يستند بالتحديد الاتهام الذي وجه إلى سقراط؟

هيجل: لقد كان من عادات الإغريق أن يتوجهوا إلى الآلهة بواسطة العرّاف ليسألوهم كيف عليهم أن يتصرفوا في هذه الحالة أو تلك. أما سقراط فكان يعلّم الآخرين أن يجدوا الحقيقة في أنفسهم، وهو نفسه لم يكن بحاجة إلى نصائح العراف. وبهذا أصبح هو نفسه إلهاً

السجين: هل كان لسقراط الحق في توكيل محام يدافع عنه؟

هيجل: آثر الدفاع عن نفسه بنفسه.

السجين: كيف كان رده على البند الأول في الاتهام؟

هيجل: رد بأنه أولاً ـ كان دائماً يقدم إلى المذابح الاجتماعية القرابين نفسها التي يقدمها الآخرون. وكان جميع مواطنيه يرون ذلك، ومتهموه أيضاً كان بوسعهم رؤية ذلك. أما فيما يخص اختلاقه آلهة جدداً ـ وهو اتهام وجه إليه لأنه يسمع هاتفاً إلهياً يرشده إلى ما ينبغي عليه أن يفعله ـ فقد كان عليه أن يرد هذا الاتهام بالاستناد إلى حقيقة أن العرافين أيضاً يعتبرون اتجاه طيران الطيور، وأوضاع أحشاء الأضاحي من الحيوانات، بل حتى الرعد والبرق إشارات إلهية.

السجين: وماذا كان رد القضاة على هذا؟

هيجل: حسب شهادة كسينوفون «تملكهم القلق، بعضهم لأنهم لم يكونوا يصدقون ما قاله سقراط، وبعضهم من الحسد لأن الآلهة أنعموا عليه بشيء سام لم ينعموا عليهم بمثله».

السجين: كسينوفون دقيق في ملاحظاته. ففي كل مرة يظهر فيها شخص في المجتمع يعبر عما يفكر فيه وعما تريده أكثرية المواطنين يثير هذا الشخص حسدَ بعضهم: «ولماذا لا أكون أنا القائد، لماذا لايسير الناس خلفي أنا» وكراهية آخرين يعرفون أن الناس لايسيرون خلفهم لأنهم يخفون الحقيقة، ويكذبون على الناس. أخبرني كيف علّلوا البند الثاني من الاتهام الموجه إلى سقراط؟

هيجل: فيما يخص البند الثاني من الاتهام الذي ينص على أن سقراط يفسد الشباب تجدر الإشارة إلى أنه دحض هذا البند بالاعتراض التالي: لقد قال عرّاف دلفي إنه ليس من أحد يضاهي سقراط بالانصاف والنبل والحكمة. وعمد بعد ذلك إلى معارضة الاتهام بسلوكه خلال حياته

كلها. وسأل إن كان قد أغرى ولو واحداً فقط ـ وخاصة من الذين كان يجتمع بهم ـ بالمثل الذي كان يقدمه لهم؟

السجين: أي أن سقراط يشير بهذا إلى أنه لم يجد حتى وسط الناس الذين يحيطون به من يرغب في أن يتبع أسلوب حياة مشابها لأسلوبه. وماذا قالت المحكمة؟

هيجل: اضطرت إلى تحديد الاتهام العام وجعله أكثر دقة. وأدلى الشهود بأقوالهم. وقد كتب كسينوفون أن «مينيست شهد بأنه يعرف فتياناً يعمل سقراط على إقناعهم بأن يطيعوه أكثر من إطاعتهم لآبائهم. وأكد شاهد آخر ـ هو آنيت ـ هذا القول بمعطيات كافية. وكان آنيت قد أصبح عدواً لسقراط بعد نصيحة هذا الأخير له بأن لا يعدّ ابنه ليصبح عاملا في صناعة الجلود، وبأن يربيه تربية تليق بالإنسان الحر. وقال سقراط للأب أن لدى ابنه قدرات كبيرة كامنة، وإذا لم يتح لهذه القدرات أن تتفتح فإن الفتى سيصبح سكيراً.

السجين: ياللشيطان! مرة أخرى يصيب! وهو يصيب كبد الحقيقة! فمنذ بعض الوقت أخذوا ينتزعون من شعبي، ومن شبيبته إمكانية تفجير القدرات الفطرية التي ولدت معهم بواسطة التعليم. فالتعليم في روسيا يصبح لقاء ثمن، وثمنه فاحش. وما هي النتيجة؟ انتشار تعاطي الخمور والمخدرات في كل مكان. إن الشعب مرغم على التعويض عن كبت قدراته بتخدير نفسه

هيجل: كان آنيت يعمل في صناعة الجلود، وعلى الرغم من أن العمل كله كان ينفذه العبيد إلاّ أنه لم يرغب في تعليم ابنه وتثقيفه، وكما تنبأ سقراط فإن الشاب أدمن تعاطي المسكرات، وفقد الأب وريثه وقد اعتبر القضاة الاتهام ثابتاً.

السجين: وما هو الحكم الذي أصدروه على سقراط؟

هيجل: اعتبروا أن سقراط كان مذنباً في الاعتداء على أسس الديانة الإغريقية والأسرة الإغريقية

وهذه وتلك تشكلان أساس الدولة الإغريقية، وعلى هذا فقد اعتُبر سقراط مجرماً في حق الدولة.

السجين: هذا طبيعي. فالجلادون يحبون ذر الرماد في العيون، وما إن يبدؤوا بالصراخ عن «الجريمة في حق الدولة» حتى يُزج بالوطني الغيور وراء القضبان وهذا يلفت النظر إليه بشكل خاص في روسيا، على الأقل.

هيجل: لقد كانت لدى سقراط إمكانية تجنب الموت

السجين: تعني «الذروة» ـ الحكم بالإعدام؟ لاتراوغ أيها البروفيسور!

هيجل: تنص القوانين الأثينية على أن المتهم، بعد أن يصدر عليه المفوضون ـ الذين يماثلون المحلفين في المحاكم الانكليزية ـ حكم التجريم يحق له أن يجابه العقاب الذي تقترحه جهة الاتهام بتقويم مضاد.

السجين: أي استئناف الحكم؟

هيجل: شيء من هذا القبيل. فقد كان لسقراط الحق في أن يحدد لنفسه نوع العقوبة، فيختار إما النفي، أو الغرامة المالية، أو العقوبة الجسدية

السجين: كان النفي يعتبر في أثينا عاراً لايمحى. ولم يكن لدى سقراط مال. ولم يبق له إلاّ أن يخلع سراويله ويعرض قفاه لسوط الجلاد وإذا أقر البريء بأنه مذنب، علماً بأن التقويم المضاد يعتبر إقراراً غير مباشر بالذنب، فإن الموت أفضل من رؤية مواطنيك وهم يقهقهون مع صفير السوط ويشيرون بأصابعهم إلى مؤخرتك الممزقة.

هيجل: رفض سقراط أن يحدد نوع العقوبة الذي يختاره لنفسه. وكان هذا يعني أنه يرفض الاعتراف بسيادة محكمة المفوضين، الأمر الذي يُعاقب عليه بالموت. وقد اختار سقراط هذا المصير عن وعي. ونحن لايحق لنا أن نتهم القضاة، فهم كانوا يمثلون الشعب الإغريقي، وسقراط رفض الاعتراف بالمحكمة، وبالتالي فقد وقف ضد سيادة الشعب.

السجين: أية قذارة ـ كلمات الإنسان! ألم يدافع أحد من أهالي أثينا عن سقراط؟! حتى أنا يأتي كل يوم أحد حشد من المواطنين إلى أسوار سجن ليفورتوفو للوقوف إلى جانبي، وتتعالى هتافاتهم بكلمة «الحرية!» وعندما أسمع أصواتهم يصبح من الأسهل علي تحمل المعتقل.

هيجل: عرض عليه أفلاطون الهرب.

السجين: وماذا كان رد سقراط؟

هيجل: قال إنه سيبقى في السجن إذا كان شعبه بحاجة إلى هذا

السجين: آه، الأوباش! إذن فسقراط ظل حتى اللحظة الأخـيرة يعترف بسيادة الشعب! لماذا تموّه هذا يابروفيسور؟ !!

هيجل: أنا لا «أموّه» أي شيء. لاشك في أننا يمكن أن نرى في سلوك سقراط عظمة أخلاقية. فقد رفض فعلاً وهو في السجن العرض بالهرب، وآثر أن يبقى خلف القضبان بانتظار تنفيذ الحكم لأن هذا بدا له أفضل لأهالي أثينا، كما أن من الأفضل له أن يذعن للقوانين. بيد أن الإذعان الأساسي كان يمكن أن يتحقق فيما لو اعتبره أهالي أتينا مذنباً، واحترم هو حكمهم عليه، وأقرّ بأنه مذنب.

السجين: لاتخادع يابروفيسور! إن الذين اعتبروا سقراط مذنباً ليس أهالي أثينا، ليس الشعب، بل محكمة المفوضين الحسّادين التكلسين ـ النموذج الأول لحكام التفتيش المقبلين.

هيجل: ومع ذلك فإن سقراط ـ انطلاقاً من الانسجام مع النفس ـ كان عليه أن يقر بذنبه، ويذعن للقوانين، وبالتالي، للحكم الذي صدر عليه. فنحن نرى كيف أن انتيغونا(١) الطاهرة، تلك الشخصية الأكثر روعة بين جميع من ظهر على الأرض على مر الأيام، قد سارت إلى حتفها وهي تقول:

إن رضي الآلهة عن آلامنا

فإن علينا الاعتراف بأننا آثمون.

السجين: أي نعم، نندب حظنا استثارة للشفقة ونحن نرى كيف يحكمون على ضحية بريئة بالموت باسم الآلهة المتعطشين للدماء، وبوسعنا بعد ذلك أن ننام بإطمئنان.

هيجل: لقد عارض سقراط حكم المحكمة بضميره وأعلن نفسه بريئاً أمام محكمة ضميره. ولكن ليس ثمة شعب، وعلى الأخص إذا كان شعباً حرا كشعب أثينا...

---

١ ـ انتيغونا في الميثولوجيا الإغريقية ابنة أوديب ملك طيبة. دفنت جثة أخيها مخالفة بذلك أوامر عمها الملك كريون فحكم عليها بالإعدام وانتحرت في سجنها. وقد كتب سوفوكليس مأساة عنونها باسمها.

السجين: ... الذي يعيش على حساب عمل العبيد!

هيجل: أقول ليس ثمة شعب وعلى الأخص إذا كان حراً كشعب أثينا بوسعه أن يعترف بحكم الضمير الذي لايعرف إدراكاً آخر لتنفيذ واجباته سوى إدراك هذا الضمير.

السجين: وإذا ما تطابق الضمير والقانون، ولكن الطغاة أغرقوا كلاهما بالدم، كما حدث في موسكو، ماالعمل عندئذ؟ هل ينبغي السير إلى الموت مع رفع العقيرة بمزمور يمس شغاف القلب:

إن رضي يلتسين عن آلامنا

فإن علينا الاعتراف بأننا آثمون؟

هيجل: (بعد صمت طويل) لقد دعوتني لنتحادث عن سقراط، لا عن يلتسين.

السجين: ما هي الميتة التي حددتها محكمة المفوضين؟

هيجل: احضروا لسقراط وهو في السجن كأساً مليئة بالسم، وقد شربها حتى آخر قطرة.

السجين: وهل حاول أحد أن يثأر للمفكر؟

هيجل: سرعان ما أدرك الأثينيون أنهم اقترفوا خطأ، وأن سقراط قد أعدم ظلماً وقد أعدم كثيرون من أعضاء محكمة المفوضين، وهرب الآخرون، وذلك لأن قوانين أثينا تنص على أن المتهِّم الذي يتقدم إلى المحكمة باتهام كاذب يتوجب عليه أن يتلقى العقاب نفسه الذي طلب انزاله بالمتهَّم.

السجين: مطلب رائع في قانون أصول المحاكمات الجزائية لدى القدماء. ولو لم تلغ البشرية هذا المطلب من قوانينها لبقي كثير من الأشخاص الرائعين على قيد الحياة مدة أطول وعادوا بالنفع على كل من حولهم.

نكتفي اليوم بهذا القدر يابروفيسور. شكراً لك على المحادثة، ولو أنها أتعبتني. فليس من السهل على المرء أن يحتفظ بهدوءه عندما يدور الحديث عن سجين مثله. إلى اللقاء.

الفصل السابع

«من أين جئنا؟»

ـ عمر الخيام ـ

«من الذي سيحكمنا؟»

ـ ألكستدر بوشكين ـ

الحقوق

١٧ كانون الثاني عام ١٩٩٤من العصر الجديد. الساعة ٢٢ بتوقيت موسكو. تسمع قعقعة الطاقة وهي تفتح في الباب الفولاذي للزنزانة رقم ٣٢ في سجن ليفورتوفو: «مبيت!» وبعد أن يغفو رفيقا السجين في الزنزانة، يدخل على الفور الفلاسفة الإغريق القدماء وهيجل ولينين.

السجين: (يرحب بالجميع ويتوجه مباشرة إلى سقراط): قل لي، ياسقراط، متى حاكموك. وكيف كان شكل القوانين آنذاك؟

سقراط: فسّر معنى سؤالك؟

السجين: لابأس! هل ترى هذا الكتاب؟ إنه قانون العقوبات. وفيه تحديد للعقوبة المقابلة لكل جريمة أما الكتاب الثاني فهو قانون أصول المحاكمات الجزائية. وفيه تحديد للطريقة التي يجب أن يجري حسبها التحقيق والمحاكمة وكيفية تنفيذ العقوبة. وهذان القانونان مصوغان بشكل خطي ومصدقان من مجلس السوفييت الأعلى في البلاد، وهو الجهاز الأعلى للسلطة الذي حله الطاغية.

سقراط: لم يكن في أثينا مثل ذلك.

السجين: حسب أي قانون حاكموك إذن؟

سقراط: كان عندنا قانون واحد هو قانون الآلهة. ولم تكن ثمة حاجة إلى صياغته بشكل خطي، فقد كانوا يعرفونه منذ الطفولة في كل كوخ وكل قصر. وكان بوسع الجمعية الشعبية أن تعالج القضايا الهامة في الدولة وتحلها. بيد أن القانون بالنسبة إلينا كان هو الضمير.

هيجل: لقد كنت أؤكد دائماً على أن الوضع الذي كان قائماً في أثينا يختلف عما لدينا أو لديكم. هناك كانت تسيطر روح الدولة المطلقة القائمة على الدين والأسرة. ولذا فإن ما كان يفعله سقراط كان يهدّد هذه

وذاك. ولكن هل كانت تصرفات سقراط تقع ضمن نطاق صلاحية هذه المحكمة؟ أعتقد أن هذه المسألة تتعلق قبل كل شيء بحق الدولة في حماية الدين، أي حماية الفكرة التي تقوم الدولة كلها عليها، والتي بدونها لايمكن للدولة أن تعيش

لينين: هيجل يعرض أمامنا نموذجاً رائعاً للمثالية المراوغة عند اصطدامها بالواقع إن أقواله تشبه الكتابة السرية التي ينبغي تعريضها لشعلة التحليل كي يظهر معناها الخفي. ففي البداية نراه يعترف بأن القانون في أثينا كان يعبّر عنه على نحو يختلف عما هو عليه في المجتمع المعاصر. فذاك لم يكن قانوناً، بل إرادة الآلهة المطلقة التي لاتخضع للشك. الفكرة جيدة، ولكن كيف تتجسد في الواقع؟ من البدهي أن الآلهة لن يتنازلوا فيهبطوا من الأولمب ليقوموا بدور مبتذل، ويراقبوا، كما تفعل النيابة العامة، دقة التقيد بالقانون المطلق غير المكتوب. ويجد هيجل نفسه مضطرا إلى القفز من المثالي إلى الملموس، فلا يلبث أن يسند حق حماية الدين والايديولوجيا إلى الدولة الملموسة (المشخصة). ووداعاً ياقانون الآلهة المطلق! فسيحل محلك، بمباركة هيجل، حق الطغاة والظلاميين.

سقراط: عفواً! أنا أعرف ماهو قانون الآلهة، ولكن ما هو حق الدولة هذا؟

لينين: السؤال الذكي يساوي أحياناً بضعة كتب ذكية.

السجين: إذا صدقنا مايقوله هيجل (وليس ثمة ما يجعلنا لانصدقه في هذا) فإن القانون الذي حددته الآلهة في أثينا، مع أنه لم يكن مكتوباً إلا أن أغلبية المواطنين الساحقة كانت تعترف به، وكان هو ينسجم مع مصالحها الحيوية. فكل مالم يكن ينسجم مع أخلاق الأثينيين ونمط معيشتهم وعاداتهم كانوا يرفضونه كأمر غير مقبول. وكان المواطنون يراقبون بأنفسهم التقيد بالقانون بدافع من ضمائرهم أي أن القانون والحقوق كانت لاتزال ذائبة في المجتمع: فكل واحد كان يعرف أن عليه تقديم قربان للآلهة في يوم معين، وإلاّ فإن جيرانه سيدينونه ويشيحون بوجوههم عنه كما لو كان عبداً. وعلى هذا فإن حق المجتمع في أن يراقب التقيد بالقوانين هو أكثر الحقوق ضمانة. بيد أن الدولة الوليدة

نبدأ باغتصاب هذا الحق شيئاً فشيئاً، وتظهر إمكانية تأويل القوانين واستخدامها ضد مصالح أغلبية المواطنين. ويكف القانون عن كونه قانوناً ليغدو حقاً لدولة معينة تمثلها دائماً مجموعة ضيقة من الناس.

لينين: هنا ينبغي التأكيد على أن القوانين الحقيقية للمجتمع وتطوره توجد وجوداً مستقلاً لايتعلق بإرادة الناس. ونحن بإمكاننا أن نتعرّفها ونسخّرها لخدمتنا، وبإمكاننا حتى أن نصوغها كتابياً من أجل تطوير المجتمع تطويراً منسجماً دون عوائق. خذ، مثلاً، قانون الجاذبية الكونية، فحتى إذا كنت لاتعرف هذا القانون فإن التفاحة الساقطة من الغصن لابد من أن تسقط على رأسك. وعندما تعرفه سيكون بمقدورك لاتفادي ظهور عجرة على صلعتك فحسب بل والتحليق إلى الفضاء الخارجي. ويمكن قول الشيء نفسه بالنسبة إلى القوانين الاجتماعية. فتطور وسائل الانتاج، وظهور منتوج فائض يؤديان إلى ظهور الملكية الخاصة، وهذه الأخيرة تقسم المجتمع إلى فئات، طبقات الخ... هذا قانون. ونحن يمكننا أن ننكره، ولكن إنكارنا له لايؤدي إلى إبطاله. وبالعكس إذا نحن تعرّفناه سيكون بمقدورنا أن نتنبأ بتطور المجتمع أي سنسهل من ظروف وجودنا.

سقراط: إذا أنا عرفت القانون الذي في الذات وكان حقيقياً، فإن القانون الذي من الذات ينبغي أن يتطابق مع قانون المجتمع، الذي هو أيضاً حقيقي لأنه قانون، كما تقول، بغض النظر عن رغباتنا ونزواتنا. ووجود حقيقتين مستحيل. فإذا كان القانون الذي من الذات حقيقياً كان معنى ذلك أنه ينسجم مع القانون العام الشامل.

السجين: نظرياً أنت على حق ياسقراط، ولكن في الواقع أنت نفسك حددت المجتمع لآلاف السنين عندما كنت حياً.

وكان على المجتمع أن يجتاز مرحلة تمتد ألف سنة (وهذه العملية لما تنجز بعد) يجري خلالها نشوء وصراع واندثار الطبقات لكي يحل الانسجام بين القانون المستنبط من ذات كل فرد والقانون العام، وعندئذ ينتفي من جديد لزوم كتابة القوانين، لأن كل فرد سيحمل القانون في ذاته.

أفلاطون: وإلى أن تأتي هذه الأوقات البهيجة من الضروري وجود جهاز يراقب مراعاة حقوق المواطنين وهذا الجهاز، هذا المطلق الالهي يمكن أن يكون الدولة ودستورها.

هيجل: ولكن الدولة ودستورها بلا روح الشعب المعني ميّتان. فليس أي دستور يصلح لشعوب مثل الشعب الايروكيزي (الهندي الأحمر) والشعب الروسي والشعب الفرنسي إذ أن لكل شعب مكانه في التاريخ

السجين: كم أود أن يسمعك، يابروفيسور، واضعو ذاك الكراس الغث الأخير الذي سموه الدستور الروسي. إنه لايحتوي على أي شيء من روح الشعب، وكل مافيه منقول نسخاً عن دستور الدولة التي كانت تعيش على أراضيها يوماً ما قبائل الايروكيزي.

هيجل: ومع ذلك فإن الدستور ضروري لأن الشعب بفضله يتربىّ وينتقل من حالة الهمجية إلى الحالة العاقلة، ولكن القضية في أن نحدد أي دستور هو الدستور الحقيقي الذي يحقق انسجام المجتمع كله.

السجين: لايمكن بلوغ الانسجام الحقيقي والهدوء إلاّ في المقبرة. أما في الحياة فحتى الأسرة المنسجمة ظاهرة نادرة، فما بالك بالمجتمع!!

هيجل: وعلى الرغم من ذلك فإن كل شعب يتوجب عليه بالضرورة أن يدخل مع مرور الزمن تعديلات على دستوره القائم من شأنها أن تقربه أكثر فأكثر من الدستور الحقيقي

لينين: خبل! خبل! ومرة أخرى خبل! الدستور الحقيقي، الحقوق، الدولة كل هذه الكلمات الطنانة تتحول في الحياة الواقعية إلى حق لارحمة فيه للطبقة المسيطرة يخولها تجسيد مصالحها في الحياة. وإذا كانت الطبقة الحاكمة تمثل أكثرية المجتمع يكون دستورها وحقوقها أقرب إلى الانسجام. وهذه خطوة نحو الدولة العامة، أي نحو اندثار الدولة. أما إذا كان زمام الحكم في يد طبقة الأقلية، فإنها ستجد مئات الأساليب لتتجاوز دستورها وقوانينها في سبيل تحقيق مصالحها. وتتمثل هذه المصالح بالنسبة إلى الطبقة البرجوازية في الحصول على الربح بأي ثمن إن هذا القانون لن تجدوه في أي دستور: سواء أكان حقيقياً أم واقعياً ـ مع ذلك فإن هذا القانون يعمل

السجين: إيليتش، كالعادة، لايضرب إلاّ في الصميم. فأحداث أيلول ـ تشرين الأول عام ١٩٩٣ من العصر الجديد في موسكو تظهر بوضوح لامزيد عليه أن طبقة البرجوازية الجديدة التي لاتزال في طور التكون، ولكنها أمسكت بزمام الحكم في روسيا ممثلة بحكومة يلتسين، لديهما استعداد لا لنبذ قوانين معينة فحسب، بل ولتلطيخ الدستور كله بالدم والمدهش في الأمر، أن سلطة الشعب تدمّر نتيجة للانقلاب المعادي للدولة الذي بدأه يلتسين في ٢١ أيلول ١٩٩٣، وأن مجلس السوفييت الأعلى الذي انتخبه الشعب يقصف بمدافع الدبابات عن كثب، ومع ذلك تصرّح جميع الدول البرجوازية الرئيسية رسمياً عن «دعم الديمقراطية في روسيا» ولايخفي الحكام الحاليون: كلينتون وكول وميجر والسابقون بوش وتاتشر وريغان سرورهم البالغ بالديكتاتور الروسي فمن أين أتى كل هذا التضامن؟

لينين: كيف من أين؟ إن هؤلاء السادة يدركون تماماً أن تدمير دولة الكادحين على سدس المعمورة يعود عليهم بأرباح هائلة. لامكان هنا لأية أوهام. في البدء يهدمون دولة الأكثرية، ومن ثم يبررون الدولة القائمة من أجل فرد واحد. المهم أن ينفذوا إلى رحاب روسيا تحت راية كتب عليها «انهب واغتنِ».

أفلاطون: من الصعب علينا، نحن الذين عشنا منذ نحو ألفين وخمسمئة عام، أن نفهم ما يحدث في روسيا. ولكنني على استعداد لأن أحرق على مذبح القرابين مؤكدا أن هذا ليس من الديمقراطية في شيء، بل هو الطغيان بعينه. وفيما أنتم تتجادلون وقع بصري على عدد صحيفة «البرافدا» الصادر في العاشر من كانون الثاني عام ١٩٩٤ من العصر الجديد، وفيه تعليق عنوانه «هل يوجد في موسكو دوما؟ »، والدوما، حسبما أفهم، مجلس يشبه الجمعية الشعبية في أثينا؟

السجين: كما يقول المثل: «الخنزير يشبه القنفذ، ولكن الشعر مختلف» الشبه بعيد. وعلى كل حال فإن أعضاء الدوما ينتخبهم أهالي موسكو.

أفلاطون: إذا كان الشعب يتمتع بحق الانتخاب فإن هذا يعتبر خطوة نحو الديمقراطية. ولكن كما يتبين من التعليق المذكور فإن أربعة نواب فقط

من أصل أعضاء الدوما الخمسة والثلاثين نالوا أكثر من نصف أصوات المقترعين إنني لن أسأل لماذا لم يستعمل جميع الناخبين حقهم في التصويت. بل الذي يهمني هو أن أعرف كيف، وعلى أي أساس، تم اعتبار النواب الواحد والثلاثين الباقيين أعضاء في الدوما إذا كانت أغلبية الناخبين من أصل الذي اشتركوا في الاقتراع قد صوتوا ضد جميع المرشحين عموماً؟ فتصويت الشعب ضد الجميع يعني تصويته أيضاً ضد كل واحد على حدة. أي أن الذين يجتمعون في الدوما أدعياء مرفوضون من قبل الأكثرية أقسم بالآلهة أن أهالي موسكو يتعرضون للخداع.

السجين: أفلاطون على قناعة بأنهم يخدعوننا بوقاحة، بينما أنصار يلتسين مع المثاليين المنافقين يتحدثون عن «دولة القانون».

أفلاطون: عن أية «دولة قانون» يمكن الحديث إذا كان حماة الدستور قد أطلقت عليهم النار في وسط موسكو.

السجين: رياء! ومن نوع لم يشهد العالم له مثيلاً من قبل. على كل ليس من جديد تحت الشمس ذات مرة تساءلت من على منبر مجلس نواب الشعب الموسكوفي المحلول حالياً: لماذا تقف البشرية من القانونيين الذين يكتبون القوانين ويفسرونها موقف الاحتقار؟ لماذا يصفهم الناس بأنهم مراؤون؟ لماذا يلعنهم المسيح في أنجيل متّى بقوله: «الويل لكم أيها الناموسيون (تستعمل الترجمة الروسية هنا كلمة «الكتبة» في حين أن نسخ الانجيل القديمة المكتوبة باللغة اللاتينية تستخدم في هذا الموضوع عبارة «Maestros de La Lex» أي «رجال القانون» (أساتذة القانون) ملاحظة المؤلف: ف أ)[1] والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة. هكذا أنتم أيضاً من خارج تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء وإثماً»[2]؟

---

١ ـ كلمة «الناموسيون» واردة في الانجيل في مواضع أخرى. فهناك: الكتبة والفريسيون (المراؤون) والناموسيون (علماء الناموس كما ترد في بعض الأناجيل) ولكل كلمة موقعها. (المترجم)

٢ ـ انجيل متّى ٢٣/٢٧ ـ ٢٨.

الجواب عن هذا السؤال بسيط: فالناس يكرهون القانونيين، أولئك الملزمين بحماية القوانين لأنهم يبصقون على القوانين التي كتبوها هم أنفسهم. فقبل أن يجف حبر توقيع يلتسين على دستور روسيا الجديد أصدر مرسوماً حول «ضمانات الإدارة المحلية الذاتية في روسيا الاتحادية» حيث يخرق المادة العاشرة (الفصل بين السلطات) والمادتين ١٥ و٧٦ (السيادة العليا للدستور والقوانين) والمادتين ٨٥ و ٩٠ (الإدارة المحلية الذاتية) من الدستور الجديد الذي كان قد عمل لتوه على تمريره وإقراره قولوا لي هل يمكن الإنسان العاقل أن يعيش في ظل أمثال هذه القوانين المرائية؟

ديوجين: في المجتمع الديمقراطي (وصدقوني إذا قلت لكم إنني أعرف ما هو هذا المجتمع) يقطعون لسان كل من يمدح أمثال هذه الأنظمة.

السجين: في مركز التلفزة «أوستانكينو» في موسكو سيجد منقذو هذه المهمة عملاً لعدة سنوات. ولكن ما أخشاه ياديوجين أنك ما أن تقترب من هناك حتى يقابلوك برصاص البنادق.

هيجل: أنا مضطر إلى التكرار. بغية تجنب العنف على كل شعب بالضرورة أن يُدخل مع مرور الزمن تعديلات على دستوره القائم، من شأنها أن تقربه أكثر فأكثر من الدستور الحقيقي، إن روح الشعب تنزع من قدميها حذاء الطفولة. والدستور هو إدراك أن هذا الروح قد أصبح في ذاته. الدستور هو شكل الحقيقة، ومعرفة الذات.

وإذا لم يعد حقيقياً بالنسبة إلى الشعب هذا الـ «في ذاته» العائد له، والذي لايزال دستوره يقدمه إليه على أنه الحقيقه، و إذا اختلف وعي الشعب (مفهومه) عن واقعه فإن الروح الشعبي يَمْثُلُ كائناً ممزقاً مزدوجاً.

السجين: هكذا بالضبط فشعوب روسيا اليوم كائن ممزق مزدوج

هيجل: وعندئذ يجري أحد اثنين: يمكن أولاً أن يحطم الشعب بانفجار داخلي عنيف هذا الحق الذي لايزال يطالب بالاعتراف بنفسه، أو يغيّر على نحو أهدأ وأبطأ ذاك القانون الذي لايزال يعتبر قانوناً، لكن لم يعد يمثّل جزءاً مكوّناً حقيقياً من الأخلاق، بل غدا الآن

يمثّل ما تغلب عليه الروح بنفسه. ويمكن ثانياً أن يتضح أن هذا الشعب لايملك الذكاء والقوة الكافيين لهذا، ويظل يعيش في كنف القانون القديم المتدني، وأن ثمة شعباً آخر قد حاز على دستوره الأسمى، وأصبح بفضل ذلك شعباً أكثر تفوقاً، وعندئذ يكف الشعب الأول عن كونه شعباً ويضطر إلى الخضوع للشعب المتفوق.

لينين: ما هذا ياهيجل! ما هذا يابروفيسور! «الانفجار العنيف» مخيف، أما الخضوع للأغراب كالعبيد، فلايخيف كثيراً نصبح خدماً أذلاء في سبيل أن يبقى القانون مصوناً.

هيجل: كثيرون في زماني كانوا يفكرون هكذا ولا أحد يستطيع، كما قال أفلاطون، أن يقفز خارج زمنه.

لينين: امسكك من كلمتك! لم يكن الجميع يفكرون هكذا. فقد كتب معاصرك الفرنسي غابرييل مايلي: «إن هدف الحكومات ليس خرق الحقوق الطبيعية والقضاء على سعادة المواطنين، بل تأمينها. وإذا اتخذت الحكومة إجراءات غير حكيمة، وضارة، فإن كل مواطن له الحق في المطالبة بتغييرها، وهذا ليس حقاً ثابتاً فحسب، بل هو واجب المواطن أيضاً .

إن عدم الطاعة يؤدي إلى الفتن ولكن الطاعة العمياء تؤدي إلى العبودية».

السجين: هنا يجب أن نتوخى الدقة ونقول إننا في تشرين الأول عام ١٩٩٣ قد ناضلنا للدفاع عن القانون وعن الدستور الساري المفعول، أما الحكومة التي لم نكن ترغب في إقامة وزن للقانون ولا لإرادة المواطنين فقد اعتبرتنا مشاغبين ومتمردين. حادثة لاسابقة لها. ولولا تقديم الأسياد الأجانب الدعم ليلتسين لما تمكن من البقاء، ولما تجرأ أحد على الاعتداء على حرية الشعب.

أفلاطون: إن الدولة التي أفرغ فيها القانون من قوته، ووضع تحت سلطة جهة ما هي دولة محكوم عليها بالانهيار وإنني أرى انقاذ الدولة في جعل القانون هو السيد المسيطر على الحكام. وبالتالي فإن الدولة المثالية لايمكن بناؤها إلاّ في حالة احترام القانون.

لينين: الدولة هي جهاز تستخدمه طبقة لاخضاع أخرى بالقوة، ولذا فلا يمكن أن تكون مثالية.

أفلاطون: أقسم بالآلهة أنها يمكن أن تكون كذلك.

لينين: هل تتولى بنفسك بناء مثل هذه الدولة؟

أفلاطون: نعم.

لينين: بم تبدأ؟

أفلاطون: بإلغاء الملكية الخاصة إلغاء تاماً.

لينين: يا له من أمر مثير! نظرة ماركسية عمرها ألفان وثلاثمئة وخمسون سنة فلنتحدث يامحترم، بإسهاب.

السجين: كفى! الوقت في نهايته: فالنهوض قد أصبح وشيكاً. سنبدأ المحاورة التالية بمسألة الملكية. هذا يكفي اليوم. دعوني أنم قليلاً.

خلف قضبان الزنزانة رقم ٣٢ في سجن ليفورتوفو في موسكو ليل تستوي حالك ولم يبق لوقت نهوض السجين سوى ساعتين.

الفصل الثامن

«نستطيع ونحن نناقش هذه المسألة،
أن نُطمئن النُقّاد ذوي النية الطيبة،
وندحض آراء العيّابين الحاقدين،
بحيث يندم البعض لأنهم هاجموني
ويسرّ البعض لأنهم تَعلموا...»

ـ شيشرون ـ

[الرسائل الفلسفية]

الملكية

١٨ كانون الثاني عام ١٩٩٤ من العصر الجديد. الساعة ٢٢ بتوقيت موسكو. تقعقع الطاقة وهي تفتح في باب الزنزانة رقم ٣٢ في سجن ليفورتوفو «مبيت!» يطفأ المصباح الساطع، ولايبقى تحت سقف الزنزانة المقنطر سوى نور المناوبة الخافت يدخل الزنزانة فلاسفة الإغريق القدماء وهيجل ولينين.

أريستيبوس (لديوجين): أنت تعرف أنه على الرغم من تلقيبهم لي فيلسوف المتزلفين، فأنا لم أكن اهتم قط بالملذات وجدت أم لم توجد. أنا مثلك ياديوجين، كلبيّ.

ديوجين: نعم، ولكن فيما كنت أنا أنظف الملفوف لأعد غذائي كنت أنت تطوف على قصور الحكام.

أريستيبوس: لو كنت تعرف كيف تتصرف مع الناس لما اضطررت إلى غسل الملفوف.

ديوجين: ماالذي تعنيه بمعرفة «التصرف مع الناس»؟

أريستيبوس: اعني التصرف إزاءهم لا كما تصرفت في تلك المأدبة التي رمى لك فيها أحد الضيوف بعظمة.

ديوجين: لقد عاملني كما يعاملون الكلاب. وتعبيراً عن شكري له كنت مضطراً إلى الاقتراب منه والبول عليه. أليس هكذا كان سيتصرف أي كلب؟

أريستيبوس: الكلب ـ نعم، ولكن ليس الإنسان. فالإنسان يختلف عن الحيوان.

ديوجين: بم يختلف؟

أريستيبوس: الإنسان بحاجة إلى ملابس، ومسكن جيد، لا إلى برميل قديم كان يستخدم لتخمير الملفوف.

ديوجين: إذن هكذا! وأنا كنت أعتبر أن أول ما يميز الإنسان من الحيوان هو التفكير

أريستيبوس: الأمر كما ذكرت... ولكني مع ذلك عندما انظر إلى أناس القرن العشرين من العصر الجديد تساورني الرغبة في أن ألبس أنا أيضاً ملابس جينز صنع شركة «ليفسي». وامتلك محفظة من طراز «سامسونايت» وسيارة من طراز ب م ف ...(BMW)

ديوجين: أنت تريد أن تمتلك هذه الأشياء الثمينة لكي تتميز عن بقية المواطنين وتبدو أفضل منهم؟

أريستيبوس: نعم، أنا أريد أن أكون أحسن من الآخرين، أعلى مقاماً

ديوجين: وهل ترى أن كثيرين في هذه الحالة سيجدون أنفسهم من حاسديك؟

أريستيبوس: نعم، سيحسدونني، والحسد سيجبر الآخرين على العمل أكثر وأحسن.

ديوجين: العمل؟ وهل يمكنك أن تنفي احتمال وجود شرّيرين بين حاسديك يسعون إلى سلبك ماتملك؟

أريستيبوس: أنا لا أنفي هذا الاحتمال، بل بالعكس، علي أن أكون دائماً على استعداد لمواجهته، وأن اشتري سلاحاً أو أستأجر حرساً لحماية ممتلكاتي.

ديوجين: أي أنك ستعيش في خوف دائم، وإذا هاجمك لصوص مبتزون فأنت مستعد لقتلهم، لقتل إنسان؟

أريستيبوس: سأكون مضطراً إلى فعل ذلك لأحمي ممتلكاتي.

ديوجين: هذا يعني أنك أنت، أريستيبوس، كنت تريد أن تعيش في خوف دائم وتتحول إلى جبان بائس وتصبح في نهاية المطاف قاتلاً؟

أريستيبوس: لا، أنا لم أكن أريد هذا، بل كنت أريد أن أكون أحسن من الآخرين

ديوجين: في هذه الحالة ينبغي عليك أن تتخلى عن الملكية. لقد قلت هذا لأفلاطون أيضاً عندما أتيت إلى بيته، ومشيت على سجاده الفاخر بقدمي القذرتين

أفلاطون: أذكر هذا! لقد قلت لي إنك بهذا تهين كبريائي. وكنت مضطراً إلى أن أجيبك «بأنك تهين كبريائي بكبرياء أخرى ـ هي كبرياء الشحاذ»

السجين: على العموم، العقل لايرى أي سوء في استخدام الشيء الجيد. أضف إلى ذلك أنّ الانسان، إذ يبلغ جزءاً من الحقيقة العامة عليه أن يسعى دائماً إلى تجسيد الحقيقة النسبية في الواقع الممارس، في الأشياء الملموسة، وأن يسخر هذه الأشياء التي ابتدعها العقل لخدمته. وهذه أسمى غايات العقل: اخضاع العام وتسخيره لنفسه. وهذا الطموح لاحدود له، وهو بالذات، لاالملكية، العامل الذي يحدد تقدم البشرية. العقل لايهتم بمن يملك الشيء، إذ أن المهم جداً بالنسبة إليه هو الاقتناع بأنه تعرّف جزءاً من الحقيقة العامة (اكتشف قوانين الكهرباء مثلاً، أو تعلم فصل البنزين عن النفط، وصهر المعادن الخ) وسخره لخدمته. وكما أن المادة تسعى إلى العقل، كذلك العقل يسعى إلى أنّ يتجسد من جديد في جزء المادة الذي تعرّفه.

لينيس: لقد لاحظ الرواقيون في حينهم أن الحقيقة هي تطابق الموضوع مع المعرفة. فالشيء الملموس الذي أبدعه العقل والعمل، والذي يسهل حياة الانسان ـ هو معيار الحقيقة ـ هو الممارسة

سقراط: أرى أننا نتعرض لخطر الابتعاد عن موضوع حديثنا لهذا اليوم: الملكية

لينيس: لاشك في أن مناقشتنا لمثل هذا الموضوع «الدارج» ستؤدي إلى بروز خلافات بيننا في الرأي. لذا أرى من المستحسن أن نوضح منشأ الملكية والأسباب التي تجعل العقلاء مستعدين للتقاتل حتى الموت بسببها.

السجين: لقد فكرت طويلاً وأنا استعد لحديثنا اليوم، وانتهيت إلى أنّ الملكية لم يكن بإمكانها أن تظهر قبل الاجتياح، قبل الشيء.

لينيس: معقول!

سقراط: إذا لم يكن الشيء الملموس موجوداً، لايوجد بالتالي مفهوم عن هذا الشيء.

السجين: إنجلز على حق عندما يؤكد أن الإنسان ما أن حاز على وسيلته الأولى للانتاج ـ العصا ـ وتعلم إسقاط الثمار بها من على الشجر، حتى ظهر لديه فائض من المنتوج. أي أن الانسان استطاع بفضل أداة العمل التي أتقن استعمالها أن يؤمن المنتوج لنفسه ويقدم الفائض لأبناء قبيلته. ومن البدهي أنه إذا أتقن جميع أفراد المشاعة البدائية استخدام العصا وتعلموا كيفية استعمالها لا لإسقاط الثمار فقط، بل لقتل الحيوانات البرية أيضاً سيتوافر لدى القبيلة كلها فائض من الثمار واللحوم. وسرعان ما تبين أن إهداء هذا الفائض إلى القبيلة المجاورة سيجعل الأصدقاء يقدمون بالمقابل جلود الوحوش المقتولة من قبيل العرفان بالجميل بل حتى الأعداء، كما اتضح، يمكن أن يبادلوا الفائض بأشياء أخرى صالحة للاستعمال أو للأكل. وهكذا بدأت القبيلة تقف من الفائض موقف المالك من ملكه. وكل ما جرى بعد ذلك كان يتوقف على سرعة تطوير وتحسين أداة العمل ـ العصا، وإتقان استخدامها، وبعد العصا ظهر المعول والحبل ذو الأنشوطة، ثم ارتقت البشرية إلى درجة عليا من درجات الحضارة ـ فتعلمت الزراعة وتربية الحيوانات. وكانت كل خطوة أخرى جديدة تعني إمكانية زيادة الفائض، إلى أن جاء وقت لم تعد فيه فوائض المنتوج وحدها تعتبر ملكية، بل أصبحت الملكية تشمل بالدرجة الأولى أدوات العمل ووسائل الانتاج أيضاً. والظاهر أن الملكية العامة كانت في البدء تعود لجميع أفراد القبيلة. ثم بدأ حق التصرف بالملكية ينتقل إلى مجلس كبار أفراد القبيلة أو حكمائها، ومن ثم بدأ زعيم القبيلة يغتصب هذا الحق شيئاً فشيئاً، وبدأ زعماء القبائل يورثونه لأبنائهم... وأخذت القبيلة تتفتت والملكية تصبح خاصة.

لينيسو: ينبغي الموافقة على هذا شرطياً. فوجهة النظر هذه، هي على الأقل أقرب مايكون إلى العلم، وتؤكدها الحفريات الأثرية. ولكن يجدر بنا التمييز بين ثلاثة وجوه لعملية تطور أشكال الملكية. أولاً ـ إن عملية تحول الملكية العامة إلى خاصة لم يكن بوسعها أن تكون مطلقة، شمولية. فنمط حياة الشعوب المختلفة يحافظ على الشكل الاجتماعي

للملكية على الرغم من النزوع نحو الملكية الخاصة. تذكروا أراضي المشاعة الفلاحية في روسيا، ولاسيما أراضي المراعي العامة، التي ظلت ملكيتها اجتماعية في جميع الظروف. كما أن الملكية الجماعية للأراضي المشاعية اتسمت بدرجة عالية من الثبات لدى مشاعات الهنود الحمر في أميركا الجنوبية.

السجين: مما يدعو للأسف أن نيكيتا خروشوف عندنا تصرّف بقسوة تفوق قسوة الفاتحين الأسبان في أميركا. فهو لم يكتف بإصدار الأوامر لحراثة أراضي المراعي العامة في روسيا، بل أخذ من الفلاحين المواشي التي يملكونها، وسرعان ما نفقت الأبقار التي بقيت دون علف في أحواش الكلخوزات وسط نواح الفلاحات الروسيات

لينين: وطبعاً ادعّى خروشوف أن هذا التصرف الوحشي هو «مرحلة أخرى على طريق بناء الشيوعية»؟

السجين: هذا ما حدث.

سقراط: ياله من وغد، نيكيتا هذا!

لينين: الوجه الثاني للعملية التي نتحدث عنها هو ظهور أدوات للعمل، ووسائل للانتاج بمقدورها انتاج ما يرغب به المجتمع من فوائض في المنتجات، ولكن شريطة اتحاد قوى ذهنية وجسدية من قبل عدد كبير من أفراد المجتمع. فإذا كان استخدام العصا والحبل ذي الأنشوطة والمعول لايتطلب سوى شخص واحد فإن استثمار الفرن العالي المعاصر أو آلة دلفنة (درفلة) المعادن يتطلسب اتحاد كثرة من الناس، يتطلب مجموعة من العاملين. وهكذا فإن الملكية الخاصة تطمح إلى السيطرة الشاملة ولكنها لاتبلغها أبداً، ومن ناحية أخرى يسبغ عليها تطور وسائل الانتاج طابعاً اجتماعياً، وكأنه يلغم، إن جاز التعبير، نزعة الملكية الخاصة من داخلها

أفلاطون: الملكية الخاصة يجب الغاؤها في الدولة المثالية. ذات مرة توجه إلي أهالي فورينا وأهالي أريكاديا يرجونني أن أصبح مشرّعهم. وقد رفضت رجاء هاتين الدولتين لأنهما لم توافقا على شرطي الرئيسي — وهو إلغاء الملكية الخاصة أياً كانت.

السجين: لقد تصرفت بحدة ياأفلاطون. فكما أن نزعة الملكية الخاصة لايمكن أن تكون شاملة، كذلك عكسها، أي الملكية الاجتماعية، لا يمكن أن تكون عامة شاملة. إذ يجب أن يكون لدى الإنسان مسكنه الخاص، وملابسه، وكل ما يرغب فيه على ألاّ تؤدي الملكية إلى استثمار الإنسان للإنسان.

أفلاطون: ولكن إذا كنّا نريد إنهاء جميع المجادلات والمنازعات والعداوات والأطماع وما شابه ذلك توجب إلغاء الشكل الخاص للملكية. لاحظ إنني أقول: إلغاء لا الملكية ذاتها، بل شكل معين فقط من أشكال التملك هو الشكل الخاص!

هيجل: ولكن كيف يمكن في هذه الحالة إيجاد الحافز إلى النشاط، وهو حافز ضروري لتطوير مصادر الارتزاق، إذا فقد الأمل بالملكية الخاصة؟! إن حقيقة كوني ذاتاً عاملة تشتمل العكس ضمناً، أي قدرتي على أن أكون مالكاً.

أفلاطون: إنني انطلق من مبدأ الدولة الأعلى، وهذا المبدأ يجب أن يكون مبدأ العدالة، فالعدالة تعطي كلّ فرد ما يستحقه، وتستعيد ما تعطيه لتجعله كلاً واحداً، وذلك لأن الخصائص الشخصية لكل فرد لابد لها بالضرورة من أن تبلغ كامل تطورها وتحققها، وكل فرد ينبغي أن يشغل مكانه المناسب وينفذ ما انتدب له. المهم بالنسبة لي هو إظهار القدرات الكامنة في كل فرد في المجتمع. والملكية الخاصة تحول دون ذلك.

هيجل: ولكن هذا خاصية ثانوية للملكية الخاصة بالمقارنة مع المبدأ السامي والرشيد لحق الملكية. ثم إن الحرية لاتوجد إلا بقدر ما يملك الفرد من حق في التملك.

لينين: أهكذا يامحترم!! دعني أقل لك أولاً: إن الحرية هي الضرورة المدركة. وثانياً: أنت، ككل مثالي، بعيد كل البعد عن الإطراد المتماسك في التفكير. إنك لاتنفك تذكر بين فينة وأخرى الإله والانجيل، وما إن يصل الأمر إلى الملكية الخاصة حتى تصيح: دون ملكية خاصة لاتوجد حرية شخصية. ماذا بك، هل نسيت قول القائل: «إن كنت تريد أن تكون كاملاً فإذهب وبع أملاكك واعط المساكين، فيكون لك كنز في

السماء، وتعال اتبعني». راجع من فضلك انجيل متّى، الاصحاح ١٩ الآية ٢١ وحدّد، أخيراً، أية حرية هي الأغلى عندك.

السجين: أمر مذهل، لكنه واقع! فمارغريت تاتشر، وهي المدافعة المتشددة عن الملكية الخاصة، عندما أتت إلى روسيا كررت حرفياً أقوال هيجل في كلمتها التي ألقتها عبر التلفزيون الروسي. «فالسيدة الحديدية» لم تجامل، وإيعازاتها كانت بسيطة وبداثية: «عودوا إلى الملكية الخاصة! لاحرية للفرد بدون حرية المشروع الخاص». ومن وقتها أفلت الزمام! وبفضل مبادرة تاتشر تكاثر في روسيا أرباب المشاريع الخاصة بأعداد لاتحصى. وظهر أصحاب ملايين أحرار تماماً ولكنهم انتزعوا من أكثرية الشعب حرية الأكل والشرب على نحو طبيعي. وحرية التعليم وحرية حيازة مسكن وعمل يليقان بالإنسان ولم يحصل الشعب على الحرية، بل على الفقر. وكالعادة لا أحد يريد أن يعترف بخطئه. وقد ضللوا الشعب بقولهم له: إذا لم يكن للأشياء مالك، يذهب كل شيء هباء! ويصيح آخرون: البلاشفة هم المذنبون! فقد ألغوا الملكية الخاصة وجعلونا فقراء. وتحاول أن تعيدهم إلى الصواب بالحجة: عفوا، البلاشفة أو الشيوعيون، على الرغم من كل أخطائهم، استطاعوا، بفضل الملكية الجماعية أن يوصلوا المجتمع إلى تأمين أرخص مواد غذائية في العالم وفي بعض الأوقات كانت الأسعار تخفض، والخبز يقدم للعمال والفلاحين والطلاب في جميع مطاعمهم حسب الرغبة: خذ قدر ماتريد دون أن تدفع شيئاً. وبفضل الملكية الجماعية أصبح التعليم بجميع مستوياته مجانياً، وكان الاستجمام في أفضل منتجعات البلاد لايكلف الإنسان الكادح سوى كوبيكات . ولكنهم لايرغبون في الإصغاء إليك. وكلما ازدادت عواقب العودة إلى الملكية الخاصة وإلى المشروع الخاص فظاعة ازدادوا هم شراسة منذ أيام أحضرت لي زوجتي مع طرد الزيارة بعض الصحف وفيما أنا أتصفح «نيزافيسيمايا» (الجريدة المستقلة) وجدت فيها على كامل الصفحة تقريباً مقالة موقعة باسم «من لم يجهز عليه»

أفلاطون: وماذا كتب هذا الذي «لم يجهز عليه»؟

السجين إنه ينهال بالشتائم على جميع الدعاة إلى اقتصاد السوق، وجميع الذين كانوا يبرهنون لنا على ضرورة التخلي عن الشكل الجماعي للملكية والعودة إلى الشكل الخاص. وقد طال بشتائمه الأكاديميين أغانبينيان وأبالكين وعمدة موسكو السابق غافرييل بوبوف، و «منظّر اقتصاد السوق» غايدار، وتشوبايس..

أفلاطون أترى! شخص له هذه الكنية ويغار بهذا الشكل على ملكية الشعب العامة.

السجين الأمر ليس هكذا على الاطلاق! فأي غيور هذا!

لينين ماذا؟ ! هل يوجه سهامه إلى جماعته؟ !

السجين طبعاً!

لينين إيه، ياعزيزي، عندما ينتقد أحد المثاليين مثالياً آخر، أو عندما يوجه أحد أنصار اقتصاد السوق لكماته إلى وجه نصير آخر ليس لنا، نحن الماديين، سوى أن نفرح، لأن مشاجراتهم تؤكد أننا على حق

السجين هذا عندما نمتلك إمكانية التعبير عن وجهة نظرنا علانية أمام الجمهور. أما هكذا فسيبقى «الذي لم يجهز عليه» وحده يصرخ: «كلهم أغبياء! كلهم قذرون! لصوص! مرتشون ومختلسون! من يناضل هكذا في سبيل انتصار الملكية الخاصة؟ ! يجب تقسيم جميع الممتلكات، أياً كانت، في الدولة، بين الجميع».

لينين كيف هذا؟ أحدهم يجر إلى فنائه السكة، والآخر القاطرة؟

السجين في هذا بالذات تكمن القضية كلها: فالملكية، ولاسيما وسائل الانتاج، ذات الطابع الجماعي (الاجتماعي) لاتقسم يمكن انتزاعها من الشعب عنوة، سلبه إياها ونقلها إلى أيدي فئة قليلة من المحتالين، ولكن تقسيمها، ومن باب أولى تقسيمها بالتساوي، أمر مستحيل. لذا فإن شعبنا ينظر بحيرة إلى مروّجي فكرة «الخصخصة العادلة» فأي إنسان ذو تفكير سليم يدرك أن: الخصخصة العادلة لا يمكن تحقيقها.

أفلاطون لايمكن الجمع على الاطلاق بين العدالة والخصخصة، الملكية الخاصة.

السجين: الشعب يدرك هذا بحسه. وأي مهندس أو عامل يمكن أن يخطر بباله تجزئة مصنع ما وتوزيعه على جهات خاصة منفردة؟ !! الحقيقة أنهم عندنا في روسيا حاولوا، تحت إمرة غورباتشوف ويلتسين وغايدار وتشوبايس وبوبوف وغيرهم وغيرهم، تقطيع أوصال مصانع ضخمة وتقسيمها إلى أجزاء صغيرة. وبدؤوا ينظمون داخل الورشات أقساماً «تعاونية» خاصة

لينين: وماذا كانت النتيجة؟

السجين: قبلاً كانوا يصنعون محطات جليد ذرية، والآن أصبحوا ينتجون طناجر.

لينين: برابرة!

السجين: ليس باليد حيلة! لايمكن لهؤلاء «الذين لم يجهز عليهم» أن يفهموا أن العدالة ليست في توزيع ملكية الشعب العامة وجعلها خاصة، بل في أن تتاح لكل عامل إمكانية المساهمة في توزيع المنتجات المنجزة. إن الوضع العادل هو الذي يمكّنني من أن أعرف كم كسبنا كلنا جميعاً، وإلى أين ذهب كل جزء مما كسبناه، وما هو نصيب المدير فيه، وما هو نصيبي. والعدالة، أخيراً، تقتضي مراقبة أكثرية العاملين لمقدار ما تكسبه الإدارة.

هيجل: مراقبة أرباح الملاّك الخاصين؟ هذا غير مشروع!

السجين: ومن قال «الملاّك الخاصين»؟ الملكية يجب أن تعود إلى جميع مواطني الدولة الحرة.

لينين: «الذين لم يجهز عليهم» لن يتحدثوا عن هذا أبداً هذه حقيقة. فكل هؤلاء المدافعين بضراوة عن «حق الملكية الخاصة المقدس» يشبهون الحكماء الرواقيين الذي ظهروا في حقبة تقهقر الديمقراطية الإغريقية

أرسطو: لابد من الاعتراف بأن الحكماء الرواقيين في الوقت الذي كانوا يدافعون فيه عن قانون الملكية الخاصة كانوا يرفضون القوانين التي تحرم أكل لحوم البشر، واللواط، وغشيان المحارم الخ..

السجين: يتكون لدى المرء انطباع بأن جميع البروفيسورات والصحفيين والأكاديميين في روسيا قد تحولوا مع عودة الملكية الخاصة إلى حكماء

رواقيين. البغاء؟ يستحق الثناء! بنَيات في العاشرة من العمر يبعن على الأرصفة بالدولار للأجانب؟ ! أرأيت كيف يتقنون بسرعة فن العمل الحر والمشروع الخاص؟ ! إنهم يحولون الثقافة إلى بالوعة قاذورات! هذه متطلبات السوق!

أرسطو: الرواقيون يمكنهم على العموم أن يبدوا استنكارهم ظاهرياً، بل أن يلقوا مواعظ خطابية طنانة حول موضوعات أخلاقية...

السجين: مثل أكاديميّنا ليخاشوف...

أرسطو: ولكنهم يتلقون برضا رعاية الملاّك الأثرياء لهم.

السجين: ولذا تراهم يبالغون في مديح رعاة الفن والثقافة الأغنياء، أكثر بني البشر إنسانية في العالم.

أرسطو: إننا نجد عند الرواقي سينيكا مثلاً من التأملات الأخلاقية ذات النبرة الخطابية أكثر مما نجد لديه من النشاط العملي. بيد أن الجميع كانوا يلومونه على ثرائه وأسلوب حياته المترف، وذلك لأنه كان بالفعل يسمح بأن يغمره الدكتاتور نيرون بأعطياته السخية التي لاتحصى.

هيجل: سينيكا كان مربي نيرون، وكان يكتب له خطبه.

السجين: أياً كان الأمر فإن البشرية ككل ترفض الاندفاع المجنون في التهليل للمبادرة «القائمة على الملكية الخاصة». فمنذ مدة قصيرة نشرت صحيفة «البرافدا» خبراً مثيراً للاهتمام يقول إن سكان المدينة البرازيلية ريودي جانيرو الذين يبلغ عددهم ١٧ مليوناً، قرروا وضع حجر الأساس لإنشاء بستان كبير يضم عملياً جميع أنواع أشجار الفاكهة الموجودة على كوكبنا: من التفاح إلى الأفوكات إلى الماندرينا إلى الكيوي إلى الموز الخ.. وسيكون لكل مواطن الحق في الدخول إلى هذا البستان ـ الأعجوبة وأكل ما يستطيع أكله من الفواكه مجاناً. والأمر الوحيد الذي لا يجوز للزائر أن يفعله هو حمل الفواكه معه إلى خارج البستان.

سقراط: هذا عدل وكياسة.

هيجل: نعم، عن مثل هذا البستان يمكنني القول بثقة: كل واقعي معقول، وكل معقول واقعي. وقد أقام الشاه عباس الصفوي بستاناً كهذا

في إيران في القرن السابع عشر، وكان بإمكان كل زائر أن يدخل البستان ويأكل من ثماره بقدر ما يستهي، ولكن إذا حاول أن يخرج منه ولو خوخة واحدة ضربوه على عقبيه بالعصي دون رحمة

السجين: لاحظوا إن الانسجام يتحقق حيث يلغى حق الاستيلاء على فائض المنتوج الذي تعطينا إياه أمنا الأرض.

أريستيبوس: البستان العام في ريودي جانيرو رائع. فهناك لن يتعرض أحد للضرب بالعصي على عقبيه. ولكننا نرغب في الذهاب إلى هناك بسيارتنا الخاصة من طراز «ب م ف»!

سقراط: أتريد أن تصل بسيارة أم تريد امتلاك سيارة؟

أريستيبوس: أريد أن أقود السيارة بنفسي، وأن تنضم إليّ في الطريق مرافقة شابة مرحة.

سقراط: أنت لا تجيب عن سؤالي؟ هل ترغب الوصول بسيارة أم في امتلاك سيارة؟

أريستيبوس: من حيث المبدأ الأمران سيان. ولا أرى فارقاً كبيراً بينهما.

السجين: الفرق شاسع! وإذا عبرنا عن سؤال سقراط بلغة القانونيين قلنا: هل تريد أن تنتفع بالسيارة أم أن تملكها؟

أريستيبوس: إذا كنت أملك الشيء فأنا أنتفع به. والعكس صحيح. أنا أنتفع إذن أنا أملك

السجين: الأمر ليس هكذا على الأطلاق. فهذان المفهومان مختلفان تماماً. ولأضرب لك مثلاً من حياتنا اليوم. عندنا في روسيا الكتب موجودة في كل منزل، وفي كل شقة. بعضهم لديه كثير منها وبعضهم أقل، وهي تشكل في جميع الحالات نوعاً من المكتبة الخاصة. فهل بوسعي أن أزعم وضميري مستريح أن أصحاب هذه الكتب ينتفعون بها، يقرؤونها؟ في أكثر الحالات تفقد الكتب كملكية خاصة الغاية الأساسية التي وجدت من أجلها وتغدو مجرد زينة في الشقة. إنهم عادة لا ينتفعون بها في المطالعة وينبغي أن نعلم أن انتاج الكتب يتطلب قطع عدد لا يستهان به من الأشجار، واستهلاك كمية معينة من الطاقة، وإلى ذلك فإن صناعة الورق تؤدي إلى تسميم الأحواض المائية

التي تصرف إليها المياه الخارجة من مجمعات انتاج السيلولوز. وكل هذا لم؟ لدعم كبرياء المالك الخاص الذي يتباهي باحتواء رفوف مكتبته على مؤلفات جول فيرن الكاملة؟ أما المكتبة العامة فلها شأن آخر. الكتب هنا يُنتفع بها! فالناس يقرؤونها. وعلى هذا فإن الملكية الاجتماعية تجعل تكاليف انتاج الأشياء معقولة ورشيدة. ويتضح لنا هذا الأمر أكثر إذا ما نظرنا في أمر السيارة فالسيارات الخاصة لا تستخدم إلا بنسبة ١٠ ـ ١٥٪ من طاقتها. فهي تستخدم بشكل أساسي للوصول إلى مكان العمل والعودة منه. وتظل السيارة الخاصة خلال الجزء الأساسي من زمن وجودها متوقفة، وتشغل في أثناء ذلك مساحة مفيدة من أراضي المدينة. وفي الوقت نفسه فإن ٨٠٪ من تلوث أجواء المدن تسببه غازات عوادم السيارات. أما وسائط النقل العامة فتستخدم بكامل طاقتها تقريباً (وقد كان هذا واضحاً بشكل خاص في ظل الاشتراكية) وتنقل أعداداً أكبر بمئات المرات، وهي من الوجهة البيئية أنظف خذوا مثلاً المترو والباص الكهربائي (الترولي باص) والترام. إن مترو موسكو الذي انشىء في ظل الاشتراكية كان يفي بمتطلبات عشرة ملايين راكب يومياً لا من الناحية التقنية فحسب، بل من الناحية الجمالية أيضاً. وكان أجر استخدام المترو رمزياً. فما هو الأكثر معقولية: الملكية الخاصة أم العامة؟

أريستيبوس: الشكل الاجتماعي للملكية أكثر معقولية، ولكن مع ذلك تراود المرء الرغبة في أن يقود سيارة من طراز «ب م ف»!

السجين: لم لا تنظم الدولة مراكز لتأجير السيارات، حيث يتقاضون من الراغب مبلغاً معقولاً لقاء استخدام السيارة لمدة معينة، بعد التأكد من قدرته على قيادتها؟ ومن البدهي أن من يتعمد إلحاق الضرر بالممتلكات الاجتماعية يجب أن يتعرض لمسؤولية صارمة، ولكن هذه المسألة تتعلق بآداب المجتمع. إنّ ما كنت أرغب في تبيانه هو أنّ الملكية الخاصة مضادة لطبيعة الانسان والوسط الذي يعيش فيه. وإذا استمرت البشرية في الركض وراء المشروع الخاص والاستهلاك الخاص تحكم على نفسها بالانقراض، وذلك لأن الوسط المحيط بنا والموارد

الطبيعية ليست دون حدود، وليست متجددة. والعزاء الوحيد في هذا الصدد هو ان المادة لانهائية، وهي ستنتج في مكان ما آخر. في مجرات أخرى، عقلاً لا يقع في فخ الملكية الخاصة القاتل.

لينيسو: أمثال هذه الآمال تقود إلى السلبية. جميع الفلاسفة كانوا قد فسروا العالم قبلنا، والمهمة الآن هي تغييره نحو الأفضل وتعليق الآمال على لانهائية المادة لا يفيد القضية في شيء. ينبغي العمل وفق قانون الضمير: إذا لم يكن أنا، فمن إذن؟

سقراط: إذا كنت أنا غير كامل، ولا أريد أن أكون كاملاً، فإن الكون غير كامل ولا يرغب في أن يكون كذلك.

لينيسو: ومع ذلك فإن المرء يشعر بالأسى. أعرف أن تصوّر العملية التاريخية العالمية سائرة بسلاسة ودقة إلى الأمام دون قفزات، عملاقة أحياناً، إلى الخلف هو تصوّر غير ديالكتيكي وغير علمي وغير صحيح. ولكن أخذ احتمالات التقهقر بالحسبان أمر، ورؤيته يتجسد في الواقع أمر آخر. أو يمكن أن تكونوا قد انحدرتم بالأرض إلى مستنقع البيع والشراء بأسعار «السوق الحرة»؟

السجين: بسبب أرض روسيا تجري الآن معركة. وقد جمعت هنا نقولاً مقتبسة من الصحف التي تصل إلى السجن، وسأضعها في تصرف الجميع لنناقش في المرة القادمة هذا الموضوع بمزيد من التفصيل. إلى اللقاء! لايزال لدي قليل من الوقت حتى موعد النهوض ويمكنني أن أنام قليلاً.

الساعة السادسة بتوقيت موسكو من اليوم التاسع عشر من كانون الثاني عام ١٩٩٤ من العصر الجديد. تفتح الطاقة في الباب الحديدي للزنزانة رقم ٣٢ في سجن ليفورتوفو ويقول المراقب بلامبالاة: «نهوض!»

الفصل التاسع

«.....ذاك الذي رفع السكة فوق التربة،
وعاد يفلح من جديد بمحراثه المائل،
الذي يعمل باستمرار في الحقول
هو صاحب الأرض.»

ـ فيرجيل ـ

[غيورغيكي[1]]

الأرض

1 ـ «قصيدة الزراعة»

٢٠ كانون الثاني عام ١٩٩٤ من العصر الجديد. الساعة ٢٢ بتوقيت موسكو تفتح الطاقة بصخب في الباب الفولاذي للزنزانة رقم ٣٢ في سجن ليفورتوفو: «مبيت».

يرحب السجين بفلاسفة الإغريق القدماء وبهيجل ولينين الداخلين إلى الزنزانة.

بروتاغوراس (لهيجل): قل لي يا بروفيسور، إذا كان لدينا عجل مذبوح، هل بإمكاننا تقسيمه بالعدل بين عدة أشخاص؟

هيجل: هذا يتوقف على الشخص الذي سيتولى القسمة كما أعتقد.

بروتاغوراس: لا، على الإطلاق! حتى إذا أمسك بساطور الجزار زيوس القادر على كل شيء، لن يكون بوسعه أن يقسم الواحد على كثرة.

هيجل: ما الذي يجعلك ترى هذا الرأي؟

بروتاغوراس: الممارسة هي التي أقنعتني بهذا. فأول ما يتوجب علينا أن نفعله عند تقسيم الذبيحة هو التضحية للآلهة بأفضل الأجزاء: القلب والكبد. وبعد ذلك لابد من أن تكون فتائل الظهر من نصيب أحدهم، ولحم الصدر من نصيب آخر، بينما لا ينوب شخصاً ثالثاً سوى العظام لصنع مرق هلامي مجمد، أما العبيد فلهم الأحشاء، والقرنان، والأظلاف. فهل هذه القسمة عادلة؟

هيجل: الجواب واضح: غير عادلة.

بروتاغوراس: ولكنها ليست عادلة لا لأنني أنا جزار سيء، بل لأن الكل الواحد لا يقسم على كثرة.

هيجل: وبالتالي فالعدالة غير ممكنة؟

بروتاغوراس: إذا لم نسعَ إليها.

هيجل: جيد، سأفترض أنك تعتبر العدالة هي الخير الأسمى للانسان. فكيف ستتصرف في هذه الحالة بالعجل الذبيح الذي يجب تقسيمه بين كثرة من الناس؟

بروتاغوراس: سأسلقه في حلة كبيرة وأصنع من مرقه حساء كثيفاً ثم أقدم لحم العجل قرباناً للآلهة، وأوزع الحساء على الناس بالتساوي.

هيجل: أية عدالة هذه؟ اللحم للآلهة، وليس للناس سوى المرق!

لينين: أهنئك يا بروفيسور! ليس كل مثالي على استعداد للإقدام، في سبيل العدالة، على إنزال الآلهة من الأولمب ومساواتهم ببني البشر العاديين: فالعدالة واحدة بالنسبة للجميع بغض النظر عن الوظيفة التي يتولونها على الأرض أو في السماء. لم يبق إلاّ القليل على تقديمك طلب انتساب إلى حزب الماديين

أفلاطون: ربما كان مثال العجل المذبوح ليس موفقاً، ولكن يمكن أن نجد فيه مفتاح الحل العادل لمشكلة الأرض. إن الأرض كما هو معروف لا يمكن استعمالها في الطعام لا من قبل الناس ولا من قبل الآلهة. ومع ذلك فهي تعطي كل عام «قوتاً»: من حَب ولحم وثمر. لقد وهب الآلهة الأرض للناس على أساس التساوي. وهذا هو الإلهي حقاً الذي فيه لكل واحد نصيب. وليس لأحد الحق في الاستيلاء على ما يعود للآلهة. أما توزيع خيرات الأرض توزيعاً عادلاً فأمر ليس فيه أية صعوبة، شريطة أن تكون الأرض للجميع، وملكيتها عامة.

السجين: يبدو أن الفكرة القائلة بعدم عدالة الملكية الخاصة للأرض تستولي على أفضل العقول البشرية منذ آلاف السنين، ولكن في روسيا، وبعد الاختراق الأعظم الذي حصل على طريق إلغاء الملكية الخاصة للأرض بدأت منذ عهد الطاغيتين غورباتشوف ـ يلتسين حركة عكسية: من الملكية الشعبية العامة إلى الملكية الخاصة. وأصبحت الأشكال الجماعية للانتفاع بالأرض ـ الكولخوزات والسوفخوزات ـ تلطخ بوحول الدعاية المضادة. ومع الكولخوزات والسوفخوزات يتعرض للإذلال ملايين الناس الذين ربّوا الحقل الروسي وأحاطوه برعايتهم

وحنانهم، وكانوا يطعمون الشعب كله، مع أنهم هم أنفسهم لم يكونوا يترفهون دائماً، واللحم لم يكونوا يرونه إلاّ في الأعياد الكبيرة

لينين: مسألة الأرض كانت وستبقى دائماً المسألة الجذرية في البنية الاجتماعية. في عهدي أنا، عندما حصل جميع الفلاحين بعد انتصار الثورة الإشتراكية في اكتوبر ١٩١٧ على حصص من الأرض، بدؤوا منذ ذلك الوقت يتحدون في تعاونيات ورفاقيات للعمل في الأرض جماعياً. وتم تثبيت الأرض للمزارع الجماعية إلى الأبد بموجب مرسوم دولة.

السجين: أضيفُ إلى ذلك أن عملية التشكيل الطوعي للمزارع الفلاحية الجماعية، مع ان ستالين عمل على تسريعها بعد رحيل لينين، إلاّ أنها ككل تكيفت مع الواقع ورسخت فيه. واختفت من حياة الريف النقمة التي كانت تنغص حياة الفلاحين وهي الحرمان من الأرض، والعمل بالأجرة في أراضي الملاّك. أما المجاعات الكارثية التي كانت تتكرر كل سنة تقريباً (في حين كان التجار وكبار ملاّك الأراضي يصدرون القمح الروسي إلى الخارج!) والتي أجاد الكونت ليف تولستوي وصفها فلم يتكرر صداها المخيف في روسيا إلاّ في عامي ٢٩ و٣٦، ثم نسي الشعب بعد ذلك ما هو الجوع. هذه حقيقة. وقد تحقق هذا بفضل انسجام الاستثمارة الفلاحية الجماعية مع التوزيع العادل للمنتجات. وانتفى تغريب المنتوج عن الشعب الكادح، وأصبح يعود إليه بكامله دون أي إجتزاء. وقد ساد هذا الوضع في أرضنا عبر عمل شاق وأخطاء كثيرة وآلام تفوق التصور.

أفلاطون: ولكن إذا كان ثمة وضع معين في الدولة يلائم روح الشعب فإن هذا هو الخير الذي يجب السعي إليه. فما الداعي إلى تخريب ما ثبتت صلاحيته؟

هيجل: ولكن إذا كانت الأرض كلها جماعية نكون قد عدنا إلى التمولية، إن المجموعة، العام يكبت الفردية، الخاص.

السجين: هذا هو اللوم الذي ينحي به على الشيوعيين جميع المدافعين عن الملكية الخاصة للأرض: لقد حرمتم الانسان من إمكانية امتلاك قطعة أرض ومنزل صغير خاصين به. إن هذا كذب فظيع! كذب وافتراء

على الاشتراكية. في الواقع الفعلي كل شيء كان يناقض ما يدّعون فبعد قيام ثورة اكتوبر مباشرة، ووفقاً لإرادة الأكثرية الساحقة من الفلاحين، الذين زودوا مندوبيهم إلى المؤتمر الثاني للسوفييتات بتوصية خاصة، تم الغاء الملكية الخاصة للأرض في روسيا «إلى أبد الدهر». وجُعلت الأرض ملكاً للشعب كله. وربطت مساحات محددة من الأراضي بالاستثمارات الفلاحية الفردية، ومن ثم بالاستثمارات الجماعية التي أقبلت طوعاً على توحيد أدواتها ومواشيها فضلاً عن العنصر الأساسي الذي هو الأرض ومع مرور الزمن غدا الاستثمار الجماعي لأراضي الشعب كله السمة المهيمنة لمجتمعنا. ومهما انتقد أعداؤنا ستالين فإن الجمع المنسجم بين العام والخاص الفردي قد تحقق في عهده بالذات. فإلى جانب الحقل العام كان لدى كل أسرة فلاحية مبقلتها الخاصة (في وطني الصغير كوبان كان لكل كولخوزي الحق في استثمار مبقلة مساحتها هكتار) وما أن وقفت الكولخوزات على قدميها حتى ظهرت في أحواش الفلاحين أبقارهم الخاصة. ولكن المسألة الأساسية ـ مسألة الحبوب ـ ظل حلها من اختصاص المجموعة. إن خروشوف هو الذي أخل بالانسجام الذي كان سائداً في الريف، ولكنني سأتحدث عن هذا فيما بعد. وسأكتفي الآن بالإشارة إلى أن ملكية الشعب العامة للأرض قد أتاحت تلبية الحاجة «الغريزية» إليها، المتوارثة عن الأسلاف البعيدين والمنتقلة إلى سكان المدن أيضاً. إن بناء الدارات الصيفية (الداتشات) وإنشاء بساتين فردية صغيرة لم يكتسبا الطابع الجماهيري الواسع إلاّ في ظل الإشتراكية. ولن تجدوا في أي بلد في العالم حيث توجد ملكية خاصة للأرض عدداً من الدارات الصيفية العائدة لسكان المدن يضاهي عددها في روسيا وأوكرانيا وبيلوروسيا وتاتاريا...

هيجسل: بما أن كل شيء كان جيداً إلى هذه الدرجة، حسبما تقول، لماذا إذن لايقاوم الفلاحون في روسيا عودة الملكية الخاصة للأرض؟

السجين: كيف لايقاومون؟ إنهم يقاومونها بشدة! وتدل على هذا نتائج شتى الانتخابات والاستفتاءات. ففي المناطق الريفية في روسيا تصوت

أكثرية الناخبين ضد يلتسين وضد سياسة الخصخصة التي ينتجها. أما قضية تضليل الفلاحين عن طريق التلفزيون الذي يصور لهم الجنة في أكواخ الملكية الخاصة ويفتري على نظام الكولخوزات من جهة، وعدم تورع السلطات «الديمقراطية» المحلية عن تخويف سكان الأرياف تخويفاً مباشراً من جهة ثانية، فهي قضية لها شأن آخر.

هيجـل: هل بإمكانك ذكر أمثلة ملموسة؟

السجين: وهو كذلك! في الصيف الماضي، على سبيل المثال، اتفق لي أن ألقيت كلمة أمام أهالي بلدة بوبروف ــ وهي مركز ناحية في منطقة فورونيج. وتعتبر البلدة مركز ناحية نموذجياً، يراوح عدد سكانها بين ١٠ و١٥ ألف نسمة، ومبانيها مؤلفة من طابقين (ظاهرة نادرة) وأكثرها مبني من الآجر، وهي تمتد على طول الشارع من الجانبين، مشكلة في الوسط طريقاً عريضاً للسيارات، وخلف المباني في كلا الجانبين مباقل تزرع فيها البندورة والذرة والبطاطا والملفوف وعباد الشمس. لم يكن الاجتماع حاشداً، ولكن على الرغم من موسم الحصاد فقد أتى نحو ١٠٠ ــ ١٢٠ شخصاً وبالطبع كنت أقنع الفلاحين برفض الملكية الخاصة للأرض. فحرية بيع وشراء الأراضي في ظروف روسيا المستنزفة اقتصادياً تعني شيئاً واحداً هو شراء الأراضي بالجملة من قبل البنوك الأجنبية. وبعد اللقاء اقتربت مني امرأة كهلة وهي تمسح دموعها بمنديلها الحائل اللون، وقالت: «أنت تقول إن الملكية الخاصة للأرض حرام، وأنا أدرك هذا. ولكن كيف لي أن أرفضها إذا كان نائب رئيس إدارة الناحية عندنا، جاءني البارحة ليقول لي: «إذا كنت لن تأخذي المبقلة كملك خاص سننتزعها منك بالمرة». قلت لها: «هذا غير ممكن، إنهم لايجرؤون على التصرف بالمباقل. ليس هناك قانون يسمح لهم بهذا. المبقلة تعود ملكيتها لك بدون عملية تخصيص. إن هؤلاء المسؤولين يتحفزون للاستيلاء على حقول الكولخوزات، أما المباقل فهم لايمسونها. يعرفون أن النسوة سيضربنهم بالسواطير». فصاحت المرأة نائحة: «هو هكذا، هو هكذا! ولكن رئيسنا هنا طاف بيوت الشارع كلها تقريباً، وأنذر الجميع: إذا رفضتم التخصيص ــ سننتزع منكم

المبافل». قولوا لي: أليس هذا ابتزازاً؟ ولمَ كل هذا؟ إنهم يريدون أن يعوّدوا الناس الملكية الخاصة غصباً. وهم مكارون كالأفعى المغوية فهم يعرفون أن الفلاح عندما يستخرج أوراقاً رسمية لتثبيت ملكيته الخاصة للمبقلة التي كان يملكها أصلاً، يتقبل بسرعة أكبر الملكية الخاصة الحقيقية للأرض عندما يبدأ ملوك المال الأجانب وحفنة الطفيليين السائرين في ركابهم بالاستيلاء على مساحات الأراضي الأساسية، أي الأراضي التي تعود ملكيتها للشعب عامة أراضي الكولخوزات والسوفخوزات.

هيجل: حسبما فهمت، كان الفلاح في ظل السلطة السوفييتية في روسيا وفي ظروف الملكية الشعبية العامة للأرض يستثمر الأرض بالأسلوب الجماعي (الكولخوزات والسوفخوزات) وبالأسلوب الفردي (المبقلة، المزرعة الخاصة المساعدة).

السجين: صحيح!

هيجل: إذن فأنا أرفض فهم المنطق الذي يتبعه حكام روسيا اليوم. هل لديهم عقل يفكر؟

أفلاطون: أعتقد لا، لامجال للحديث عن العقل هنا. بل الأولى الحديث عن اختلال العقل.

السجين: عن الفصام كما يقولون هذه الأيام.

أفلاطون: أواه! لا أحد سوى الفصاميين يستطيع أن يطبق بكل هذا الإصرار سياسة يرفضها شعب بلاده. أضف إلى ذلك أن تجربة البلدان الأخرى تتحدث بوضوح عن أن الملكية الخاصة للأرض هي مغالطة تاريخية. هاكم على سبيل المثال ماكتبه رجل الأعمال الألماني فريتس آندرس في العدد ٥١ من الجريدة الموسكوفية «الأخبار المالية» (فينا نسوفييه أزفستيا) الصادر لأسبوع ٢٢ ــ ٢٨ تشرين الأول عام ١٩٩٣: «مقولة أن الأرض هي ملك عام لايرقى إليها الشك. فكل إنسان ينتفع بها من أجل الحياة، ولا أحد أنشأها ــ فهي إرث طبيعي للجنس الانساني كله وبالتالي فإن تنظيم الأرض يجب أن يفي بشرط تساوي جميع الناس في حقهم في التمتع بثرواتها: لايجوز غمط حق أحد، ولايجوز منح امتياز لأحد، هذا هو الجانب الاجتماعي للمسألة».

السجين: أشير هنا إلى أن كاتب المقالة فريتس آندرس قد نشر مقالته هذه في صحيفة «أزفستيا» على حسابه الخاص، منطلقاً على ما يبدو من إرادة الخير لحكام روسيا ولشعبها. وقد عمدت الصحيفة المعروفة بآرائها المعادية بشراسة للشيوعية إلى التبرؤ فوراً من المقالة: «هيئة التحرير لن تجري نقاشاً حول ماورد في هذه المقالة، ولن تنظر فيما يرد من تعليقات».

لينين: نموذج في غاية الروعة للـ«ديمقراطية» السافلة

أفلاطون: ثم يمضي فريتس آندرس قائلاً في مقالته. (أنقل عنه حرفياً) «أكثرية المستشارين الغربيين يوصون (الحكومة الروسية: ف.أ) بتطبيق الخصخصة على الأرض عن طريق البيع والشراء. ولكنهم في أثناء ذلك لايأخذون في الحسبان أن العلاقات العقارية في دول أوروبا الغربية وأميركا القائمة على هذا الشكل من الملكية الخاصة للأرض قد أدت إلى بروز نواقص جوهرية وأضرار اجتماعية لايجادل فيها أحد جدياً. فهذا الشكل لتنظيم ملكية الأرض له عيبان رئيسيان يولدان عيوباً أخرى كثيرة، وهذان العيبان هما: ـ تجميع الأراضي وتركها دون استثمار، والمضاربة بها».

السجين: لو كان السيد فريتس آندرس من مواطني روسيا يلتسين ـ ياكوفليف لكانوا وصفوه في التلفزيون بسبب أفكاره هذه بأنه «أحمر ـ بني» ثم زجوا به في السجن حتماً.

أفلاطون: هذا ليس مستبعداً. وذلك لأن فريتس آندرس في مقالته لايقترح فقط الاستعاضة عن الخصخصة بحق الانتفاع بالأرض، بل يتعدى ذلك إلى إبداء تعاطفه بوضوح مع ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى التي جرت عام ١٩١٧ من العصر الجديد. وأنقل عنه قوله «ليس لدى أي دولة اليوم مقدمات مواتية بهذا القدر ـ بفضل الوضع السياسي ـ من أجل تحقيق التنظيم الاجتماعي للأرض كما لدى روسيا، حيث الأرض بكاملها ملك للمجتمع، وبذلك وحده يكون نصف الإصلاح منجزاً أصلاً. وليس على البلاد سوى أن تسلك الطريق الممتد أمامها. ليس عليها سوى أن تقوم بخطوة كبيرة أخرى هي تنظيم الانتفاع بالأرض في ظروف

الحرية... وستكون هذه هي الصلة التي تربط بين فكرة الأخوة وفكرة النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي القائم على مبادىء الحرية!».

ليفيس: ما أن اسمع كلمة «الحرية» تتكرر في كل سطرين أو ثلاثة حتى ينتفي لدي الشك في أن أمامنا ليبرالياً برجوازياً. وهذا لاينفي أن فريتس آندرس شخص نزيه وشريف ولكن لب القضية في أن وجود الملكية الخاصة للأرض يجعل جميع «الحريات» الأخرى قابلة للشراء. أما واقع أن اكتوبر، بإلغائه الملكية الخاصة للأرض، قد مهد التربة لإقامة الأخوة بين الشعوب، فهذه حقيقة. والحقائق عنيدة.

السجين: والعكس صحيح: أي أن إعادة الملكية الخاصة ستؤدي حتماً إلى تأجيج نار العداوة بين الشعوب واندلاع الحروب «العرقية». والأمثلة على ذلك، للأسف ليست قليلة: ناغورني كاراباخ، أبخازيا، بريدنيستروفييه .. في كل مكان تسفك الدماء ويقتل البشر بسبب الأرض.

هيجل: أخشى أن ننحرف عن موضوع حديثنا اليوم. إنني أود أن أعرف هل وجدت نصائح ابن وطني فريتس آندرس آذاناً صاغية عندكم في روسيا؟

السجين: لم تلق أي انتباه! ظلت الصحف تصيح كالسابق مروّجة لضرورة «تقسيم الأرض بالتساوي». وأصبحت أسعار المحروقات والأسمدة المعدنية والآليات اللازمة للأعمال الزراعية أعلى بمئات المرات، بينما كانت أسعار المنتجات الزراعية تتخلف عنها بقدر يبعث على اليأس. وكان «الديمقراطيون» يتربصون كبنات آوى: لم يبق إلاّ القليل على إفلاس الكولخوزات والسوفخوزات، وعندئذ سيهرب الفلاح من الاستثمارة الجماعية إلى الاستثمارة الخاصة، وهناك يسهل إمساكه والتحكم به.

أفلاطون: إن هذه السياسة، حسب شهادة رئيس الاتحاد الزراعي في البلاد فاسيلي ستارو دوبتسيف، قد أدت إلى انهيار لم يسبق له مثيل. وهاكم ما صرح به في صحيفة «زافترا» (الغد) في العدد ١ (٦) لعام ١٩٩٤: «الحصيلة ـ تقلص الحجم الإجمالي للانتاج في القطاع الزراعي بنسبة ٤٠ ـ ٤٥٪ خلال عامين، أما أعمال الإنشاء الانتاجية والفردية

في الريف فقد تقلصت خلال هذين العامين بنسبة ٨٥ ـ ٩٠٪ وأصبحت نسبة الوفيات في ريف روسيا ككل أكثر بمقدار الثلث مما هي عليه في المدينة. والأفظع من ذلك كله عدم إمكانية شراء الأسمدة المعدنية بأسعارها الجنونية، وذبح الماشية بأعداد مهولة لاتضاهيها إلاّ اعداد الذبائح في أعوام١٩٣٠ و١٩٥٩ ـ ١٩٦٤ ...»

لينيــن: هذا طبيعي، فالانزلاق إلى الملكية الخاصة للأرض يؤدي إلى إفناء القطيع الذي يملكه المجتمع.

أفلاطون: بيد أن الصحافة الرسمية في روسيا يافلاديمير إيليتش تتّهمكم أنتم بالذات، معشر البلاشفة، بالتسبب في هذه الويلات الحالية. ربما كان هذا مزعجاً لك، ولكن ينبغي التحلي بالهدوء الأولمبي والإصغاء إلى ما تكتبه صحيفة «أزفستيا» في عددها رقم ٢٠٧ الصادر ٢٩ تشرين الأول عام ١٩٩٣ في الافتتاحية المكرسة للحديث عن مرسوم رئيس الجمهورية يلتسين حول تطبيق الملكية الخاصة والحق في بيع وشراء الأراضي بحرية في روسيا. هل لديك مانع؟

لينيــن: وماذا في ذلك! لقد تعودت...

أفلاطون: أنقل حرفياً: «إنه اتفاق في التواريخ ذو دلالة رمزية. ففي الثامن والعشرين من تشرين الأول عام ١٩١٧ نشرت صحيفتنا مرسوم الأرض الشهير الذي وعد الفلاح بجعله مالكاً. وقد سرق البلاشفة، في حقيقة الأمر، فكرة ونص هذه الوثيقة من الإشتراكيين الثوريين، واستطاعوا بهذا أن يستميلو إلى حد كبير الرأي العام إلى جانبهم بعد أن أعلنوا إعطاء الفلاحين الأرض. وقد تبين إن إعلان النوايا الطيبة بعيد عن السياسة الواقعية للسلطات الجديدة وعن الممارسة القاسية. وما عاد به تنفيذ المرسوم على القرية الروسية معروف جيداً: استعباد أكثر من ذي قبل، وحرمان من جميع الحقوق».

لينيــن: الكاتب لايحدد بدقة ماالذي يعنيه بالضبط عندما يقول: «استعباد» و«حرمان من جميع الحقوق» فهل عاد إلى روسيا مع الملكية الاجتماعية للأرض حق القنانة الذي يبيح بيع الفلاحين بأسعار السوق الحرة؟

أفلاطون إن كاتب المقالة المذكورة لايتحدث عن هذا

السجين وعمّ يمكنه أن يتحدث؟ عن أطفال الفلاحين الذين حصلوا على إمكانية الدراسة في أفضل جامعات البلاد؟ أم عن أحفاد الأقنان الذين أصبحوا جنرالات ورواد فضاء وأكاديميين؟ أم عن أن الملكية الجماعية للأرض أصبحت أساساً للديمقراطية الكولخوزية؟

من المعروف للجميع أنه على الرغم من جميع الأخطاء والتجاوزات والانحرافات التي لامفر منها في كل سيرورة تاريخية فقد كان الكولخوزيون يتمتعون بحق انتخاب رئيس الكولخوز ومجلس إدارته. وكان مجلس إدارة الكولخوز ملزماً بتقديم تقرير للهيئة العامة للكولخوزيين يبين فيه مقدار المردود خلال العام، ومقدار المصروف على تحسين الأرض وعلى القطيع والآليات. ومقدار ما قبضه كل عضو، وكم ينبغي أن يضاف إلى كل روبل مقبوض انطلاقاً من حصيلة العام كله وكان هذا يجسد المساهمة الواقعية للمنتج في التوزيع العادل للمنتوج المتحقق بفضل العمل الجماعي في الأرض العامة، ربما لم يكن كل شيء مثالياً هنا أيضاً، وربما كان هناك احتيال، وربما كانت غريزة الملكية الخاصة تفرض نفسها في بعض الأماكن، ولكن على وجه العموم كان هذا النظام ككل يجسد ديمقراطية لم يشهد لها تاريخ البشرية مثيلاً: من ينتج المنتوج يشارك في توزيعه. ومما يدعو للأسف أن هذا لم يطبق في المنشآت الصناعية: فالعامل كان مبعداً عن الرقابة وعن توزيع الأموال التي نكسبها المجموعة. ومن هنا أتى عدم اكتراث الطبقة العاملة بإصلاحات غورباتشوف ــ يلتسين والرفض الشديد لها من جانب الفلاحين

ليتيس وماذا عن مرسوم يلتسين! هل يحل الكولخوزات.

السجين لم يقدم على هذا بشكل مباشر فهو يخشى البلطة الروسية. ولكنه دسّ لغماً موقوتاً تحت الاستثمارات الجماعية.

أفلاطون أولاً تنبغي الإشارة إلى أن المرسوم المذكور أسبغ صفة الشرعية في روسيا على بيع وشراء الأراضي بأسعار السوق الحرة. علماً بأن المرسوم يسمح بشراء الأرض الروسية من قبل الأجانب.

السجين: وهذا ماكانوا يسعون إليه قبل أي شيء آخر ففي الفترة الواقعة بين ٥ و١٠ كانون الأول من عام ١٩٩٣ من العصر الجديد عقد في بروكسل اجتماع لممثلي المصارف الدولية، ونظر المجتمعون في طلب السلطات الروسية منحها قروضاً بضمانة الأراضي الروسية، وأصدروا قراراً يقضي بتلبية الطلب على أن ترهن أرضنا مقابل الديون، ولكن لا بشكلها «الطبيعي» بل بشكل وثائق وأسهم تخول حاملها الحق في إدارة الأرض لمدة ٩٩ عاماً.

أفلاطون: إذا نحن حللنا دون تحيز مرسوم الرئيس «حول تنظيم العلاقات الخاصة بالأرض وتطوير الإصلاح الزراعي في روسيا» فإننا نلاحظ أن ما يحتل مركز الصدارة فيه ليس الأرض، بل الأوراق عن الأرض يقول المرسوم: «كل عضو في مجموعة المنشأة الزراعية التي تملك الأرض على أساس الملكية العامة المشتركة أو العامة الحصصية يمنح شهادة تخوله حق ملكية الأرض وفق الشكل المثبت في هذا المرسوم مع ذكر مساحة الحصة (السهم) دون الفرز على الطبيعة» كرمى لجميع الآلهة فسروا لي معنى هذا: الورقة موجودة، والأرض لا!

السجين: هنا بداية الاحتيال البيروقراطي الذي ينقلب فيما بعد إلى سرقة للأراضي العامة. فالكولخوزي لم يكن يسأل نفسه في السابق وهو يعمل في الحقل الجماعي: أيَ أرض هو يحرث، أما الآن فإنهم يفرضون عليه هذه الورقة التي تسمى «شهادة حق الملكية» والتي عليها أن تدفعه طوال الوقت إلى التفكير بهذا الأمر، ويرى أنصار الملكية الخاصة للأرض أن الفلاح في نهاية المطاف سيسأل «وأين أرضي أنا؟».

أفلاطون: ولكن المادة نفسها من المرسوم تنص حرفياً على «أن لمالكي حصص (أسهم) الأراضي الحق في أن يفرزوا، بدون موافقة الملاك الآخرين قطعة الأرض في الطبيعة لإقامة استثمارة فلاحية (مزارعية) أو لرهنها أو تأجيرها».

السجين: هذه مثالية محضة وجهل مطبق! كيف يمكن فرز جزء من أرض عامة؟ هذا يماثل تماماً محاولة قسمة جسم العجل الكامل قسمة عادلة بين كثرة من الناس. أحدهم يكون من نصيبه قطعة أرض خصبة

في سرير النهر الفيضاني، وآخر لاينوبه سوى أرض سبخة على هضبة. أحدهم تقع حصته قرب داره، وآخر لايصل إلى قطعة أرضه إلا بعد أن يقطع مسافات طويلة دون كبير فائدة. إذ أنه يحرق في أثناء ذلك من الوقود أكثر مما يحرقه منه عندجمع المحصول. وتصوروا ماذا سيحدث إذا تبين مع الزمن إن إحدى قطع الأرض التي كانت سابقاً عامة تحتوي على ثروات باطنية... هل سيفرح الجيران بمثل هذه «العدالة»؟. لا ... بالطبع! إن تقسيم الأرض سيؤدي حتماً إلى انقسام المجتمع، وتفاقم التناقضات بين مختلف مجموعات السكان الريفيين، وسيفضي حتماً إلى شفير حرب أهلية جديدة والحرب ستكنس «الاصلاحيين». إن يلتسين يدرك هذا بوضوح، كما أنه يدرك كذلك أن المجموعات الفلاحية لن ترغب في تفكيك نفسها وتقسيم الأرض، لهذا تراه يتخبط كالأفعى تحت المذراة: فمرة يقول: الأرض في الطبيعة، ومرة: السهم على الورق، وتارة يقول: يمكنهم الفرز دون موافقة المساهمين الآخرين، وتارة: لايمكنهم. تابع القراءة.

أفلاطون: تُراعى عند فرز حصة (سهم) الأرض في الطبيعة متطلبات التنظيم العقلاني للمنطقة، وتجنّب بعثرة قطع الأرض المستثمرة... وفي حالة رفض المجموعة لفرز السهم العيني في الطبيعة أو استحالة تأمين الحق في ملكية السهم العيني في الطبيعة تلتزم المنشآت بدفع تعويض مالي عن السهم العيني»

السجين: قالوا «أ» ولايريدون أن يقولوا «ب». إن واضعي المرسوم يدركون بوضوح أن الأرض بحد ذاتها لاتعطي منتوجاً. ولابد من تأمين آليات، وصوامع حبوب، وورشات إصلاح وما شابه ذلك. وينتج عن هذا أن تقسيم الأرض سيستدعي حتماً تقسيم الممتلكات المتبقية. والمجموعة لن توافق على هذا لسبب بسيط هو أن الجرار الواحد لايمكن تجزئته إلى جرارات كثيرة. وهنا أيضاً يعمل المرسوم على خنق المجموعة بأنانية الملكية الخاصة: إذا لم يعطوك حصتك في الطبيعة اطلبها نقداً. إذا وجدت الباب مغلقاً ادخل من النافذة. إن مرسوم يلتسين، إذ يهدف إلى تخريب الاستثمارات الجماعية وانتزاع الأرض من الفلاحين

بالخداع، يخلق الظروف المثالية للمحتالين المتاجرين بالأراضي فطبقاً للمرسوم يحق لمالكي «الأسهم»، أي الذين يملكون أوراقاً (شهادات تخولهم حق امتلاك الأرض) حتى دون موافقة المالكين الآخرين أن يعمدوا إلى بيع حصصهم (أسهمهم) من الأرض إلى أعضاء آخرين في المجموعة، وكذلك إلى سواهم من المواطنين والأشخاص الاعتباريين لانتاج منتجات زراعية». وهذا فعلاً لغم موقوت: فالفلاح اليوم لن يخرج من الاستثمارة الجماعية لأنها تؤمن له حياة مستقرة، ولكن غداً عندما يحال إلى المعاش سيبيع حصته، فهو في شيخوخته يرغب في أن يقدم هدية أياً كانت لأحفاده الذين يعيشون منذ مدة طويلة في المدينة البعيدة وليس لهم أية علاقة بالأرض

هيجل: ولكن المرسوم ينص على أن الأرض يسمح ببيعها لانتاج المنتجات الزراعية.

أفلاطون: يبيعونها على العموم ليقبضوا نقوداً. أما مصير البضاعة فإنه لايهم البائع في شيء، فليحمل الشاري همّ هذا الأمر. والمرسوم يتحدث عن هذا مباشرة منذ البداية ويقول حرفياً:

«يحق للمواطنين والأشخاص الاعتباريين الذين يملكون قطعاً من الأرض أن يبيعوا قطعة الأرض أو جزءاً منها أو يورثوها أو يهدوها أو يؤجروها أو يبادلوا بها أو يقدموها كاشتراك في موجودات (رؤوس أموال) تأسيسية لشركات مساهمة أو رفاقيات أو تعاونيات بما في ذلك الاستثمارات الأجنبية».

لينين: من الواضح أن بيت القصيد هنا ليس انتاج المنتجات بل مصالح المستثمرين الأجانب. كيف استقبلت الأوساط الاجتماعية الروسية هذا المرسوم؟

أفلاطون: في يوم صدور المرسوم كانت الصحف المعارضة محظورة، أما ما كتبته الصحف الرسمية فيمكننا الحكم عليه من مقالة شخص يدعى يوري تشيرنيتشينكو نشرتها صحيفة «ترود» في عددها الصادر في التاسع والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٩٣ من العصر الجديد.

السجين: الآن سيبدأ بتوجيه اللعنات إلى الكولخوزات.

أفلاطون: لنصغِ: «كيف ستقرأ صديقتي كاتكا الرسوم وكيف ستطبقه على حياتها البائسة في قرية شيشكوفيرديه التي أقفرت من الناس؟ عمرها الآن يربو على الستين، يتيمة وغريبة الأطوار. ومع ذلك فإن الجميع يسمونها حتى في وجهها كاتكا(١)! ومثلها ملايين — وحيدات وفقيرات ومنهكات بالنظام الكولخوزي ومرميات إلى ما خلف خط البقاء! ليس يلتسين، وليست روسيا ذات العلم الثلاثي الألوان همسا من دمّر ١٥٠ ألف قرية، وألقى إلى الغابات بملايين الهكتارات من أراضي الحقول التي كانت تزرع سابقاً، وأنفق عشرات المليارات من الدولارات لشراء الحبوب من الخارج. إن الذي فعل ذلك هو النظام الذي اخترعه الرفيق ستالين حسب المخططات التي رسمها الرفيق لينين: نظام الكولخوزات والسوفخوزات، النظام الذي يجعل الأرض ملكاً لمالك واحد وحيد اسمه الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي، واسمه المستعار السوفييتات، ولقبه كبار المسؤولين ولكن الجهة الفعلية تظل هي نفسها. لقد تحررت كاتكا مع الأرض. وأصبح يحق لها أن تتسلم سهمها الذي تبلغ مساحته ١١,٧ هكتار، وتسلمه إلى أيد قوية وماهرة (أهو ابنها أم مزارع من الجمعية القريبة أم رفاقية معمل السكر الجديد ـ لاأحد يعرف حتى الآن). ولكن الحقيقة الثابتة هي أن كاتكا (وأمثالها كثيرون) لم تعد منذ الآن تعيش كل ساعة من ساعات عمرها تحت رحمة أو نقمة رئيس الكولخوز. انتهى الاقتباس

السجين: شاطر، هذا الوغد! افترى الكذب على الجميع، ولطخ الجميع: ستالين ولينين ورئيس الكولخوز.

لينين: ولكن أريد أن أسمع توضيحات حول «الـ١٥٠ ألف قرية التي دمرت» و«ملايين الهكتارات التي كانت حقولاً تزرع وألقى بها إلى الغابات» حسب مخططاتي

السجين: أولاً — فيما يخص تدمير ١٥٠ ألف قرية فإن ماقاله تشيرنيتشينكو كذب محض. ولكن القرى التي زعموا أنها «بدون

---

١ ـ تصغير اسم «يكاتيرينا»، ينادون به البنيّات والصبايا.

مستقبل» قد أقفرت فعلاً، إنما ليس حسب مخططات لينين وستالين، بل حسب مخططات مستشاري نيكيتا خروشوف ـــ الأكاديميين زاسلافسكايا وأبالكين ـ اللذين يقاتلان الآن دفاعاً عن الملكية الخاصة. أما فيما يخص الحقول المزروعة فإن تشيرنيتشينكو قد فقد هنا القدرة على التفكير السليم ففي عهد خروشوف نفسه استصلح الشعب ملايين الهكتارات من الأراضي البكر وحوّلها إلى حقول مزروعة في كازخستان. أما في جنوبي روسيا فقد فلحوا كل الأراضي حتى المراعي العامة التي يرعى فيها الناس مواشيهم الخاصة. وتشيرنيتشينكو يعرف هذا بالطبع، ولكنه مطالب بشيء واحد فقط: هو أن يلطخ النظام الكولخوزي ويفتري عليه الكذب.

لينيس: ولقاء هذا بالذات يدفعون له طبعاً.

السجين: إن أخسّ أسلوب يستخدمه تشيرنيتشينكو هو ذرف الدموع المصطنعة على «صديقته كاتكا من قرية شيشكو فيرديه» إن الكذاب لايذكر كنية المرأة كما يقتضي العرف. وفيما كنت أقرأ كل هذا هنا في ليفورتوفو كنت أتذكر ابناء منطقتي ـــ كولخوزيي قرية بيلاياغلينا في إقليم كراسنودار. لقد اكتسبت معارفي الأولى عن الاقتصاد الاجتماعي عندما كان عمري عشر سنوات. فقد كنت آنذاك أذهب مع صبيان القرية في أثناء العطلة الصيفية للعمل في الكولخوز: كنا نرافق السيارات التي تحمل الحبوب إلى الصومعة، ونقلب حزم القمح لتجف، ونحرق الجذامة التي تبقى من الزرع بعد الحصاد ـــ وما أكثر الأعمال التي تحتاج إلى من يقوم بها في موسم الحصاد من رجال ونساء وأطفال. وكنا آنذاك نفخر باستقلاليتنا، ونعتز بأننا كسبنا لقاء عملنا كمية من الحبوب وبعض النقود وقد تعرفت على حياة الكولخوز لأول مرة في سنوات مابعد الحرب. فقد انتقلت أمي من الكولخوز لتعمل طباخة في دار للأطفال يعيش فيها نحو ٢٥٠ طفلاً يتمتهم الحرب وكانوا أكبر مني بقليل. وفي كل ربيع، عندما كانت تنضج أولى ثمار كوبان وهي الكرز الذي تهفو إليه النفس بعد الشتاء الطويل، كان كولخوز «الطريق إلى الشيوعية» يبادر إلى دعوة جميع من في الدار إلى بستانه ليأكلوا من

تماره. وكانت مديرة دار الأطفال فارفارا بيتروفنا تقول لجميع العاملين. «كل من لديه أطفال صغار ليحضرهم معه: فغداً سنذهب إلى البستان، وأي شيطان يمكنه أن يميز بين أطفال الدار والأطفال الغرباء! كلهم أطفالنا». وينبغي الاعتراف بأن أطفال الدار كانوا يأكلون أفضل مما يأكل الأطفال الذين يعيشون مع أسرهم، وكان الكولخوز هو الذي يساعد على تحقيق هذا. ياإلهي! أي فرح كان يملأ البستان في ذاك اليوم: تأكل بقدر ما تستطيع ويأخذ كل واحد معه ملء دلو صغير من الثمار الكبيرة الريانة.

إنني أعرف أن أمثال تشيرنيتشينكو هذا من الذين أعماهم كره كل شيء اجتماعي لايؤمنون بهذه «الحكايات الطفولية»، لذا سأنتقل إلى عنوان آخر هو: أقليم كراسنودار، قرية بيلايا غلينا، شارع بيرفومايسكايا، ١٨٥ كوتفيتسكا ماريا سيميونوفنا. في هذا الحوش كان يعيش سميي فيكتور، ابن ماريا أو مانيا، كما كانوا يدعونها تدليلاً في كولخوز «روسيا». وكان من حسن حظي أن عاد أبي من الحرب مشوهاً. أما سميي فقد هجر أبوه الأسرة. وكانت أسرتنا تعيش عيشة ضنك، ولكن معيشتهم كانت أسوأ: منزل قديم سقفه من القصب، وأرضه ترابية، تعيش فيه الجدة بوليا، أما ماريا سيميونوفنا فكانت تغيب طوال أسابيع عن البيت، مشغولة بالعمل، في مدجنة الكولخوز، حيث كانوا يعملون ليلاً ونهاراً دون كلل ليطعموا البلاد. وكانت الجدة بوليا من أوائل الكولخوزيات في المنطقة. وكانت تتقاضى شهرياً وهي في التسعين من عمرها (كان هذا في أواسط الخمسينيات) معاشاً تقاعديا من الكولخوز هو عبارة عن بود[1] من الطحين وثلاثة ليترات من زيت بذور عباد الشمس قليل. نعم قليل إذا نظرنا إليه من قمة برج زمننا اليوم، أما في تلك الأيام فقد كانت الجدة بوليا تخبيء الطحين والزيت في غرفة المؤونة وهي مسرورة: الكولخوز لاينساني! لقد استحقيت هذا بعملي.. فليتقيح أعداء النظام الكولخوزي بحقدهم، وليموتوا بغيظهم. أما الجدة

---

١ ـ مقياس وزن روسي قديم يعادل ١٦,٣٨ كغ.

بوليا فقد كانت إنسانةً حـرةً. وكـانت تفخـر بـأنهم لم ينسـوها وأنهـم يكافئونها على عملها السابق، الأمر «الذي لم يكن المرء يحلم به في عهد الملاك»! وقد امتد العمر بـالجدة بوليـا حتـى الشيوعية: فقـد اتخـذت إدارة الكولخوز قراراً ببناء بيت جديد مـن الآجـر لأسـرة كوتفيتسـكايا. جلبوا الآجر من معمل الآجر الصغير الملحق بالكولخوز وفرزوا فرقـة مـن البنائين لتشييد البيت، ومـع أن ماريـا سـيميونوفنا لم تكـن تدفـع لهـم أجورهم، إلاّ أنها كانت، بحكم العادات المتبعـة في القريـة، تقـدم لهـم الفودكا بعد كل يوم عمـل. وقـد تولّـى طـلاء السـقف والجـدران سـكان الشارع جميعاً. وهنـا لايمكنـك أن تميز مـن هـو الكولخـوزي ومـن هـو الانسان الذي يشارك في العمل لمجرد أنـه إنسـان طيـب نحـن جميعـاً نبني مسكناً! اجبل الطين بقدمين حافيتين، انقـل السطول الثقيلـة إلى المرفاع، تناول السطل المملوء طيناً من فتحة العلية، وليقشعر بدنك عندما تلمس بكتفـك عرضـاً نهـد فتـاة كـاعب. وهـا قـد تم صـب السـطح وتسويته. ويمكن أخذ قسـط مـن الراحـة، تصيـح ماريـا سـيمونوفنا: «فيتيشكا(١)، لاتنزل! بما أنك عملت كرجل، يجـب أن تشـرب قدحـاً مع الجميع!» وتصعـد مانيـا إلى الأعلـى وهـي تحمـل صينيـة اصطفـت عليها كؤوس مضلعة، وتدنو من النسـاء ومن جميع الذيـن كـانوا يعملـون هناك وتقدم لكل منهم كأساً.

- «أوي، مانيا! من أين أتيت بهذه الفودكا!»

فتسـأل ماريا سيميونوفنا والدهشة تطل من عينيها:

- «مالها؟»

- «مرّة جداً! لاتستطيعين وضعها في فمك! كيـف يمكـن شـرب مثـل هـذه الفودكا!» وتُفرغ الكؤوس بلحظة واحدة. وينزل العاملون في الأعلى ويتعـاون الجميـع في إكمـال طـلاء الدهـليز وتـرى ماريـا سـيميونوفنا تـروح وتجـيء منهمكة في إعداد مائدة غـداء طويلـة تحـت أشـجار السنط. لقد قـدّم لهـا الكولخوز اللحم وانتشرت في الجو رائحة حساء الشوندر (البورش) الكوباني

---

١ - تصغير اسم فيكتور

الشهير. أكملوا الطلاء وغسلو أيديهم وأقدامهم من آثار الطين الجاف، وتزينت النساء، وهاهي ماريا سيميونوفنا تجلس الجميع إلى مائدة طويلة طويلة صُفّت عليها أطباق الحساء والدجاج المقلي والخيار المخلل وزجاجات الفودكا العرقانة التي أخرجت للتو من البئر الباردة. . ويشربون الكأس الأولى نخب المنزل الجديد وسعادة ساكنيه. وتشكر ربة المنزل الجميع وتبكي من الفرح

وبعد الكأس الثانية، ودون اتفاق مسبق، ترتفع الأصوات بالغناء «مالك واقفاً تتأرجح. .» العمل أنجز ـ المنزل اكتمل.

كلما أتيت القرية لزيارة قبور الأهل أعرج على ماريا سيميونوفنا ـ «فيتيشكا! أوه، متى وصلت؟ وكيف الأولاد؟».

ـ «كل شيء لدي على مايرام. كيف المنزل؟ »

ـ «عامر. ماذا يمكن أن يحدث له مددوا إليه الغاز، وركبوا الهاتف أما أنا ـ ولاتتمالك ماريا سيميونوفنا نفسها عن التباهي ـ فقد تسلمت هذا الصيف طنّين من حبوب الكولخوز. رئيس الكولخوز لاينسى العجائز. فليعطه الرب العافية. الآن، بعد أن تسلمت هذه الحبوب أنا والملك سيّان ..»

ـ ماالذي يحتاج إليه الإنسان لكي يكون سعيداً؟

ربما ليس أكثر من القدرة على الفرح بسعادة الآخرين..

في الساعة ٦ بتوقيت موسكو من اليوم ٢١ كانون الثاني عام ١٩٤٤ من العصر الجديد تقطع فقعة الطاقة التي تفتح في الباب الفولاذي للزنزانة رقم ٣٢ في سجن ليفورتوفو حديث الفلاسفة ويعلو صوت يقول: «نهوض!».

الفصل العاشر

«من أين جئنا؟

إلى أين نمضي؟

ماهو معنى حياتنا؟

أنه عصيٌ على إدراكنا؟»

ـ عمر الخيام ـ

الإشراق

الأسئلة التي وجهها لنفسه منذ تسعة قرون واحد من أعظم شعراء البشرية تعذب الناس منذ آلاف السنين وإذا كان تاريخ اليونان القديمة هو طفولة تاريخ البشرية المُدرَك، فلابد من أن تتولانا الدهشة من كيفية بلوغ القدماء بعفوية الأطفال حقائق عظيمة توصلوا إليها بقوة عقولهم، ومن كيفية وقوعهم بسذاجة الأطفال في أخطاء كانت تحرفهم بعيداً عن الحقيقة. منذ ألفين وخمسمئة سنة لم يكن لدى الناس في أثينا فكرة عن المخابر العلمية بأجهزتها البالغة التعقيد والعالية التطور والقادرة على تسجيل ظواهر ليست متاحة لحواس الإنسان. كانت الأداة العلمية الوحيدة آنذاك هي الفكر البشري، ومن هنا جاء اعتبار الفكر، الوعي، جوهراً مطلقاً فقبل سقراط وعبارته الشهيرة «اعرف نفسك» كان أناكساغوراس قد اعتبر الفكر بما هو كذلك أساس كل شيء. وهو يرى أن الفكر يبدو كمفهوم قادر على كل شيء، وكسلطة سلبية تهيمن على كل ماهو محدد وموجود. وسيصبح هذا المبدأ فيما بعد حجر الزاوية في المثالية التالية برمتها: «كل ما يحيط بنا وكل ملموس لايوجد إلا في الوعي وبفضل الاحساسات». إن مثل هذه المقابلة الواضحة الصارخة بين الفكر والمادة، أو الواقع الذي يحيط بالإنسان قد لاقت احتجاجاً عفوياً من قبل الوعي: فإذا كان الشيء المحدد موجوداً بالنسبة لآلاف الناس، وهم يستطيعون وصف هذا الشيء حتى إذا كانوا بعيدين عنه، فالمجنون فقط هو من يزعم أن هذا الشيء الملموس غير موجود.

ومع أن افلاطون، الذي هو حسب تقويم هيجل «أحد معلمي الانسانية»، كان يفترض أن «المادة تطيع النفس» إلا أنه قد خطا أكثر الخطوات المادية تماسكاً وانسجاماً في فهم العلاقة المتبادلة بين الفكر

والمادة. إنه يقول: «الإله وَجَد المرئي، ولم يكن هذا المرئي ساكناً بل كان يتحرك تحركاً تصادفياً وفوضوياً. وقد جعل الإله الفوضى نظاماً لأنه كان يرى أن النظام أكثر تفوقاً من الفوضى». (كيف يمكننا ألا نتذكر في هذا الصدد أكاديميّنا الفيزيائي فيليخوف الذي كان يبرهن لمشاهدي التلفزيون السوفييت أن الشواش والفوضى أكثر عقلانية من النظام والتخطيط، وذلك بغية تبرير إعادة البناء (البيريسترويكا) واقتصاد السوق). إن هيجل، المثالي المتشدد، لايسمح لأحد أن يخدعه بكلمة «إله»، فهو يشير على الفور إلى أن أفلاطون يضع «المرئي» و«المتحرك» (المادة) قبل الإله، وبهذا فهو ينتزع من الإله بعفوية الأطفال دور مبدع الكون. ويعمد هيجل في الوقت نفسه إلى تمزيق النص الأصلي الذي كتبه أفلاطون ليمرر وجهة نظره فيقول: «هذا تعبير خرافي دفعت إلى ظهوره الحاجة إلى البدء بشيء ما مباشر، إلا أنه غير جائز على الإطلاق بالشكل الذي يبدو فيه هنا» ولكن إذا كان الفكر حراً فعلاً ولايعترف بأي قسر تفرضه عليه المحرمات أيّاً كانت، فإن علينا، بل نحن ملزمون بأن نشيد بالافتراض العبقري الذي أتى به أفلاطون، وهو: «أن الفوضى تسعى إلى النظام. وإذا ما استخدمنا اللغة المعاصرة يصبح بإمكاننا أن نعبر عن هذه الفكرة نفسها بالكلمات الآتية: المادة تسعى لمعرفة نفسها وتنظيم حركتها.

إن الوعي الطفولي الذي كان سائداً في اليونان القديمة والذي لايزال هكذا في كثير من نواحيه اليوم أيضاً لايعترف رأساً بأولية الملموس، غير الحي. فالملموس الفظ، الجزئي «العادي» كما كان هيجل يصفه: يجرح الوعي، ويجعله متعلقاً بالوسط المحيط. ويشبه الوعي هنا الطفل الحديث الولادة الذي ينحّي ثدي والدته المادة (شبه مدهش في المبنى والمعنى: الوالدة ــ المادة)[1] ويظل يصرخ بصوت يصم الآذان طالباً الطعام. ويقول أرسطو بهذا الصدد: «الروح ينحّي المادة عنه ويصون نفسه في الصراع معها». ويحاول أفلاطون إزالة التناقض التناحري بين الوعي والمادة، ويكتب بهذا الصدد: «بما أن الإله يعي أن مالا يدرك في المرئي لايمكنه أن يكون أروع من

---

١ ـ في اللغة الروسية: الأم يقال لها «مات» والمادة «ماتيريا».

المعقول. وأنه لاشيء يمكن أن يتصل بالعقل دون النفس. ـ فقد أحل الإله العقل في النفس. وأحل النفس في الجسد وربط بينها جميعاً بحيث أصبح الكون حيواناً حياً عاقلاً». وقد أورد أفلاطون في حكمه هذا ثلاثة مفاهيم. ١ـ مالا يدرك ٢ ـ النفس. ٣ ـ العقل الكوني وكل مفهوم من هذه المفاهيم الثلاثة مبرر ولننظر في مفهوم استحالة الإدراك. ليس سوى المغرقين في الظلامية بوسعهم اليوم أن ينفوا قدرة الوعي الإنساني على معرفة الوسط المحيط. وتحويل هذه المعرفة إلى أشياء نافعة للإنسان. ونتأكد قدرة الوعي على المعرفة بممارستنا الفعلية اليومية، ولكن معرفة الملموس معرفة كاملة تامة أمر غير ممكن. وذلك لأن الملموس جزء من العام ـ المادة. وبحكم لانهائية المادة سواء «في الأعلى» أو «في الأسفل» فإن الوعي لن يحيط أبداً بالحقيقة المطلقة. بالذي لا يدرك، أو على الأصح أن الذي لم يدرك في اللحظة الحاضرة سيظل دائماً هدفاً للمعرفة على طريق المعرفة اللانهائية. ولنتذكر قول سقراط: «أنا أعرف أنني لا أعرف شيئاً. ولكن بمعرفتي لنفسي أتجاوز الذي لم أعرفه».

أما فيما يخص النفس فإن هذا المفهوم كان مستخدماً قبل أفلاطون. وفي يومنا هذا. وحتى هنا في زنزانة السجن، يمكن أن يثور جدل حول وجود النفس لدى الأنسان. النفس كقدرة للجسد على التفكير ـ نعم، طبعاً هي موجودة. إن كل سحر هذا المفهوم وكل سريته يفسران بأن الفكرة، خلافاً للملموس وللمادي لا تحس بأعضاء الحس لدى الانسان. الفكرة هي فعلاً ظاهرة في ذاتها ومن أجل ذاتها». الفكر والتفكير والوعي ظواهر موجودة، ولكن بسبب غياب الشيء المشخص الملموس نربط الفكر اصطلاحيا بمفهوم «النفس». وإذا أردنا أن نكون منسجمين مع أنفسنا منطقياً حتى النهاية علينا أن نشير إلى أنه بعد القفزة الديالكتيكية من المادة إلى الروح، إلى الفكر، إلى النفس، أصبحت هذه الأخيرة تسعى لحيازة شكل محسوس مشخص: في الكلمة ـ الملفوظة والمكتوبة ـ وفي الموسيقا، والغناء، والرقص والرسم الخ... ومن الذي لم يسمع بتعبير «سكب نفسه»؟[1] إن هذا التعبير

---

١ ـ تعبير شائع باللغة الروسية.

يتضمن سعي النفس إلى التجسد مادياً. العقلي لا يوجد إلاّ كلغة. والكلمة ــ هي الشكل الأكثر انتشاراً والأكثر دواماً لتجسّد النفس مادياً. إن الكلمة المرئية والمسموعة المتجمعة في الكتب والقصص الشفوية والأشرطة والأسطوانات تشكل عقل الانسانية الذي هو جزء من العقل الكوني.

إن جميع الخلافات الدائرة حول المسألة الأساسية في الفلسفة عن أسبقية الوجود والوعي، سواء في اليونان القديمة أو في عالم اليوم إنما تنجم عن مقابلة الفكري بالمحسوس. ويؤكد هيجل دائماً أن الفكري هو أساس الفلسفة «التأملية» البحتة. ولكن أرسطو كان قد أشار في حينه بوضوح كاف إلى ديالكتيكية العلاقة بين الاحساس والمعرفة: «....الاحساس مثل المعرفة. ولكن الفارق بينهما هو أن ما يستدعي الإحساس يوجد خارجنا. والسبب في ذلك يعود إلى أن النشاط، الاحساس، موجه نحو المفرد، في حين أن المعرفة، بالعكس، موجهة نحو العام، وهذا الأخير يوجد بمعنى ما في النفس ذاتها، بصفته جوهراً لها. ولذا فإن أي إنسان بوسعه أن يفكر إذا أراد. أما الاحساس فإنه لا يتوقف عليه، وهو يتطلب بالضرورة وجود محسوس».

ولنشر هنا إلى أنه على الرغم من أن كل انسان، كما يبدو للوهلة الأولى، بوسعه أن يفكر إذا ما أراد ذلك، لكن التفكير في الحقيقة يحتاج إلى مفاهيم من المفروض أن يكون الانسان قد حصل عليه قبلاً بفضل الاحساسات. أي أن التفكير بدون إحساس، التفكير بدون مادة غير ممكن. ويفترض هيجل أنه يحط من قدر الاحساس عندما يشير إلى حقيقة أن الحيوانات أيضاً تحس، بينما التفكير مقصور على الانسان وحده. ولكن الواقع هو أن القرابة بين الإحساس والتفكير أقدم وأعمق مما يتهيأ لنا في الظاهر. لا أحد يشك في أن الحيوانات تحس بالضوء والصوت والجوع. ولكن تعالوا نسأل أنفسنا: وماذا عن عالم النبات ــ الأشجار والنجيليات والأعشاب ــ هل يحس؟ دون شك! فإذا طال مقام برد الشتاء تجد الغابة تقف عريانة متجهمة. وإذا أدفأتها شمس الربيع في وقت مبكر تبدأ مليارات الجذوع تمص النسغ بشراهة من الأرض، وتدفع به إلى الذرى لتتفجر أمامك تيجاناً خضراء. إن نتيجة الإحساس في الغابة أو الحقل الربيعيين تراها بالعين

المجردة. وتعالوا نأخذ أشياء جدّ «بدائية». فعندما أسكب الشاي الحار في قصعة السجن لأغسلها (إذ لايوجد في الزنزانة ماء ساخن) يصبح قعر القصعة حاراً على الفور. معنى هذا أن المعدن أحس بحرارة السائل. ولو كان في متناول اليد أجهزة مناسبة لأمكن تأكيد هذا الاحساس بحقيقة التمدد الفيزيائي للقصعة وهكذا هو الأمر في كل الأشياء. ألا يحس القمر بحرارة ضوء الشمس وببرد الفضاء الخارجي من الجهة الأخرى؟ إن الإحساس خاصية دائمة في المادة. والتفكير هو الشكل الأعلى لتطور الاحساسات. وإذا كنّا نكرر قول الإغريق القدماء «أنا أفكر ـ إذن أنا موجود» دون أن نتعمق في التفكير فيه، فإن بوسعنا أن نؤكد بالدرجة نفسها من الثقة بصحة ما نقول «أنا أحس ـ إذن أنا موجود»، بيد أن ما تدل عليه هذه العبارة الأخيرة هو أننا بدأنا نفكر بفضل الاحساسات وعند النظر عن كثب في قول أرسطو بأن «الاحساس موجه نحو المفرد، والمعرفة ـ نحو العام» يدهشنا هذا القول بقوة الديالكتيك التي ينطوي عليها حقاً أن العام، اللانهائي، يمثل أمامنا، بفضل الإحساسات، في الملموس، المفرد. إن التفكير فردي، مفرد، ولكن يسعى لمعرفة العام. وهنا عقب آخيل المعرفة(١). فبحكم لانهائية العام ليس بوسع الوعي أن يعرفه معرفة نهائية في أي وقت من الأوقات. والعجز أمام العام يجبر الوعي على الشك بالجزئي الماثل في الإحساسات. ومن جهة أخرى فإن ضرورة «تعريض كل شيء للشك» تساعد في فحص المعارف التي اكتسبت سابقاً، وتساعد العقل الإجمالي على السعي نحو الكمال وتجنبه الجمود.

وعلى هذا فإن الإحساس والتفكير يتداخلان باستمرار ولايوجدان مستقلين أحدهما عن الآخر. أضف إلى ذلك أن الطبيعة التي تهتم بصون العاقل واستمراريته، تهب الانسان المفكر إحساسات قوية مرهفة إلى درجة مذهلة غير عادية. وأولها الحب، فليس ثمة شيء، وليس ثمة احساس

---

١ ـ عقب آخيل: نقطة الضعف، المقتل. وآخيل أعظم أبطال الأغريق في ملحمة هوميروس الإلياذة. بعد ولادته أمسكته أمه من عقبه وغمسته في نهر ستيكس فأصبح ممتنعاً على الموت إلاّ إذا أصيب في عقبه التي لم تبتل بماء النهر.

وليس ثمة متعة تقارن بسعادة الحب المتبادل بين الرجل والمرأة وكل شذوذ عن الطبيعة السوية ـ كحب الجنس المماثل، والامتناع عن الزواج ما هو إلاّ بديل زائف للتفكير السليم، ومحاولة لخداع الطبيعة تنتهي دائماً إلى الفشل. إن الطبيعة تهبنا الحب لكي نحافظ على أسمى إنجازاتها وهو العقل ونضمن له الاستمرار في أولادنا ولأقل، حتى وإن بدا قولي هذا غيبياً، إن الحب والنجوم صنوان لايفترقان وبعد ذلك يتملكنا شعور لايقل قوة نحو أطفالنا. وليس من الصحيح أن نقول: إن هذا الشعب يحب الأطفال جداً، وذاك لايحبهم بمثل هذه القوة. فكل أم تحب ابنها. الوحوش أيضاً تحب أبناءها، كما لاحظ غوغول. بيد أن هذا لايناقض، بل بالأحرى هو يؤكد الفكرة القائلة إن الطبيعة تهتم بالحفاظ على العقل، وتسبغ عليه أسمى الأحاسيس. إن النوع الذي لايعرف حب الأبناء محكوم عليه بالانقراض وأخيراً ثمة شعور لايقل قوة، وربما كان من خواص الإنسان وحده، وهو شعور الرفاقية، القرابة الفكرية. إنها الدرجة التي تميز الوعي عن كل ما سبقه. لذا فكما أن هبة الحب الإلهية قد أسبغت علينا سلفاً لاستمرار جنس العاقلين. فإن الاخوة الفكرية تحتقر الموت وهي مستعدة لمفارقة الحياة في سبيل الحفاظ على العاقل بشكله الخالص.

نظل نذكر الشهداء الذين سقطوا في حقل كوليكوف[1]، وعند جدران ستالينغراد وعند بناء مجلس السوفييتات في موسكو... لقد استشهدوا أبطالاً، وسيظلون معنا كالنجوم.

---

١ ـ المقصود: المعركة التي جرت عام ١٣٨٠ في موقع يسمى حقل كوليكوف وانتصرت فيها الجيوش الروسية والاكرانية والبيلوروسية بقيادة دميتري دونسكوي أمير موسكو (١٣٥٩)على جحافل التتار والمغول بقيادة ماماي.

الفصل الحادي عشر

الدولة

عليكَ دائماً أن تكون مستعداً لأمرين،
أولهما: ألاَّ تفعل إلا ما يقع ضمن عهدتك،
حسبما يقضي عقل السلطان والمشرع لخير الناس،
والثاني: أن تتغير إذا ظهر شخص ما
من أجل إصلاحك أو تغيير قناعتك برأي ما،
على أن يصدر تغيير القناعة،
عن حقيقة أكيدة.
سواء أكانت هي العدالة أم المنفعة العامة
أم أي شيء مشابه، لا لأن لذة ما
قد أغرتك، أو مجداً ما قد أغواك»

ـ مارك أفريليوس الأنطونيني ـ

[تأملات]

٢٥ كانون الثاني عام ١٩٩٤ من العصر الجديد. الساعة ٢٢ بتوقيت موسكو. أعلن المبيت في سجن ليفورتوفو. أما في الزنزانة رقم ٣٢ فإن الفلاسفة يتبادلون الآراء حول موضوع الدولة والعدالة.

السجين: إن أولى علامات الدولة هي حدود الأرض التي تطبق فيها قوانين معينة، ويقوم فيها نمط معين لحياة الشعب. ولكن ما هي العدالة؟ في تشرين الأول من العام الماضي حاولت أنا ومواطنون آخرون أن نحمي القانون. ولكن الدولة وعلى رأسها رئيس الجمهورية قاومت القانون بقوة فظة: فأطلقت النار على البعض، وزجت بالآخرين في السجن. وأنا الآن موجود خلف القضبان وأعتبر أن هذا ظلم صارخ ولكن يوجد في الدولة الروسية عدد غير قليل من الناس يعتبرون هذا الوضع عادلاً.

لينين: مادامت الدولة والمجتمع يحتفظان بالتقسيم إلى مجموعات وفئات وطبقات معينة يظل الحديث عن العدالة بشكلها المحض مجرد حديث لاجدوى منه. وكل شيء يتوقف على الجهة التي تمسك بزمام السلطة

سقراط: بغض النظر عن هذا على الإنسان أن يجد مقياس العدالة في نفسه.

السجين: وذلك لكي تجد نفسك أنت وهذا المقياس خلف القضبان. يبدو لي أن العدالة قد خرقت منذ أن أثارت الصحافة «الديمقراطية» ضجة حول قضية مصطنعة هي: هل الدولة من أجل الإنسان أم الإنسان من أجل الدولة. ووسط الضجيج أسقطوا دولة الاتحاد السوفييتي ثم التفتوا إلى تعذيب الانسان. وكل هذا كان يبرّر بـ«الحاجة الطبيعية».

هيجل: هذا ليس بجديد ففي عصري أنا كان العادل في ذاته يصوّر عادة بشكل حق طبيعي، حق في الحالة الطبيعية، لكن هذه الحالة

الطبيعية هي هراء أخلاقي بشكل مباشر. لقد اعتدنا أن ننطلق من وهم ما يسمى بالحالة الطبيعية التي هي، بالطبع، ليست حالة الروح والإرادة الحرة، بل حالة الحيوانات أحدها تجاه الآخر. ولذلك لاحظ هوبس عن حق أن الحالة الطبيعية الحقيقية هي حرب الجميع ضد الجميع. وعلى هذا فإن الحق الطبيعي هو حق الشخص الفرد ومن أجل الشخص الفرد، أما الدولة فتدخل هنا كوسيلة للشخص الفرد ليس إلاّ

ليفيسون: ها أنت يابروفيسور تبرر الملكية الخاصة وتعتبر أنه بدونها ينعدم الحافز لتطور المهن، أو كما يقولون، بدون منافسة بين أرباب العمل الخاصين لايتطور الانتاج، في حين أن الملكية الخاصة هي التي تفترض «حرب الجميع ضد الجميع» وهذه هي حالة الحيوانات، حيث يسود مبدأ: البقاء للقوي والمكار والسافل، وليس بالضرورة للعاقل. في البداية يدفع هذا المبدأ شخصاً بمفرده للسير تحت رايته، ومن ثم يدفع بلاداً وشعوباً بكاملها للسير في هذا الطريق.

أفلاطون: العدالة ليست حق الملكية بل بلوغ الروح كينونة حريتها. إن مفهوم العدالة هو أساس وفكرة الكلي الذي يتجزأ عضوياً داخل ذاته بشكل يجعل كل جزئ يوجد فقط كلحظة في الكلي، ويجعل الكلي يوجد بواسطة هذا الجزء. إن العدالة، وفقاً لمفهومها الحقيقي، تعني بالنسبة لنا الحرية بالمعنى الذاتي، ولذا فهي تعني أن العقلي ينال وجوده، وبما أن هذا الحق، أي حق الحرية في نوال الوجود، هو حق عام لذا فإن العدالة يجب أن تكون الهدف الأساسي والرئيسي للدولة.

أرسطو: توجد في الدولة مصالح عامة ومصالح خاصة. والإنسان جزء من الدولة، وإذا ماتت الدولة بقي الإنسان بالإسم فقط. كما أن الانسان عندما يموت تبقى يده وقدمه بالإسم فقط، فهما لاتقومان بالدور الذي كانتا تقومان به، عندما كان الانسان حياً.

ومن حيث المبدأ يظل الخير الأسمى هو نفسه سواء بالنسبة إلى الشخص بمفرده أو بالنسبة إلى الدولة ككل. وتعتبر حيازة إنسان بمفرده للخير الأسمى فضلاً كبيراً، ولكن الأروع والأعظم حيازته من أجل الشعب والدولة بمجملها.

السجين: وعلى هذا فمع حتمية التقابل بين الفردي والعام في الدولة، أنتم القدماء تعتبرون أن الأفضلية هي للعام.

هيجل: على الدولة أن تزيل هذا التقابل.

لينين: ماركس كان يتكلم بأسلوب أبسط، فهو يقول: إن مهمتنا ليست تربية رفائيل في كل طفل على حدة، بل توفير الإمكانية لكل من «يكمن» في داخله رفائيل أن يعبر عن نفسه. وهذا يعني أننا، نحن الشيوعيين، (الذين نعتبر أن الأفضلية للعام) نناضل من أجل ألاّ يكبت العام حرية وقدرات الفرد، بل بالعكس، من أجل أن يقدم العام للجميع ظروفاً عادلة ومتساوية يمكن للحرية الفردية وقدرات الانسان العاقل أن تتجلى فيها.

هيجل: مما يدعو للأسف أن النظرية وحدها لاتكفي لإقامة بنية الدولة، وذلك لأن هذه البنية لايصنعها أشخاص أفراد، بل هي شيء روحي، إلهي، يصنعه التاريخ، وهو يحوز على قدر من الجبروت يجعل فكر الإنسان الفرد لاقيمة له بالمقارنة مع قوة الروح العالمي.

السجين: أنا على استعداد للموافقة على تعريفك «الإلهي» يابروفيسور إذا كنت تقصد بمفهوم الدولة بناء حياة الناس حسب إرادة العقل الجماعي. وفي هذه الحالة تظل من تعريفك الكلية العالمية، ومن ثم العظمة الكونية للروح الذي هو ليس إلا المادة اللانهائية المتحركة دائماً وأبداً. ولكن إذا كنت تتحدث عن جهاز الدولة كعنصر ملازم لكل دولة إياً كانت فإنك تؤله البيروقراطية والسجون والعنف ضد الشخصية الانسانية.

لينين: الدولة بهذا المعنى هي جهاز للعنف تستخدمه طبقة ضد أخرى.

السجين: لن ننغمس في جدل لاينتهي حول الطبيعة الطبقية للدولة. فالمهم بالنسبة لنا هو أن نوضح كيف كان القدماء يتصورون الدولة العادلة. فلنستمع إلى القدماء ولنتبادل الآراء على هامش الحديث، هل أنت موافق ياإيليتش؟

لينين: موافق.

السجين: يهمنا طبعاً أن نعرف كيف تتحقق الدولة العادلة.

سقراط: سأقول لكم كيف نحقق هذا على الرغم من أن كلماتي يمكن أن لاتجد من يثق بصحتها البتة، وربما أثارت الضحك، لكن إذا لم يكن الفلاسفة هم الذين يحكمون الدولة، أو إذا لم يتفلسف أولئك الذين يسمونهم الآن قياصرة وسلاطين تفلسفاً حقيقياً وكاملاً بحيث تتلاقى وتتوافق في الشخص الواحد السلطة والفلسفة، وتمتزج فيه مختلف النزعات والاتجاهات العقلية التي توجد الآن منفصلة وتبحث عن هذا أو ذاك لتحل فيه، أقول إذا لم يحدث هذا فإن مصائب الشعوب، ياصديقي، لن يكون لها نهاية، بل على الأرجح، كما أظن، لن تكون ثمة نهاية لمصائب الجنس الإنساني كله.

السجين: سقراط محق تماما في إبرازه واجب الحكام الالزامي في أن يمزجوا في وحدة واحدة مختلف النزعات الفكرية. إنني أعتقد أن الحاكم الحقيقي ملزم لا بإبداء التسامح فقط إزاء وجهات النظر والآراء المتعارضة تعارضاً تاماً لدى مواطنيه؛ بل وبإبداء القدرة على الربط بينها. بحيث يستنبط من التنافر الظاهري منفعة للمجتمع كله.

لينيس: أنت لم تكفك الكدمات التي خلفتها فيك هراوات القوات الخاصة في الشرطة، ولم يكفك السجن حتى تدعو، دون حرج، إلى النزعة فوق الحزبية.

السجين: أنا لا أدعو إلى النزعة فوق الحزبية، ولم أؤمن قط بإمكانية تحققها في الواقع. ولكن رئيس الدولة ملزم بأن يكون قادراً على الربط بين النزعات العقلية المتعارضة بما يعود بالمنفعة على أكثرية أعضاء المجتمع.

لينيس: وهل تعتقد أن هذا بمتناول شخص واحد حتى لو كان فيلسوفاً؟

السجين: الفردية لايمكنها على الإطلاق أن تعبر عن العام، مع ذلك يوجد في المجتمع أفراد يعبرون عن العام أكثر من غيرهم. وهذه السمة تسمى موهبة التوقع والتنبؤ.

هيجل: إن رجل الدولة المثقف المحنك، على سبيل المثال، هو الذي بمقدوره أن يجد الأمر الوسط المناسب، والذي يمتلك ذهناً عملياً، أي أنه يتصرف وفقاً لكامل أبعاد الحادثة التي أمامه، لاوفقاً لأحد جوانبها الذي يجد تعبيراً عنه في قاعدة محددة واحدة.

سقراط: احتفظ الآلهة لأنفسهم بمعرفة الأهم. أما العمارة، والزراعة، والحدادة الخ... فهذه فنون بشرية، ومثلها بالضبط فن إدارة الدولة، وحساب الدخل والخرج، وحسن التدبير المنزلي، وفن الحرب. وبوسع الإنسان أن يبلغ في جميع هذه الفنون درجة عالية من الاتقان، ولكن بلوغ معرفة الأهم يقتضي بالضرورة فن التنبؤ.

السجين: إن رأيك ياسقراط يجعل الكتبة الروس المكثرين يشعرون بالهول.

سقراط: لماذا؟

السجين: لأنك ساويت بين فن إدارة الدولة وحسن التدبير المنزلي.

لينين: سقراط يتكلم كإنسان عاقل. ففن إدارة الدولة لايتطلب أية قدرات خارقة نحن سنعلم حتى الطباخة إدارة الدولة.

السجين: أنت ياإيليتش قلت: «سنعلم الإدارة» ولكنهم شوهوا هذه العبارة إلى حد التفاهة. فليس من صحيفة الآن لاتتهكم بصدد موضوع «الطبّاخة التي يجب أن تدير الدولة».

لينين: ايه، ياعزيزي! إذا كنا سنتخلى عن الآراء المعقولة عند كل نقد تافه مغرض فمن الأحسن ألا نتعرض للطباخات. إنني لم أتكلم فقط عن ضرورة تعليم أناس العمل البسطاء إدارة الدولة. وبوسعهم أن يذكروا لي أمثلة ليست بقليلة عن أناس بسطاء أصبحوا من أصحاب الملايين وأعضاء في مجلس الشيوخ في أميركا الرأسمالية. بيد أن جوهر الأمر هو في أن تتولى الجماهير الكادحة نفسها ممارسة السلطة في الدولة العام يجب أن يحكم نفسه بنفسه. وفي هذه الحالة تنحصر مهمة الحكام «الأعلين» في تأمين تأثير إرادة القاعدة على اتخاذ وصياغة القرارت التي تشمل الدولة ككل.

السجين: إنّ حزبي - حزب العمال الشيوعي الروسي - يناضل من أجل أن تبدأ سلطة الدولة من المجموعة العاملة في اليونان القديمة لم يكن هناك وجود لهذه الخلية الأولية في المجتمع، أو على الأصح لم تكن مؤسسة الرق تتيح لهذه الخلية إمكانية التطور والخروج من الوضع الجنيني، وإلا لكان القدماء قد رأوا، دون شك، أن المجموعة العاملة هي أساس ازدهار كل من الأسرة والدولة بمجملها. إن حزب العمال

الشيوعي الروسي يعتبر أن أجهزة السلطة الأولية، وهي مجالس الكادحين، يجب أن تنتخب في نطاق المجموعة العاملة بالذات (الورشة، المصنع، المخبر العلمي، الكولخون) وخلال الاجتماعات العامة التي يعقدها أعضاؤها. وهذه المجالس تمتلك باسم الشعب كله ممتلكات المجموعة، وتتصرف على أساس التوزيع العادل بالدخول المتحققة، والشقق المبنية، وبطاقات الاستجمام في المصحات المجانية، وأذونات المهمات الخارجية، تحدد الأجر العادل الذي يجب أن تتقاضاه الإدارة لقاء جهودها

وبالإضافة إلى ذلك ترسل المجالس الأولية ممثليها إلى جميع المجالس الأعلى حيث يجري رسم السياسة الضريبية وتحديد الاتجاهات ذات الأفضلية لتطوير الاقتصاد، وتصديق خطط تطوير البلاد ككل، ويكون لهؤلاء الممثلين في أثناء ذلك حق التصويت الفعلي. وينبغي أن يكون للمجموعة العاملة حق استدعاء ممثليها من المجلس الأعلى عندما يعتبر المجلس الأولي أو الاجتماع العام للمجموعة العاملة أن هذا الإجراء ضروري.

لينين: اسمح لي ياعزيزي! إن مبدأ انتخاب أجهزة السلطة من القاعدة إلى القمة عبر المجموعات العاملة، واستخدام الإدارة بالأجر، وإعطاء خطط تطوير الاقتصاد الوطني قوة القانون، والتقيد بها تقيداً صارماً ـ كل هذا هو ديكتاتورية البروليتاريا بعينها! ماذا؟ ! ألم تستطيعوا أن تجسدوا هذا في الواقع؟ !

السجين: لهذا الأمر حديث خاص: لماذا لم نستطع. نحن في روسيا، تحقيق الدولة العادلة. من الأفضل أن نستمع الآن إلى رأي الموقّر أفلاطون لنعرف كيف يتصور هو مثل هذه الدولة.

أفلاطون: أقول أولاً: أن أية دولة هي درجة معينة من درجات تطور العقل الإلهي، الروح العالمي.

وهذا العقل يعبر عن نفسه في العدالة التي تقضي بأن يجد كل فرد التعبير الكامل عن نفسه فقط فيما يتطابق مع الإلهي، ويعود بالخير على العام.

ليفيس: العقل الإلهي، الروح العالمي. أيّاً كان الاسم، تظل الدولة تفترض تنظيماً معقولاً ومتدبّراً لحياة المجتمع. فالعقل سيصل عاجلاً أو آجلاً إلى إدراك ضرورة وضع خطة معللة علمية للتطور.

هيجل: في الدول المعاصرة تتوفر حرية الضمير التي تعني أن كل فرد يمكنه المطالبة بأن يفسحوا له إمكانية التصرف وفق ما تقتضيه مصالحه الخاصة.

أفلاطون: يمكن إفساح إمكانية المطالبة للجميع دون استثناء. ولكن القضية في وجود أو عدم وجود إمكانية فعلية لدى الدولة (العام) لتنفيذ هذه الطلبات. فإذا طالب كل واحد ببناء قصر له، فمن أين يمكن جلب العدد الكافي من العبيد لبناء هذه القصور؟ وكيف يمكن إطعام كل هؤلاء العبيد؟ إن مضمون الدولة لايمكن أن يكون إلا العام، بالتالي فإن الدولة العادلة تقتضي استبعاد الملكية الخاصة.

السجين: إذا كنت ياأفلاطون تقصد بالملكية الخاصة القصور لايمكن أن يكون هناك أي اعتراض على إلغاء مثل هذه الملكية إلغاء تاماً. ولكن الإنسان الفرد يحتاج إلى مسكن وملبس، أي إلى ملكية شخصية، ومن العدل أن نعترف بحق الانسان في الملكية الشخصية والاستثمارة المساعدة الشخصية والدارة الصيفية (الداتشا)، لاسيما وأن كل هذا يمكن أن يتوفر لديه في ظروف قيام العام بدوره الطبيعي. نحن، شيوعيي روسيا اليوم، نطلق اسم الملكية الخاصة على وسائل الانتاج التي تتسم بطابع اجتماعي فإذا كانت ملكية وسائل الإنتاج ذات الطابع الاجتماعي (الأرض، المصانع، المخابر العلمية) هي ملكية خاصة، فلابد من أن يفضي هذا حتماً إلى استثمار الانسان للأنسان. وإذا كانت الملكية الخاصة هي المهيمنة في المجتمع فإنها ستكبت كل ما هو عقلاني، وكل حريات الفرد باستثناء واحدة، وهي التي تتمثل في مقولة: الانسان للانسان ذئب. إننا نرفض مثل هذه الملكية الخاصة، ونعتبر أن الدولة القائمة على الملكية الخاصة دولة غير عادلة.

أفلاطون: المطلب الثاني الذي تقتضيه الدولة العادلة هو العمل الإلزامي لكل عضو من أعضاء المجتمع. ولكن العمل كما تعلمون تختلف أشكاله.

لينين: العمل البدني والعمل الذهني ـ هذا هو التقسيم الديالكتيكي الأساسي للعمل في ذاته.

أفلاطون: أحدهم يمكنه القيام بعمل ما، وآخر يجيد عملاً آخر، ومن هنا نستنتج انه بدون الفئات، بدون هذا التقسيم إلى طبقات كبيرة لا يمكن للدولة أن تشكل عضوية متكاملة.

السجين: إن على جميع محبي اتهام الشيوعيين بأنهم اختلقوا التقسيم المصطنع للمجتمع إلى طبقات ان يتذكروا هذا جيداً لقد أشار العلم إلى تقسيم المجتمع من الداخل منذ ألفين وخمسمئة سنة.

أفلاطون: إن أول تعارض ظهر في الدولة هو التعارض الذي ظهر بين العام بصفته عمل الدولة والحياة فيها من جهة والفردي بصفته حياة وعمل الشخص المفرد من جهة أخرى. وهذان العملان هما اللذان يشترطان وجود فئتين: الأولى. مكرسة لممارسة العمل الأول، والثانية: لممارسة الثاني. وينبغي أن يكون للأخلاقي في الدولة ثلاث وظائف:

آ ـ التشريع، الاجتماع للشورى، وعلى العموم النشاط الموجه لنفع العام والاهتمام به وبمصالح الكلي بما هو كذلك.

ب ـ الدفاع عن الاتحاد الاجتماعي ضد الأعداء الخارجيين

ج ـ الاهتمام بالفردي، بالشخص المفرد، بالاحتياجات: مثل الزراعة، وتربية الحيوانات، وإعداد الملابس، وبناء المساكن وهلمجرا... وليس بإمكان الشخص الواحد ان يجيد كل هذه الأعمال بالدرجة نفسها من الاتقان، لذا يمكننا أن نشير إلى ثلاث فئات رئيسية في الدولة: فئة الحكام والعلماء والمثقفين، وفئة المحاربين، وفئة المزوّدين بالأشياء اللازمة لتلبية الاحتياجات، أي فئة الزرّاع والحرفيين.

ومن الأصح أن نسمي الفئة الاولى فئة الحرّاس. فهي تتألف من رجال الدولة المثقفين فلسفياً، والحائزين على علم حقيقي، المهتمين بحراسة مصالح الكلّي.

هيجل: وهكذا، كما أرى، أمامنا خطوط عامة لدستور دولة أفلاطونية.

السجين: الدساتير، كما أشرت أنت نفسك يا بروفيسور، توضع هذه الأيام دون كبير عناء. أما كيف تعمل هذه الدساتير فذاك شأن آخر.

أفلاطون لكل فئة فضائلها. وأولى الفضائل هي الحكمة والعلم، والدولة التي تحوز هذه الفضيلة تكون دولة حكيمة وتدرك جيداً كيف تتصرف في الداخل وإزاء الدول الأخرى

السجين ينبغي الاعتراف بأن المعرفة والعلم يمكنهما بالفعل أن يعودا بالنفع على الدولة ولذا ينبغي تشجيعهما بكل الوسائل.

أفلاطون والفضيلة الثانية للدولة هي الشجاعة ـ أي الدفاع الصلب عن العدالة والقوانين.

السجين أقسم بجميع آلهة الأولمب أنني كنت في تشرين الأول عام ١٩٩٣ من العصر الجديد بين أناس شجعان: فقد كنا ندافع بصلابة عن العدالة والقانون.

أفلاطون والفضيلة الثالثة هي الاعتدال، التحكم بالشهوات والأهواء، وهذه الفضيلة يجب أن تنتشر بانسجام لا مزيد عليه في جميع أجزاء الكلي، بحيث أن الأشخاص الأقوى والأشخاص الأضعف، سواء كانوا أضعف أو أقوى عقلياً أو جسدياً أو عدداً أو ثروة أو من أي ناحية أخرى، يعملون معاً لبلوغ هدف واحد ويتفقون جميعاً على ذلك، وأخيراً هناك الفضيلة الرابعة وهي العدالة التي تتمثل في أن يسعى كل واحد ليقوم على خير وجه بما هو مهيأ للقيام به أكثر من غيره من حيث ملكاته الفطرية.

لينين جميل، لكنه غير قابل للتحقيق.

أفلاطون ولماذا غير قابل للتحقيق؟

لينين لأننا إذا وقفنا السلطة على الحرّاس فمن يضمن لنا أن لا تتحول هذه الفئة بعد حقبة من الزمن إلى أناس فاسدين أخلاقياً لا يفكرون في ازدهار الدولة وسيادة العقل، بل بمنفعتهم الخاصة.

أفلاطون الفرد لا يحق له أن يختار فئته بنفسه. ففي الدولة العادلة ليست الولادة هي التي تفرق بين الفئات وتخصص لكل فئة أفرادها، بل يخضع كل شخص للامتحان من قبل حكام الدولة بصفتهم شيوخ الفئة الأولى الذين يقدمون الأفراد للتربية، وهم الذين يقومون بالانتقاء ويحددون لكل فرد العمل الذي عليه أن يمارسه.

هيجسل: هذا يناقض تماماً مبدأ دولتنا البرجوازيـة. إننا لا نسمح بـأن يقوم شخص آخر بفرض اختياره علينا ولا بـأن يقول لي هـذا الشخص على سبيل المثال: «بما أنك لا تصلح لشيء أفضل مـن هـذا، عليك أن تصبح حرفيـاً». إن كـل فـرد عندنـا بوسعه أن يجـرب بنفسـه تحديـد مكانه وعلينا أن نسمح له بأن يطرح المسألة المتعلقة بـه بصفتـه ذاتـاً، وأن يحل هذه المسألة ذاتياً، حسب إرادته الخاصة، متكيفاً، إلى ذلـك، مع الظروف الخارجية، وعلى هذا فنحن مـلزمون بـأن لا نضع أمامـه العقبات إذا قال مثلاً: «أنا أريد أن أهب نفسي للعلم».

ليفيسون: القضية كلهـا في أن «الظـروف الخارجيـة» في مجتمعكـم، يـا بروفيسور، ليست سوى الظروف المادية. وكل شيء يتوقف على النقود. وليس كل واحد بقادر مادياً على الدراسة في السوربون أو كمبردج.

السجين: على العموم نظام المسابقات ليس بالشي السيء. فقد أتى وقـت في ظل الاشتراكية كان العلماء والعاملون في جامعة موسكو المسماة باسـم لومونوسـوف يسـافرون فيـه سنوياً إلى أرجـاء بعيـدة في البـلاد لاجـراء مسابقات بين التلاميذ في الفيزياء، الرياضيات، والتاريخ، وعلوم اللغـة. وبما أن التعليم في دولتنا كـان مجانيـاً في جميـع مراحلـه، قـد كـانوا يدعون أكثر التلاميذ موهبة، بغض النظر عن أوضـاع الأبويـن الماديـة، للدراسة في الجامعة، الأمر الذي كان يتمتع بسمعة ومكانـة عاليـة. ولم يكن نظام امتحان المسابقات بالنظام الكامل طبعاً، وكـان مـا يلحـق بـه الضـرر بشـكل خـاص يتمثـل في التحـيز العـائلي، ومحاباة الأقـارب. وسأروي لكم نكتة تصور بمنتهى الدقة الوضع الذي كـان قائمـاً في هـذا المجال أو ذاك من مجالات النشاط الأنساني.

هيوجين: أنا أحب النكات. وقـد ألفوا في أثينـا عـني وحـدي في حينـه بضع عشرات من النكات.

السجين: خرج الجد، وهو عقيد متقاعد، مع حفيده للتمشي في الشـارع. فرأى الحفيد نقيباً ضخم الجثة تبدو عليه سيماء الشجاعة يسير برصانة في زيه الرسمي، فسأل بانبهار:

ـ جدي، يا جدي! هل يمكنني أن أصبح نقيباً عندما أكبر؟

أجابه الجد مبتسماً:

ـ طبعاً! تنهي الكلية الحربية وتصبح نقيباً.

وبعد برهة قصيرة شاهد الحفيد عقيداً، فسأل:

ـ جدي، وهل بإمكاني أن أصبح عقيداً؟

ـ ولم لا! بإمكانك يا ولدي، بإمكانك!

ثم شاهد الحفيد جنرالاً يرتدي بنطالاً مزيناً بالشرائط، فسأل جده بلهفة:

ـ جدي، وهل يمكنني أن أصبح جنرالاً؟

فأجابه العقيد المتقاعد بأسى:

ـ لا، يا بني، فالجنرال لديه حفيده الذي سيصبح كبيراً....

أفلاطون أرأيت! لقد كنت محقاً تماماً عندما قلت إن الدولة العادلة لا ينبغي أن يكون فيها مكان للأسرة. الجميع في الدولة يجب أن يكونوا أسرة واحدة. يجب أخذ أولاد وأحفاد الجنرال والعقيد ودباغ الجلود والفواخيري على حد سواء فور ولادتهم، وجمعهم في مؤسسة مخصصة لهذا الغرض، وتغذيتهم بحليب مرضعات من الأمهات اللواتي وضعن حديثاً، وتربيتهم تربية عامة، على أن تنظَم هذه التربية تنظيماً معيناً بحيث لا تستطيع أية أم أن تميز طفلها فيما بعد وستقام الأعراس في الدولة، وكل واحد يمكن أن يتزوج. وعلى النساء أن يلدن في هذه الدولة وهن بين العشرين والأربعين من عمرهن، أما الرجال فعليهم أن يتزوجوا أو يكونوا متزوجين بدءاً من الثلاثين وحتى الخمسين من عمرهم للحؤول دون سفاح القربى: وكل الأطفال الذين يولدون في الوقت الذي يكون فيه الرجل المعني متزوجاً يجب أن يعتبروا أبناء له.

السجين هكذا إذن! معنى ذلك أن الشيوعيين لا دخل لهم في هذا أيضاً. لسنا نحن أول من تحدث عن انفراط عقد الأسرة. فقد كان الرائد الأول الذي تحدث عن هذا هو المثالي العظيم أفلاطون. معلم الانسانية المتحضرة كما وصفه هيجل.

لينين في الحقيقة يجب أن أعترف بأنني لا أرى أي سوء في أن تأخذ الدولة على عاتقها جزءاً من عبء تربية الأطفال. لترضع الأم طفلها سنة أو سنة ونصفاً، ومن ثم أيّ ضرر ترون في أن يقضي الطفل نهاره في

مؤسسة خاصة حيث يعتني به اختصاصيون اكفياء مؤهلون في مجال الطب والتعليم؟ إن المهندسين المعماريين يجب أن يصمموا المنازل السكنية. بحيث يكون الطابق الأول، على سبيل المثال، مخصصاً بكامله للحاجات الاجتماعية: روضة أطفال، ومقهى ـ ومطعم للمسنين، وصالة رقص للشباب. وباختصار ينبغي أن يتداخل العام والفردي. وأعتقد أنه لا يجدر بنا لوم أفلاطون بتهمة سعيه لهدم الأسرة: فقد استطاع أن يتكهن بنزعات تطورها بدقة أكثر من أي فيلسوف آخر من الفلاسفة القدماء.

أفلاطون: لقد انطلقت من أن الكلّي في الدولة العادلة يشكل أسرة واحدة، حيث العمل الزامي بالنسبة لكل فرد، وحيث يقوم كل فرد بالعمل المخصص له، بيد أن ثمار العمل تكون للجميع، وكل واحد ينال من ثمار عمله ومن ثمار عمل الآخرين جميعاً ما هو بحاجة إليه!

السجين: هذا عادل! وهذا وحده يكفي لأن يصفوك، ياأفلاطون في روسيا اليوم، بأنك أحمر ـ بني وبلشفي، ومن جماعة الجهاز الحزبي، وعدو التقدم والحضارة.

أرسطو: طبعاً، يمكن اقتفاء أثر أفلاطون وتقديم وصف مفصل للدولة المثالية، ولكن الأمر الذي لا شك فيه هو أن الذي يحكم الدولة يجب أن يكون أحسن من فيها. وهذا هو ما يحدث فعلاً، أياً كانت الأنظمة السائدة في الدولة.

السجين: عدنا نخيط ونفتق ثم نخيط من جديد! هذا يعني ان هتلر وبينوشيت وموسوليني ويلتسين ـ كلهم متساوون وكلهم أحسن من في الدولة لا لشيء إلاّ لأنهم يسيطرون على المجتمع منتهكين القانون، والأخلاق، ولا يتورعون عن القتل الجماعي والفردي؟

أرسطو: أنا أسترشد في هذا الصدد بشخصية تلميذي الاسكندر المقدوني. فهو واحد من الأحاسن، وهؤلاء هم الذين يجب أن يسيطروا، وذلك لأنهم سيعانون ويتألمون إذا أنت ساويتهم بالآخرين الذين لا يساوونهم فعلاً من حيث فضائلهم وقدراتهم السياسية. إن مثل هذا الانسان المتفوق يشبه إلهاً وسط الناس.

السجين: إذن ينبغي الإسراع في رسم يلتسين على إيقونة....

أرسطو: وليس ثمة قانون بالنسبة لمثل هذا الانسان، وذلك لأنه هو نفسه قانون نفسه. ولنفرض أن بوسعنا القاءه خارج الدولة، ولكن إمكانية السيطرة عليه لاتزيد عن إمكانية السيطرة على جوبيتر. وهكذا لا يبقى لنا سوى الخضوع له. وهذا الخضوع كامن في طبيعة كل الناس، وعلى هذا فإن أمثال هذا الانسان قياصرة بطبيعتهم في الدولة.

السجين: لوسمع «الديمقراطيون» الروس المحيطون بالرئيس مثل هذه الآراء الجميلة لعرضوا على أرسطو فوراً منصب مدير شركة تلفزيون «اوستانكينو»، ولأقصي الأكاديمي ياكوفليف عن هذا المنصب بلحظة واحدة، وذلك لأنه على الرغم من كل تفننه الرهيف لا يصلح أن يكون خادماً لأرسطو من حيث تعظيمه للدكتاتورية.

هيجل: ولكن يجب أن نعلم أن أرسطو عندما كتب هذا كانت الديمقراطية اليونانية قد تدهورت تماماً ولذا لم يكن بوسعه أن يوليها أية أهمية.

الساعة السادسة بتوقيت موسكو من اليوم ٢٦ من كانون الثاني عام ١٩٩٤ من العصر الجديد تفتح طاقة الباب الحديدي رقم ٣٢ في سجن ليفورتوفو: «نهوض!».

الفصل الثاني عشر

«تتعب من صد الهجمات والزمجرة،
كثيرون من دونكم شقوا عصا الطاعة.
أوغاد كثيرون من مختلف الأصناف،
يسيرون على أرضنا ومن حولنا،

ـ ف. مایاکوفسکي ـ

حديث مع الرفيق لينين

في ٢٩ كانون الثاني عام ١٩٩٤ من العصر الجديد، الساعة ٢٢ حسب توقيت موسكو تفتح الطاقة في الباب الحديدي للزنزانة رقم ٣٢ في سجن ليفورتوفو. «مبيت!» يضع السجين على عينيه عصابة سوداء تحمي من ضوء المناوبة في الزنزانة وينام بعد بضع دقائق يظهر لينين في الزنزانة، يدنو من سرير السجين ويلمس كتفه.

لينين: انهض يا عزيزي! أرجو المعذرة عن هذا الاقتحام الطارىء، ولكن هناك لزوماً، ولزوماً حتمياً للحديث على انفراد (وفيما السجين يرتدي بزة الرياضة يجس إيليتش باهتمام فراش السجن والوسادة) قاسيان بعض الشيء، ولكن الشر شفين نظيفان، وعليهما ختم أيضاً: نجمة ومنجل ومطرقة. هل تدخن؟

السجين: تركت التدخين منذ عام ١٩٨٩، عندما بدأت أمارس السياسة، متذكراً تحذيرك: الثوري الذي يدخن، إذا سجن تزيد معاناته بسبب عادته الضارة.

لينين: يسرني، يا صاحبي، أن نكون قد أفدناكم بشيء ما. لكنني لم آتِ إلى هنا لأجري أحاديث عاطفية. ماالذي يجري في البلاد؟ هل يفهم من المعلومات المتفرقة التي توردها إن السلطة السوفييتية قد دمرت؟

السجين: الآن ـ نعم. ولكنهم كانوا يحفرون تحتها لتقويضها منذ مدة طويلة.

لينين: وتأميم الأرض؟

السجين: تجري عملية اصطناعية لتطبيق الخصخصة وتمزيق أوصال الأرض. وتخنق المزارع الجماعية بسياسة الأسعار والتبادل غير المتكافىء

بين المدينة والقرية. فالكادح في المدينة مضطر إلى مزاولة المتاجرة بأشياء صغيرة في أسواق الأرصفة، إضافة إلى عمله، للابقاء على حياته، أما الفلاح فقد أخذ يستعيد مهارته في مهنة «الكيّاس»[1] المنسية.

ليفيس: أي أننا نمارس المضاربة!

السجين: على كل حال في المرحلة الأولى من عودة الرأسمالية إلى روسيا أصبح المضاربون هم القاعدة الجماهيرية للنظام. لقد أدى تدهور الانتاج الصناعي والزراعي المتفاقم أصلاً إلى حالة جنونية من التضخم، وزاد الطين بلة وجود المضاربين الذين لا يمكنك التخلص منهم. وأصيبت الأسعار بالسعار. فقد ارتفعت أسعار المواد الغذائية والسلع الصناعية خلال العام والنصف الفائتين فقط بمقدار ألف مرة وحتى ألفي مرة، في حين أن الأجور لم تزدد بأكثر من خمسمئة مرة في أحسن الأحوال وألقت هذه السياسة بأغلبية سكان البلاد في هوة فقر مدقع لم يسبق له مثيل.

ليفيس: وماذا عن الانتاج الصناعي الضخم؟ هل أمكن إنقاذ شيء ما منه؟

السجين: لقد انتزعوا السلطة من أيدي الكادحين وسار الذين يمسكون بزمامها الآن في ركاب الاحتكارات الدولية ومصارف الإمبريالية. أما الانتاج الصناعي الاشتراكي الضخم فيتعرض لضغوط مركزة تهدف إلى خنقه دون رحمة. ولا يقتصر التوقف على المصانع الحربية وحدها، بل يشمل عملياً فرع صناعة الآلات بكامله ومجمع ايفانوفو للنسيج ومصنعي البلطيق وبوتيلوف في بطرسبورغ، ومصنع روسيلماش في روستوف على الدون. وغيرها كثير. وقد تقلص حجم الإنتاج الصناعي في روسيا خلال السنتين الأخيرتين بنسبة ٥٠٪.

ليفيس: هذا في روسيا وماذا عن الاتحاد السوفييتي؟

السجين: خانوه وخربوه على الرغم من إرادة شعوبه. وحيث كان البلاشفة قبلاً قد بذلوا جهوداً كبيرة لإزالة العداء الدموي بين الشعوب وتثبيت دعائم السلام تسفك الدماء من جديد وتحرق المساكن...

---

١ ـ الكيّاس: من يشتري البضائع المفقودة من هنا وهناك وينقلها إلى حيث يشتد الطلب إليها ويضارب بها (وكلمة كيّاس مشتقة من الكيس الذي تجمع وتنقل فيه البضائع).

لينين: يجب تقديم المذنبين إلى محكمة عسكرية!

السجين: حتى الآن أنا الذي أستعد للمحاكمة ولا أظن أن بوسعي التعويل على عدالة المحكمة «الديمقراطية».

لينين: احفر في ذاكرتك ووضح لكل من لا يرغب في أن يكون ضحية غبية لخداع الآخرين وخداع الذات في السياسة: إنه لا توجد ولا يمكن أن توجد «ديمقراطية خالصة» ما دام المجتمع مقسماً إلى طبقات. فالقضاء والصحافة وجهاز الدولة ليست سوى أدوات في يد الدولة الطبقية.

السجين: لا جدال في هذا!

لينين: وماذا عن الشؤون المالية؟

السجين: لنقل الآتي: كان الدولار الأميركي الواحد في عام ١٩٦٠ يساوي ٧١ كوبيكاً، أما الآن، حسب الوضع القائم في ٢٥ كانون الثاني عام ١٩٩٤ من العصر الجديد فإن هذا الدولار نفسه أصبح يساوي ١٥٤٢ روبلاً. ويجري الآن غزو دولاري حقيقي بكل معنى الكلمة. العملة الوطنية تدهورت والمصارف الخاصة الكثيرة تجني الأرباح من التلاعب في سوق العملة وأجر العامل يفقد كل يوم نسبة مئوية معينة من قيمته.

لينين: اسمح لي! إن هذا عربدة، مصيبة، عنف لم يسمع بمثله، موجه ضد ملايين الناس! لا يمكنني بأي شكل أن أصدق أنّ كل ما بناه البلاشفة قد انهار فجاة هكذا في سويعات، كبناء كرتوني. لا يمكن أن يكون الشيوعيون والكادحون قد تخلوا لأعدائهم اللدودين عن المكتسبات الاجتماعية التي تعود للشعب كله ليس لهم الحق في ذلك! من المذنب! أيمكن أن يكون ستالين؟

السجين: ستالين لم ينحرف قيد خطوة عن المسار الذي انتهجه الحزب في أكتوبر ١٩١٧ . وليس لي أن أخبرك انت كيف كانت روسيا بعد الحرب العالمية الأولى والحرب الأهلية. ولكن خلال مدة قصيرة أرسيت القاعدة الصناعية القادرة على إنتاج الطائرات والسفن والقطارات والدبابات على مستوى أفضل النماذج في العالم. وقد اشترت الولايات المتحدة الأميركية من روسيا السوفييتية في عام ١٩٣٦ مئة قاطرة لخطوطها الحديدية. وعلى العموم فقد استطاعت البلاد، بفضل

الأسلوب الاشتراكي في الانتاج، وخلال مدة لا تزيد عن عشر سنوات بعد الحرب الأهلية أن تتجاوز التخلف الفظيع الموروث من العهد القيصري. واليوم نرى البروفيسورات والأكاديميين المنبطحين أمام الرأسمالية يصرخون قائلين: إن الاقتصاد الاشتراكي المخطط مأزق يصيب الشعب بالجمود الاقتصادي وأن الاشتراكية مضادة للطبيعة الانسانية.

لينين: كل هذا مجرد عواطف، أين الوقائع؟

السجين: حسن، اكتب الوقائع المدونة في جميع المراجع الاقتصادية الرصينة. إن استعراض وتائر نمو الانتاج الصناعي في البلاد السوفييتية بالمقارنة مع أكثر البلدان الرأسمالية تطوراً تدل دلالة مقنعة على مزايا الأسلوب الاجتماعي الاشتراكي في الانتاج ويتضح ذلك في الجدول الآتي.

الدولة	عام ١٩١٣	عام ١٩٣٣	عام ١٩٣٨
الاتحاد السوفييتي	٪١٠٠	٪٣٨٠،٥	٪٩٠٨،٨
الولايات المتحدة الأميركية	٪ ١٠٠	٪١٠٨،٣	٪ ١٢٠
انكلترا	٪١٠٠	٪ ٨٧	٪١١٩،٣
ألمانيا	٪ ١٠٠	٪٧٥،٤	٪١٣١،٦
فرنسا	٪ ١٠٠	٪١٠٧،٤	٪٩٥،٢

لينين: رائع! لم يكن بالامكان بلوغ هذه الوتائر إلاّ بفضل تحرير العمل، وإلغاء استثمار الإنسان، وتخطيط الاقتصاد.

السجين: اليوم يفسر خصومنا «المعجزة الاقتصادية الروسية» في الثلاثينيات بـ«القمع الستاليني» الخالي من الرحمة.

لينين: وهل كان هناك قمع؟

السجين: إن طبقة الملاك الخاصين التي لم يجهز عليها في أكتوبر ١٩١٧ والتي اغتنت على حساب الحرب الأهلية كانت تقاوم بشراسة. ولم يكفَّ أثرياء الريف (الكولاك) عن إطلاق النار على النشطاء الكولخوزيين وعلى معلمي المدارس كان الصراع محتدماً، ولم تكن مسألة «لمن الغلبة» قد حسمت بعد. وكان الأعداء يتعرضون للقمع، بمن فيهم أولئك الذين تسللوا إلى قمة الحزب. ولكن حتى في هذه الحالة

كانت المحاكمات تجري في العلن وتبث وقائعها مباشرة عبر الإذاعة الوطنية. أما اليوم، عندما يحاكمون أعضاء لجنة الدولة لحالة الطوارئ لايكتب عن المحاكمة سوى الصحف المعارضة القليلة العدد. نعم، قبلاً في عهد ستالين كانت تعمل محاكم «ثلاثية» كما كانوا يسمونها، تتألف هيئة المحكمة فيها من ثلاثة أشخاص. أما اليوم، في عهد انتصارالديمقراطية البرجوازية، فقد انتشرت في كل مكان المحاكم التي تقتصر هيئة المحكمة فيها على شخص واحد.

لينين: لايمكن خوض الصراع بقفازات بيضاء. كما أن من العبث خوض الصراع من أجل الصراع ذاته.

السجين: ولكن ذلك لم يكن صراعاً من أجل الصراع ذاته. لم يكن القمع هو المضمون الرئيسي لتلك السنوات، بل عمل الملايين الخلاق. وقد أدى ذلك إلى ارتفاع مستوى حياة الشعب بوتائر سريعة. وأخذت تظهر في الريف أبنية سكنية جديدة ممتازة، وقصور للثقافة. أما في المدن فإن بوسع المرء أن يميز بسهولة حتى في أيامنا هذه الأبنية السكنية التي شيدت في عهد ستالين، حيث الشقق ذات السقوف العالية، والحمامات التي تصلح لعقد اجتماع حزبي، من الأبنية الأخرى ـ الخروشوفية المتواضعة في الثلاثينات بدأ في موسكو بناء المترو، وفي الوقت نفسه كسي كورنيش موسكو بالغرانيت. كانت الاستثمارات ضخمة ولكن ستالين لم يطلب من المصارف الأجنبية أن تقرضه ولو كوبيكاً واحداً. وكانت حجوم البناء والانتاج الصناعي تتضخم. أما إنتاجية العمل فقد ارتفعت بفضل المباراة الاشتراكية بوتائر لم يسبق لها مثيل. لاالمنافسة القائمة على الملكية الخاصة ولا الركض وراء الربح بقادرين على خلق أشخاص من أمثال ستاخونوف في منجم الفحم وتشكالوف في الجو، وأيزوتوف على مطرقة الحفر البخارية، وبراسكوفيا كوفارداك على الجرار، وآلاف الأبطال الآخرين.

لينين: بدون حماسة عاطفية من فضلك. إذا كانت الأغلبية الساحقة من الكادحين قد قبلت الإشتراكية في الثلاثينيات بعقولها وقلوبها، فكيف أمكن إذن إعادة المجتمع إلى الخلف؟

السجين: كنا آنذاك لانزال محاصرين داخل الطوق الرأسمالي تذكر موقف تشمبرلن وتشرشل منا ..

لينيسون: نعم، كان تشرشل ينادي علناً بخنق وليد الثورة البلشفية في المهد. وقد بدؤوا بالتدخل في روسيا السوفييتية في عام ١٩١٨ ولكنهم في نهاية المطاف تلقوا لطمة مؤلمة

السجين: وفي عام ١٩٤١ تعرضت بلادنا لهجوم غادر من قبل ألمانيا الفاشية. وكانت تلك الحرب أكثر الحروب التي عرفتها الإنسانية دموية وضراوة وتدميراً. وقد فقدنا في تلك الحرب أكثر من ٢٠ مليون إنسان (تقدير خسائرنا بـ ٣٠ مليونا انتشر في عهد غورباتشوف بإيحاء من الأكاديمي ياكوفليف لتثبيت الزعم بأن ستالين أوقف تقدم الجيش الألماني بجبل من الجثث، ولذا ينبغي النظر إليه باحتراس) ورزحت البلاد تحت الأنقاض حتى ضفاف الفولغا. لقد كانت حرباً وطنية شارك فيها الشعب بأسره.

وتجدر الإشارة إلى أن حزب الشيوعيين فقد في هذه الحرب ثلث أبنائه وبناته الذين كانوا من أفضل كوادره. وكانت هذه خسارة لاتعوض للحزب والشعب على حد سواء. وقد انتصرنا. رفعت الراية الحمراء ذات المنجل والمطرقة في أيار عام ١٩٤٥ فوق الرايخستاغ المنهار. بيد أن الحرب قد اختطفت من بين صفوفنا أنقى أبناء الشعب وأكثرهم إخلاصاً ونكراناً للذات

لينيسون: نعم، هذه الخسائر لابد من أن تنعكس على نوعية الحزب كله. وماذا جرى لستالين.

السجين: في سنوات الحرب حمل على كاهله عبء المسؤولية الضخم عن مصير البلاد. لقد أسر الفاشيون ابنه ياكوف وعرضوا عليه مبادلته بالفيلد مارشال الفاشي باولوس الذي أسره جنودنا.

لينيسون: وماذا كان جوابه؟

السجين: أجابهم ستالين على الطريقة اللينينية: «لاأبادل جندياً بمارشال. وكل جندي سوفييتي ابن لي» وفي نهاية عام ١٩٤٣ أطلق الفاشيون النار على ابن ستالين زاعمين أنه كان يحاول الهرب. لقد كان

من شأن هذا التصرف ان تجلب لستالين حب ملايين النـاس البسـطاء ولم تمر الأمور دون تقديس الفرد ولكن حتى تقديس شـخصية ستالين كان يسخر إلى حد معين من قبله هو بالذات من أجل إعمار مـا خربتـه الحرب وترميم الاقتصاد الوطني. ولنورد هنا بعض الوقائع. فبعد سنتين فقط من انتهاء الحـرب كـان الاتحـاد السوفييتي أول دولـة مـن الـدول الأوربية التي شاركت في الحرب العالمية الثانية تلغي نظام توزيع المـواد الغذائية بالبطاقات، وتشرع في التخفيض المنتظم لأسعارها الإفرادية. وفي الأول مـن آذار عـام ١٩٥٠ أصـدر مجلـس الـوزراء في الاتحـاد السـوفييتي قراراً يقضـي بتخفيـض شـامل لأسـعار جميـع السـلع الاستهلاكية تتراوح نسبته بين ١٠٪ و٥٠٪.

لينيـن: رائع! ليس هناك أية دولة رأسمالية مهما كانت غنيـة تعـرف مثل هذه الممارسات.

السجين: كان أسلوب الانتاج الإشتراكي يسمح بتخفيـض أسـعار جميـع السلع سنوياً وقد مات ستالين في عام ١٩٥٣ وكانت آخر مـرة تخفض فيها الأسعار عام ١٩٥٦ .

لينيـن: وماذا جرى في عام ١٩٥٦؟

السجين: في ذاك العام عُقد المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السـوفييتي حيث أفرغ نيكيتا خروشوف سطولاً من القذارات والسموم مما أحرج الحركة الشيوعية العالمية وأشعر أعداءنا بنشوة الظفر. وكان نص التقرير الذي قدمه خروشوف موجهاً بأكمله ضد الماركسية ـ اللينينية ـ وضد الإشتراكية.

لينيـن: خروشوف؟ خروشوف . في خريف عـام ١٩١٨ أرسـل شـاب من عمال المناجم كنيتـه خروشـوف، إذا لم تخـني الذاكـرة، للعمـل في الأجهـزة السياسية في الجيـش التاسـع الـذي كـان يحـارب الجـنرال دينيكين في شمالي الدونباس...

السجين: هو بعينه! العامل الزراعي سابقاً. ومن ثم عامل المنجـم في بلدة يوزوفكا(١)، وكان لاشتراكه في الحرب الأهلية آنذاك أهمية كـبرى

١ ـ حالياً مدينة دونيتسك.

في تحديد مستقبله. إذ لم يكن نيكيتا في شبابه يتردد على أية حلقة سياسية، وكان مفهومه عن الشيوعية العلمية مشوباً بكثير من الغموض. ومع ذلك فقد عينوه في عام ١٩٢٢ بصفته مشاركاً في الحرب الأهلية سكرتيراً للجنة الحزبية في معهد دونيتسك التكنولوجي في يوزوفكا. ثم أصبح في عام ١٩٢٥ سكرتير اللجنة الفرعية للحزب. وفي عام ١٩٢٩ وجه خروشوف في كلمته التي ألقاها في المؤتمر الحزبي لجمهورية أوكرانيا نقداً لاذعاً لأنصار بوخارين وقد لفتت هذه الكلمة نظر لازار كاغانوفتش الذي كان آنذاك يترأس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الجمهورية. وفي خريف العام نفسه أرسل خروشوف إلى الأكاديمية الصناعية في موسكو ومنذ تلك اللحظة بدأ صعوده السريع نحو قمة السلطة. فقد انتخب في المؤتمر السابع عشر للحزب عضواً في اللجنة المركزية ومن ثم سكرتيراً للجنة المنطقية في موسكو، وأصبح الساعد الأيمن لكاغانوفتش الذي كان آنذاك يترأس المنظمة الحزبية في موسكو وفي كانون الثاني من عام ١٩٣٨ انتخب خروشوف سكرتيراً أول للجنة المركزية للحزب الشيوعي في أوكرانيا...وكان هذا ترفيعاً هاماً جداً... وفي ٢٢ حزيران عام ١٩٤٥ بدأت الحرب وأصبح خروشوف آنئذ عضواً في المجلس الحزبي في مختلف الجبهات، بما في ذلك جبهة ستالينغراد.

وبعد تحرير أوكرانيا من الغزاة الألمان تولى خروشوف، بصفته السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء فيها، الإشراف على إعمار ما خربته الحرب وترميم الاقتصاد الوطني في الجمهورية.

ليفيس: لا أرى أي شيء سيئاً في سيرة خروشوف. بل على العكس، أرى أنها تؤكد حقيقة أن أكتوبر العام السابع عشر شق درباً واسعاً أمام أناس العمل: فمن عامل إلى قائد حزبي واقتصادي كبير.

السجين: صحيح! ثم أن مهاجمة خروشوف لستالين لايجوز أن نفسرها فقط بأن خروشوف لم ينفذ إلى أعماق الماركسية.

ليفيس: الممارسة هي أصدق مقياس للحقيقة فكيف انحرف الرفيق؟

السجين: ربما لعبت المصادفة والاستياء الشخصي من ستالين دوراً مشؤوماً في هذا الصدد.

لينين: المصادفة أم للاستياء؟

السجين: في عام ١٩٩١ نشرت مجلة «الحرس الفتي» مقالة تلقي فيها الضوء على دوافع سلوك خروشوف بعد موت ستالين. وتتلخص القضية في أن ابن خروشوف من زوجته الأولى وقع في أسر الألمان.

لينين: هذا ليس سبباً للاستياء. فابن ستالين وقع في الأسر أيضاً، والحرب هي الحرب.

السجين: ولكن ابن خروشوف، بعكس ياكوف، بدأ يتعاون مع الفاشيين. وكان يخاطب المقاتلين السوفييت بمكبر الصوت، ويدعوهم إلى الاستسلام للأسر دون أن يكتم في أثناء ذلك أنه ابن خروشوف عضو المجلس السياسي لجبهة ستالينغراد

لينين: يا له من ابن كلب!

السجين: وعندما أخبروا ستالين بهذا أصدر أمراً باختطاف الأسير بمساعدة المقاتلين الأنصار. ونفذ الأنصار أمر القائد الأعلى للقوات المسلحة، ولكن في أثناء الانسحاب من مواقع القتال باغتتهم مجموعة معادية ونشبت معركة ضارية، واتصل الأنصار بالقيادة بواسطة اللاسلكي، ووصل الخبر إلى ستالين، وكان جوابه جواب الإنسان الذي يخوض الحرب بعزم المستميت الذي لاتلين له قناة: «يجب أن نفكر قبل كل شيء في جنودنا».

وقد كلفت هذه الكلمات الخائن حياته. وأعدموه رمياً بالرصاص. وينبغي الاعتقاد أن خروشوف، وإنّ كان ينظر إلى ستالين بعينين مفعمتين بالإخلاص والولاء، كان يكتم في نفسه استياءه بسبب موت ابنه، كخنجر مخبأ وراء الظهر.

لينين: وهل تحدث عن هذا في المؤتمر العشرين؟

السجين: لا، بالطبع.

لينين: ماهي الاتجاهات الرئيسية التي احتواها التقرير؟

السجين فضح تقديس شخصية ستالين، واتهامه بالقمع الجماعي، ونقد الموضوعة القائلة بضرورة تعزيز ديكتاتورية البروليتاريا مع التقدم في بناء الإشتراكية. في الحقيقة غيّر تقرير خروشوف كل التاريخ السوفييتي.

لينيسو وكيف انعكس هذا على الوضع في البلاد؟

السجين تنبغي الإشارة إلى أن خروشوف شنّ قبل المؤتمر حملة تطهير في الحزب لم يسبق لها مثيل ففي أوكرانيا وحدها نحي عن العمل ٩ آلاف سكرتير لجنة حزبية، وفي جورجيا نحو ٢٥٠٠ وبعد المؤتمر الذي أعلن فيه عن إخلاء سبيل ٧ آلاف معتقل من الذين تعرضوا لأعمال القمع بسبب نشاطهم المعادي للسوفييت، بادر خروشوف على الفور إلى إعلان الحرب على «الكتلة المعادية للحزب» التي ادعى أنها تشمل فوروشيلوف ومولوتوف ومالينكوف وحتى بوديوني. و«طهّر» الحزب من الكوادر الملتزمة بالمواقف الماركسية ـ اللينينية. وكان خروشوف يدرك أن هجومه المسعور على ستالين قد أحدث خيبة أمل عميقة في أوساط الجماهير الواسعة، وإن تصديق هذه الجماهير له بالذات يتطلب شيئاً جوهرياً وحقيقياً أكثر من التقارير والدعاية وإعادة الاعتبار «لضحايا الإرهاب الستاليني»: فقد كانت الدعاية الخروشوفية بحاجة إلى نجاح اقتصادي، وذلك لأن الشعب اعتاد التحسين الثابت لحياته في عهد ستالين. وما أن قام خروشوف بأول قفزة له في مجال الاقتصاد حتى تبين للشعب بوضوح أن المناصب العليا في الحزب والدولة يشغلها شخص إرادوي. فقد قرر خروشوف بناء الشيوعية في القرية دفعة واحدة. فأمر بجمع المواشي الخاصة التي يملكها الفلاحون في قطيع عام وقلص مساحات المباقل الخاصة وفرض ضريبة على أشجار الفاكهة في الأحواش الريفية. وأدى هذا إلى تحول جماهير واسعة من منتجين للمواد الغذائية إلى مستهلكين لها. وسرعان ما تشكلت حول خروشوف حلقة من المستشارين الاقتصاديين (زاسلافسكايا، أبالكين وسواهما) الذين راحوا يدفعونه نحو المزيد من المغامرات. ووفقاً للوصفات التي وضعتها زاسلافسكايا بدأ تجميع الكولخوزات والسوفخوزات في استثمارات كبيرة، وإزالة القرى الصغيرة التي «لامستقبل لها». وهكذا

قوضت الجذور التاريخية لفئة الفلاحين الروس ولكن بفضل الأسلوب الإشتراكي في الانتاج، وبفضل «الاندفاع الذاتي» الذي كان قد بدأ في الثلاثينيات كانت البلاد لاتزال تحرز نجاحات باهرة: فقد كان الانسان السوفييتي هو أول من بلغ الفضاء الخارجي. وكانت تشاد مراكز طاقية جبارة، وتستصلح ملايين الهكتارات من الأراضي البكر. بيد أن وتائر نمو الانتاج بدأت تتباطأ. وأصبح تخفيض الأسعار السنوي مجرد ذكرى سارة. وفي بداية الستينيات اندلعت في البلاد أزمة غذائية.

لينيسون: مجاعة؟

السجين: ليس تماماً بل من الأصح القول نقص في الأغذية. وتنفيذاً لأمر مباشر صادر عن خروشوف بدؤوا بزراعة الحقول بالذرة مقلصين المساحات التي كانت تزرع قمحاً وجوداراً الخ.. أما الخبز الذي كان حتى ذاك الوقت يقدم في المطاعم الاجتماعية مجاناً فقد بدأ يختفي من مطاعم المعامل. وتقلص كثيراً انتاج اللحوم، وأصبحت المواد الغذائية توزع بالبطاقات في كثير من المدن. وبدأت الاضطرابات في صفوف العمال. واضرب عمال مصنع القاطرات الكهربائية الضخم في مدينة نوفوتشيركاس. وأخمد خروشوف التمرد بالدبابات. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تستخدم فيها دبابات الجيش السوفييتي ضد الشعب السوفييتي. وقد حدث هذا في عهد «بشير الديمقراطية» كما يسمون خروشوف الآن. وكان الشعب يضحك من فاضح «تقديس شخصية ستالين» الذي كان يعلق على صدره أربع نجمات ذهبية ـ أوسمة بطل الاتحاد السوفييتي وبطل العمل الإشتراكي. وكان العمال «يمسّحون» بصوره الضخمة التي نشرتها «البرافدا» بمناسبة عيد ميلاده الستين. لقد لفظ الحزب هذا المغامر من بين صفوفه.

لينيسون: إن ارتكاب مثل هذه الأخطاء والإجراءات الشاذة كان ينبغي أن يقلق الشيوعيين في جميع البلدان. فالوضع، كما أفهم، كان ينطوي على خطر يهدد قضية ثورة أكتوبر الإشتراكية العظمى التي هي ملك للكادحين في جميع البلدان. فكيف كان رد الفعل على اصلاحات خروشوف في الحركة الشيوعية العالمية؟

السجين: لقد أدت سياسة خروشوف ككل إلى تقويض وحدة المعسكر الإشتراكي الذي تشكل بعد الحرب العالمية الثانية. فبعد المؤتمر العشرين مباشرة تعقدت العلاقات مع الصين الإشتراكية ثم لم تلبث أن اصبحت عدائية سافرة. وبعد ذلك أدى التخلي عن مبدأ ديكتاتورية البروليتاريا، والنقد الضاري لكامل حقبة السلطة السوفييتية في عهد ستالين إلى إجبار قادة الحركة الشيوعية العالمية في البلدان الرأسمالية على الابتعاد عن «الطريق الروسي». وما أن مضى شهر على المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي حتى صرح قائد الشيوعيين الإيطاليين بالميرو تولياتي: «نحن دائماً كنا حريصين على السير إلى الإشتراكية في طريقنا الإيطالي، وكانت عبارة «طريقنا الإيطالي» تعني التخلي عن المبادىء العامة لثورة أكتوبر، ونسيان المقولة الأساسية للماركسية عن الصراع الطبقي. وبدا أن خروشوف الذي خاصم الصينيين قد مدّ يد الدعم للثورة الكوبية. فقد ساعدت بلادنا الثورة الإشتراكية بالسلاح والكوادر. ولكن بعد أن اتفق مع فيديل كاسترو على إقامة صواريخ سوفييتية في كوبا عاد في اثناء أزمة اكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٦١ ليتفق من خلف ظهر الكوبيين مع رئيس الولايات المتحدة الأميركية على فك هذه الصواريخ. وتحولت سياسة التعايش السلمي على صعيد الواقع إلى سياسة تنازلات أمام الامبريالية.

لينيسو: وحتى لو سلمنا «قبلياً» بالعواقب السلبية لسياسة خروشوف فهي لاتفسر لنا من وجهة نظر علمية النكسة التالية التي أصابت الإشتراكية في الاتحاد السوفييتي. لابد من أن يكون السبب أكثر جوهرية، ويمس ملايين الناس، أي أن تفسير ما حدث لايكمن في البنية الفوقية للمجتمع بل في بنيته التحتية.

السجين: موافق. إن الأساس الاقتصادي للنظام في عهد خروشوف، على الرغم من كل إجراءاته الشاذة، ظل كما هو: فالملكية كانت عامة تعود للشعب كله. ولكن على الصعيد الأخلاقي، على صعيد «روح الشعب» كما كان يقول القدماء حدثت تغيرات عميقة. فالإرادوية كانت هي السائدة في السياسة الداخلية والخارجية، ومع الاعتراف قولاً بالدور

القيادي للطبقة العاملة، كان الذي يجري فعلاً هو التمادي أكثر فأكثر في تنحية الكادحين عن الإدارة الفعلية، سواء في المجموعات العاملة أو في البلاد ككل. كان كل شيء يخضع لمزاج ونزوات شخص واحد وحفنة المحيطين به ولم يعد للإنسان الكادح أي صوت. وكانت النتيجة أن عزيت جميع أخطاء نهج خروشوف التسلطي برمّتها إلى الحزب الحاكم. والأخطاء كانت كثيرة، والغباء المكشوف كان أكثر، وكانت صورة حزب الشيوعيين تفقد ألقها وتشحب أكثر فأكثر مما يبعث في نفوس الجماهير الشعور باللامبالاة وخيبة الأمل.

لينين: وهذا عدل: فالحزب الذي يصبر على الخونة المسكين بزمام السلطة يخون نفسه.

السجين: كان الخونة الحقيقيون آنذاك لايزالون ينتظرون فرصتهم المناسبة. وفي عام ١٩٦٤ اغتنمت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي مناسبة وجود خروشوف في القرم للاستجمام، وقررت في دورتها المنعقدة في غيابه إعفاءه من مناصبه. ولم يدافع عنه أحد على الإطلاق.

وانتظرت البلاد والعالم كله بتوتر ما سيحدث بعد ذلك

لينين: هل اشركتم في إدارة البلاد ملايين البروليتاريين في المصانع والحقول والمخابر العلمية؟

السجين: أواه! بل ازدادت تنحية الكادحين أكثر فأكثر عن إدارة الدولة وكان يُبت بجميع الأمور في «الأعلى». أو بعبارة أدق، كان كل شيء يتوقف إلى حد كبير على إرداة شخص واحد. فبعد خروشوف انتخب ليونيد بريجنيف لمنصب السكرتير العام للحزب.

لينين: هذا لا أعرفه بالمرة.

السجين: قائد حزبي نموذجي من الذين كانوا يقودون الأجهزة السياسية في الجيش السوفييتي إبان الحرب. كان سكرتيراً أول للجنة المركزية في مولدافيا، ثم في كازخستان. وقد قاد المنظمة الحزبية في كازخستان إبان استصلاح الأراضي البكر والبور في الجمهورية. وهو على العموم لم يكن بالشخص السيء ولكن كانت لديه نقطة ضعف واحدة:

فقد كان يحب المتملقين والأوسمة. فخلال السنوات الخمس عشرة التي قضاها في السلطة علقوا على صدره نحو مئة وسام: محلية وأجنبية. أما عن عدد المتملقين فليس بالإمكان سوى التخمين. وبالطبع كان لهؤلاء المتملقين مصالحهم، وأغراضهم الخاصة. وبدأ في اللجنة المركزية وفي اللجان المنطقية والإقليمية والفرعية تقديس الامتيازات. وكان هناك رفاق نزيهون، بيد أن الأكثرية انغمست حتى الآذان في مستنقع النزعة الاستهلاكية: أفضل العمارات ومؤسسات التوزيع الخاصة للنخبة بأسعار مخفضة، مستشفيات ومصحات خاصة للقياديين. وكانت كل هذه القذارة تستر بالثرثرة عن أهداف الشيوعيين السامية. أما في الواقع فإن دناءة اللامساواة الامتلاكية والاجتماعية كانت تتكرس بظهور أغنياء جدد.

ليفين: وهل كانت البروليتاريا التي تحمل تقاليد اكتوبر تحتمل كل هذا؟

السجين: إيليتش، ألست أنت القائل في زمانك إن البروليتاريا ثورية بالقوة، وإذا لم يدخل الوعي الثوري إلى الوسط البروليتاري فإن البروليتاريا عمياء، ومهمة إدخال الوعي الثوري إلى الوسط البروليتاري ينهض بها حزب البروليتاريا. بيد أن الحزب نفسه نخره السوس، فتفسخت البروليتاريا معه. لقد كان بريجنيف «موجيكاً طيباً»(١) وقد روى في إحدى مداخلاته في مؤتمر الحزب أنه عندما كان طالباً كان يعمل في تفريغ القطارات التي تنقل السكر ليكسب ما يقيم أوده. وبعد العمل لم يكن يكتفي بالأجر الذي يقبضه بل يأخذ خفية كيس سكر. وقد ضحك أعضاء المؤتمر وصفقوا، ولكن الشعب أوّل ما قاله القائد الأعلى في الحزب على طريقته الخاصة. فبما أن بريجنيف نفسه كان يسرق، فمن باب أولى أن يكون الرب نفسه قد أمرنا نحن بهذا. اسرق إذن بقدر ما تستطيع! عقد السبعينيات يجب أن يدخل تاريخنا بصفته عقد النهب العام. فقد ألغي في الواقع مفعول مقولة الدستور الاشتراكي

---

١ - كلمة «موجيك» هنا تعني شخصاً بسيطاً من عامة الناس.

التي تنص على أن الملكية الاجتماعية مقدسة ومصونة. وقد روى لي أحد معارفي المقربين، وهو من خريجي كلية بيولوجيا التربة، إنه بعد أن أنهى الجامعة ذهب بكل سرور للعمل في الكولخوز. وفي نهاية يوم عمله الأول رأى الكولخوزيين يتوجهون إلى الباص الذي سينقلهم إلى منازلهم وقد حمل كل منهم كيساً أو صندوق سفر. أما هو، الرومانتيكي، فقد كان فارغ اليدين. وسيطر على الباص صمتٌ ينذر بالشر. وفي اليوم التالي لم يلق أحد عليه التحية. وقد فطن صاحبي لحقيقة الأمر. وقبيل المساء حصل على كيسين، وملأ أحدهما بعرانيس الذرة والآخر بالبزر وحملهما على كتفيه (مما جعل عروق رقبته تبرز من شدة التوتر) وسار نحو الباص. فأخذ الكولخوزيون يصيحون بابتهاج متضاحكين: ـ انظر! إذن أنت من جماعتنا، وكنا نظن أنك مخبر». أحدهم كان ينهب بالحقيبة، وآخر بالأكياس، وثالث بالمقطورات.

لينين: وأية سلطة سوفييتية هذه؟ ياللشيطان! إن هذا انتصار للطبيعة البرجوازية الصغيرة. أما السلطة السوفييتية فإنها تبدأ حيث الكادحون ـ العمال والفلاحون ـ بدءاً بالمجموعة العاملة، يضعون تحت رقابتهم كل كيلوغرام من القمح والفحم، وكل مسمار ولوح خشب. وإلاّ فإن الذي يعمل بشرف، والذي ليس بمقدوره أن يسرق يجد نفسه مصنفاً في خانة الأغبياء. إن السلطة السوفييتية هي سلطة الناس الشرفاء العاملين.

السجين: هل تذكر: «عليك أن تكون قادراً على التعامل مع المادة البشرية الموجودة في الواقع. لن يعطونا أناساً آخرين».

لينين: نعم، هذه كلماتي. ربما ليست هي حرفياً، ولكن المعنى منقول بشكل صحيح.

السجين: باختصار، في عهد بريجنيف أصبح كون المواطن شريفاً يعني خسارته اقتصادياً. فمن المعروف أن ستالين كان يربي في النفوس الشرف والنزاهة معتمداً في ذلك على القانون الصارم الذي ينص على حماية الملكية الاشتراكية: من يسرق حفنة قمح فلن ينجو من السجن والمعسكرات.

لينين: قانون صارم لكنه عادل.

السجين: ومع ذلك فإن الشرف ـ كلمة عاطفية. وربما كان بريجنيف في الحصيلة النهائية على حق: فمن منا بلا خطيئة؟ ....

لينيسو: إيه، يا عزيزي! أنت بهذا تبرئ جميع اللصوص في العالم.

السجين: أنا في الحقيقة أريد أن أقول أن رفيقي خريج كلية بيولوجيا التربة على سبيل المثال، لم يغرق، مع ذلك، في القذارة. فهو اليوم، وبعد مرور ٢٥ سنة على تلك الحادثة، من أشرف الناس وأنزههم، وهو مستعد لأن يشرك الآخرين في آخر قميص لديه.

لينيسو: إن رفيقك استثناء سار يؤكد القاعدة البشعة. فاللص هو الذي يكون مستعداً لسلبك آخر قميص لديك لأنه لص.

السجين: لست موافقاً! فاتخاذ موقف واحد من النفسية الإنسانية يعني خيانة المثل الشبوعية من الجانب الآخر.

لينيسو: في اعتراضك بعض الحقيقة. فالرأسمالي كفرد يمكن أن يكون إنساناً رائعاً. والأمثلة على ذلك كثيرة: انجلز، سافا موروزوف... ولكن طبقة الرأسماليين ككل لن تغير طبيعتها اللصوصية الجشعة أبداً. وأبشع ما في الأمر هو أن هذه الطبقة تعدي دائماً من يحيط بها بشهوة الإثراء.

السجين: هنا يكمن لبّ القضية! ففي جو النهب العام ظهر عدد غير قليل من الحاذقين في تدبير الأعمال الخاصة الذين استطاعوا كسب الملايين بأساليب غير مشروعة. وأخذ ساعد رأسمال الظل يشتد، واتصل بالعلية الحزبية الفاسدة التي تحلم بأن تعيش «بجمال». وسرعان ما فهم كل منهما الآخر وراح هؤلاء وأولئك يسكرون معاً ويقيمون الحفلات الماجنة في الاستراحات والوهاد وبيوت الصيد، وهم يضحكون باستهزاء وقح من «الدواب» الذين يكدحون حتى تعرق جباههم. في البداية كانوا يتوارون عن أنظار الناس، ولكنهم فيما بعد تمادوا في الوقاحة وأخذوا يحلمون بصوت متعال أكثر فأكثر بالجنة الرأسمالية حيث لاتوجد تقييدات تضيّق على الأشخاص «ذوي القدرات العملية». وهكذا ترعرعت في داخل الإشتراكية في ظل تغاضي الحزب الحاكم طبقة تكره كل شيء سوفييتي، ولاسيما سلطة الكادحين. وفي هذا الوقت بالذات جاء ميخائيل غورباتشوف.

لينين: بم جاء وما الذي كان يكنه في نفسه؟

السجين: لم تكن لغورباتشوف أية أعمال علمية. وكان مجرد ديماغوجي حزبي نموذجي ورجل دساتس من الطراز الخروشوفي. وتدل الشهادات العديدة التي أدلى بها قادة الجمهوريات السوفييتية أن غورباتشوف لم يتخذ قط موقفاً مبدئياً من المسائل المعقدة. كان يقول لأحدهم شيئاً، ويقول لآخر نقيضه تماما مثلاً، كان يهاجم امتيازات القيادة بالأقوال، فيما يبني لنفسه بأموال الدولة قصراً في فوروس لم يكن القيصر ليحلم بمثله. وقد بدأ غورباتشوف نشاطه في منصب السكرتير العام بإعادة البناء والتسريع.

لينين: في زمننا أيضاً كان هناك عدد غير قليل من هواة إعادة البناء والهدم.

السجين: إعادة البناء في هذه المرة اتخذت أبعاداً عالمية: فلم يقتصر زخمها على الاتحاد السوفييتي فحسب، بل امتد إلى العالم بأسره. وانهمرت التصريحات الطنانة كشآبيب المطر: عالم بدون سلاح نووي حتى عام ٢٠٠٠، لكلّ أسرة سوفييتية شقة مستقلة، مضاعفة طاقة البلاد الصناعية خلال خمس عشرة سنة، تجاوز اليابان في إنتاج السيارة الخفيفة (السياحية). وقد قال آنذاك أحد نواب الشعب القادمين من الشمال: «البيرويسترويكا كالريح في غابات التايغا: في الأعلى ضجيج وفي الأسفل هدوء». كانت البرامج الغورباتشوفية الطنانة التي تنشر على نطاق واسع سرعان ما تنفقىء كفقاقيع الصابون، ولم يكن يجري أي تغيير في القاعدة. ولم يقتصر الأمر على عدم إشراك الجماهير في إدارة البلاد، بل كان الذي يجري هو العكس، إذ كانت الجماهير تُقصى عن السلطة ويشغل مكانها في السوفييتات الديماغوجيون وأعداء السوفييت المكشوفون. وانحدرت البلاد نحو الهوة. وقد قال أحد النواب العمال لغورباتشوف مرة: «إلى حيث توجّه المقود تسير المركبة».

لينين: أرأيت. العامل لاينخدع بالمظاهر!

السجين: أواه! لقد كان يروق لزوجة غورباتشوف لا أن تزور ورشات المصانع، بل أن تتجول في عواصم الدول الرأسمالية وتطوف على أشهر

المحال هناك وسرعان مالاحظ الصحفيون أن رايسا تفضل شراء فساتينها بالدولار: بدون طوابير، وبطريقة حضارية وأنيقة. ولاأدري من الذي أوحى إلى غورباتشوف ما أوحى: أزوجته أم مستشاروه؟ ولكنه قرر التبرؤ نهائياً من الإشتراكية، وصاحت الصحف كلها بصوت واحد: الاصلاحات السوقية

لينيس: ما المقصود بهذا؟

السجين: الاصلاحات التي تحوّل وسائل الانتاج إلى الملكية الخاصة وتفسح المجال للمنافسة بين أصحاب المشاريع الحرة.

لينيس: أي عودة الرأسمالية؟

السجين: إنهم حتى الآن يستحون أن يقولوا هذا صراحة.

لينيس: ولكن هذا لايغير جوهر الأمر.

السجين: لايغيره.

لينيس: وكم كان عدد الشيوعيين في الحزب آنذاك؟

السجين: نحو ١٩ مليون شيوعي.

لينيس: اسمح لي، اسمح يا عزيزي، ألم يزلّ لسانك؟

السجين: ١٩ مليوناً.

لينيس: بمثل هذا الجيش يمكن إزاحة الجبال

السجين: ألست أنت القائل: السلطة مفسدة؟

لينيس: نعم هذا قولي! لذلك كنت أنبه إلى ضرورة إعادة تنظيم التفتيش العمالي ـ الفلاحي، والوصول بعدد العمال الصناعيين في اللجنة المركزية إلى المئة. وتعيين الحد الأقصى الحزبي لرواتب الرفاق القياديين، والدراسة المعمقة لنظام تعاقب الكوادر وحلول بعضهم محل بعض. ثم هنا الأمر الأهم الذي يتعذر بدونه بناء مجتمع عادل، وهو أن السلطة السوفييتية يجب أن تبدأ في مكان العمل. وبدون هذا، أي بدون إشراك ملايين الكادحيين في إدارة البلاد، تحكمون على أنفسكم بالانقراض. كما أن انتاجية العمل ـ وهي أهم عامل لازم لانتصار النظام الاجتماعي الجديد ـ تزداد حتماً عشرات المرات عندما يحوز العامل على إمكانية فعلية للتأثير في أوضاع شؤون الانتاج، ويشارك في توزيع نتائج العمل.

السجين: يتبين من ذلك أن غورباتشوف لم يقرأ مقالتك بالمرة. على الرغم من أنه كان يتحدث كثيراً عن أن النيب (السياسة الاقتصادية الجديدة) هي «قمة الفكر اللينيني» وهي «إعادة نظر جذرية في نظرتنا إلى الإشتراكية».

لينين: «النيب» كانت تراجعاً مؤقتاً شريطة أن يكون زمام السلطة السياسية في أيدي البرولتاريا، بينما الاقتصاد لايزال متعدد الأنماط.

السجين: مالبث غورباتشوف أن انسجم مع أساطين المال والأعمال في العالم الرأسمالي، ولم يتهاون هؤلاء في انتهاز الفرصة المتاحة لهم «من أجل خنق الثورة البلشفية». وبيدي غورباتشوف نفسه انتزعوا السلطة السياسية نهائياً من أيدي الكادحين وراحوا ينهبون ممتلكات الشعب العامة.

لينين: ولكن ألم يجد الحزب في نفسه العقل والإرادة القادرين على الوقوف علناً في وجه المرتدين؟

السجين: وكيف لا، لقد وجد. وحتى في المكتب السياسي وقف يغور ليغاتشوف، على سبيل المثال، حتى النهاية مدافعاً عن مصالح الكادحين الطبقية، ولكن حتى هو لم يجد في نفسه الجرأة لفضح غورباتشوف نفسه وإصلاحاته علناً. ومن بين أعضاء الحزب العاديين حققت مدرّسة الكيمياء في معهد لينينغراد التكنولوجي نينا اندرييفا مأثرة حقيقية. فقد فضحت في رسالتها التي نشرتها صحيفة «سوفيتسكايا روسيا» بعنوان «لايمكنني التفريط بالمبادىء» طابع الاصلاحات المناهض للسوفييت والمعادي للكادحين، وقرعت بهذا ناقوس الخطر الذي حرض الكثيرين على النهوض.

لينين: وهل أيدت «البرافدا» اندرييفا؟

السجين: في اليوم التالي لنشر الرسالة نشرت «البرافدا» عرضاً لردود فعل الشيوعيين: نصفهم أيدها، ونصفهم عارضها. وفي اليوم الذي تلاه بدأ نفث السموم ضد اندرييفا دون أن يكون لها حق الرد. وفي ذاك الوقت كانت النزاعات الوحشية بين القوميات تمزق البلاد: كل جهة كانت تشد لحاف الملكية والسلطة صوبها. ولم يجتمع المكتب السياسي

لمناقشة هذه المشكلات في حين ناقش رسالة أندرييفا على مدى يومين كاملين، وبغيابها طبعاً. وكان المبادر إلى ذلك «أكاديمي» يدعى ياكوفليف، ولم ينف ياكوفليف هذا فيما بعد صلته بالأجهزة الخاصة الغربية. وقد نشرت «البرافدا» القرار الشديد اللهجة الذي صدر عن المكتب السياسي غفلاً.

لينيس: ماذا تعني؟

السجين: الوثيقة لم توقع. وهذا يدعو إلى الاستنتاج انها قد كتبت بقلم ياكوفليف نفسه بدعم من غورباتشوف المختبىء خلفه بجبن

لينيس: باللأوباش! يااللأوغاد السفلة! ألم يوجد في الحزب شيوعيون قادرون على الدفاع عن المرأة؟ هل خافوا العراك؟

السجين: كان يوجد أمثال هؤلاء. ليسوا كثيرين لكنهم موجودون. وحتى دون وجود مركز تنسيق تشكلت مراكز لمقاومة نهج السوق الغورباتشوفي في موسكو وبطرسبورغ، ونوفوسيبيرسك وكراسنودار وسفيردلوفسك ومينسك وريغا. ولم يخل الأمر من الغرور والطموح الشخصي، فقد ظهر في بطرسبورغ عدة مجموعات دفعة واحدة.

لينيس: أي ظهرت «الشللية»

السجين: بما أن أغلبية أعضاء اللجنة المركزية «انبطحت» أمام كتلة غورباتشوف وياكوفليف وشيفاردنادزه المعادية للشيوعية فقد كان من الصعب تفادي ظهور «الشللية». ومع ذلك فقد انعقد في بطرسبورغ في الثاني والعشرين من نيسان عام ١٩٩٠ المؤتمر الأول لحركة المبادرة الشيوعية. وحضر هذا المؤتمر مندوبون من ٦٠ ـ ٧٠ منطقة في البلاد. وطالبنا بإنشاء الحزب الشيوعي الروسي للتمكن من الوقوف في وجه اللجنة المركزية الغورباتشوفية. وقد حظيت الفكرة بتأييد أكثرية المنظمات الحزبية الروسية كما أيدها شيوعيو الجمهوريات السوفييتية الأخرى.

وفي المؤتمر الثامن والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي نظم رفيقنا فيكتور تيولكسين من بطرسبورغ معارضة لغورباتشوف وصوت ١٢٥٠ مندوباً من أصل ٥٥٠٠ مندوب ضد الانتقال إلى اقتصاد السوق

(الرأسمالي). لم نستطع جمع أصوات الأكثرية ولكن واقعة إعلان المعارضة عن نفسها صراحة كان لها أهمية كبيرة.

لينين: وهل تم إنشاء الحزب الشيوعي الروسي؟

السجين: مباشرة بعد المؤتمر الثامن والعشرين. وقد بذل غورباتشوف وياكوفليف كل ما بوسعهما ليدخلا أنصارهما إلى اللجنة المركزية. ولكن نهج غورباتشوف الذي أفضى إلى تفكك البلاد ودفعها إلى التعلق برأس المال الأجنبي تعرض في المؤتمر التأسيسي إلى نقد كاسح جعل غورباتشوف يستنكف عن إلقاء كلمة أمام المندوبين في إطار المؤتمر. وطبعاً نشبت معركة في المؤتمر التأسيسي، فقد كان الوفد الموسكوفي كله يتألف من «الديمقراطيين»، وكان السكرتير الثاني للجنة لينينغراد المنطقية بيلوف وغيره يطالبون بتصفية حزب الطبقة العاملة، ويصرون على تحويله إلى حزب إصلاحات برلماني توافقي. ومن البدهي أن الصحافة والتلفزيون كانا يدعمان الجناح المناصر لغورباتشوف. وانتصر «المستنقع»[1]، ولم تتمكن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي خلال سنة من وجودها أن تنظم شؤون إصدار صحف خاصة بها، وراحت الصحافة تضطهد السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب إيفان بولوزكوف مجردة إياه من إرادة المقاومة.

لينين: وماذا عن غورباتشوف؟

السجين: كان غورباتشوف في ذاك الوقت قد منح جائزة نوبل للسلام. وقد بدت هذه الخطوة كسخرية من التفكير السليم. ففي بلادنا كانت قد بدأت الحروب بين القوميات، وكانت جميع «حيتان الامبريالية» تصفق لغورباتشوف: فهو قد خرب المعسكر الاشتراكي، وانتزع من الشعب ثمار انتصاره في الحرب الوطنية العظمى. وكانوا يمدون له يد العون من نيويورك ولندن وبرلين. وأصبحت رئيسة وزراء انكلترا مارغريت تاتشر عرابته. وقد زارت بلادنا وفتح لها التلفزيون ذراعيه لتدعو الشعب علناً إلى «إنهاء علاقته بالماضي البلشفي». وقد كرر

---

١ ـ كان لينين يسمي الاتجاه الوسط «المستنقع».

كرر غورباتشوف مرتين خلال مفاوضاته مع الرئيس الأميركي عبارة أذهلت كلا الجانبين المفاوضين: «إننا نريد العيش في تبعية أكبر لأميركا». كانوا يصفقون له ويساعدونه. وكان معارضوه يجدون أنفسهم دون أموال ويتعرضون لقصف مستمر من جميع مدافع وسائل الاعلام. وفي نيسان عام ١٩٩١ انعقدت دورة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، وطرح رفاقنا في هذه الدورة مسألة الثقة بالسكرتير العام. ونظمنا، نحن الأعضاء العاديين، «مظاهرة مرابطة» عند برجٍ سباسكايا في الكرملين، ووزعنا على جميع أعضاء اللجنة المركزية منشوراً صادراً عن حركتنا نقول فيه: «غورباتشوف ــ حفار قبر الحزب والإشتراكية! اطردوه من الحزب فوراً». ومما يدعو للأسف أن ستة أعضاء فقط من أصل ١٨٠ عضواً في اللجنة المركزية صوتوا إلى جانب إقالة غورباتشوف أما الأغلبية، فمع أنها كانت تمد له الاصبع الوسطى خفية، إلا أنها لم تكن تتجرأ على التصريح بموقفها علناً.

لينيـو: كان ينبغي الابتعاد عن مثل هذه اللجنة المركزية فوراً.

السجين: وهذا مافعلناه. ففي الثاني والعشرين من نيسان عام ١٩٩١ انعقد المؤتمر الثاني لحركة المبادرة الشيوعية حيث شكلت هيئة تنظيمية للدعوة إلى عقد مؤتمر طارىء للحزب الشيوعي السوفييتي. وقد ترأس الهيئة عضو اللجنة المركزية للحزب السوفييتي الدكتور في العلوم الاقتصادية الكسي الكسييفتش سيرغييف وكانت مبادرتنا تضرب في الصميم وبشكل مباشر. وقد أيدها عدد من المنظمات الحزبية الكبيرة ومنها منظمات منطقية. وفي أثناء ذلك استطعنا أن نسبق غورباتشوف ونعد مشروع برنامج الحزب انطلاقاً من مواقع طبقية بروليتارية لطرحه للمناقشة. وبهذا كان لابد لغورباتشوف وزمرته من أن يلاقوا مصيرهم المحتوم. وفي هذه الظروف اضطر غورباتشوف إلى الاسراع في إعداد المعاهدة الاتحادية الجديدة ليبقى في سدة الحكم. ولكن بما أن قادة الجمهوريات الاتحادية لم يكونوا راغبين في السير في ركاب غورباتشوف، أو على الأصح في ركاب يلتسين (فالذي كان يأمر وينهي في روسيا فعلاً توأم غورباتشوف الإيديولوجي يلتسين) فإن القضية ظلت

تراوح في مكانها وتفككت الدولة العظمى ليزداد سرور ريغان وبوش وكول وتاتشر وبريجينسكي واشباههم ومن لف لفهم. ولعبت نصائح هؤلاء دوراً معيناً في تدبير انقلاب زائف في آب وقد اصطبغ هذا الانقلاب بصبغة العداء الواضح للسوفييت والشيوعية وقام حشد مخمور من أنصار يلتسين، وبالتالي من أنصار انهيار الاتحاد السوفييتي بتدمير تماثيل دزيرجينسكي، وسفيردلوف وكالينين واستولت زمرة من «الزعران» ذوي الأساليب الفاشية على مبنى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي. واندفع الرجعيون إلى الشوارع، وفاحت في الجو رائحة المذابح وظهرت آثار السياسة التوافقية والوسطية التي انتهجتها لجنة مدينة موسكو الحزبية فقد أدت هذه السياسة إلى عدم قيام أية مجموعة عاملة في المدينة بمقاومة العربدة الرجعية. ومضى أسبوعان قبل أن يتاح لحركة المبادرة الشيوعية أن تنظم اجتماعاً حزبياً علنياً في العراء في مركز مدينة موسكو. ولم يحضر هذا الاجتماع أي من «الزعماء» الحزبيين. ومع ذلك فقد انعقد في تشرين الأول عام ١٩٩١ مؤتمر (كونفرنس) لشيوعي موسكو تم فيه تأسيس منظمة الشيوعيين الموسكوفية. وفي تشرين الثاني من العام نفسه انعقد في سفيردلوفسك (يكايتريبنبورغ) المؤتمر التأسيسي لحزب العمال الشيوعي الروسي إن راية البروليتاريا الحمراء ترتفع للنضال وإنْ بمشقة

لينين: هل نجحتم في توحيد جميع الشيوعيين الحقيقيين في حزب واحد؟

السجين: للأسف، لا. فهناك الحزب الشيوعي (البلشفي) لعموم روسيا برئاسة نينا أندرييفا، وحزب الشيوعيين الروسي برئاسة كروتشكوف، واتحاد الشيوعيين ـ الحزب الشيوعي السوفييتي برئاسة أوليغ شينين وتعمل هذه الأحزاب على التقارب عبر تجاوز المطامح الشخصية ولكن الوضع أسوأ مع الحزب الشيوعي لروسيا الاتحادية برئاسة غينادي زوغانوف. فهم يؤيدون التوحيد بالأقوال بينما يعملون فعلاً على إحياء نهج غورباتشوف المتوجه نحو السوق الرأسمالية، ونحو التوافقية والتكيف مع الرأسمالية تحت يافطة جديدة. فلماذا التوحد معهم؟

ألكي نحصل على بضعة مقاعد في مجلس الدوما، ونجتر العبارات التالية ونحن نتصنع هيئة الأذكياء: «عظمة روسيا، كيان الدولة، الشعبية، الوطنية»، مبررين بذلك تصفية السلطة السوفييتية، وإقامة الدكتاتورية الخ...

لينين: قل لي، لماذا تورطتم في الإشتراك بهذا «العصيان الراكع» الآخر الذي أعلنه برلمان روسيا؟ فقد كان من الواضح تماماً أن البرلمان، حتى وهو يواجه الدكتاتورية القادمة، لن يقدم على إلغاء معاهدة «بيلايافيجا»(١) ولا على الحد من «حق الملكية الخاصة المقدس». وأقصى درجات ثوريته: توزيع قطع أرض على سكان موسكو ليبنوا عليها دارات صيفية.

السجين: على كل هناك نقطة واحدة في موقف السوفييت الأعلى تتسم بأهمية كبيرة حسب تصوري، وهي أن البرلمان ومؤتمر نواب الشعب شجبا انتهاك رئيس الجمهورية يلتسين للدستور، ونحياه عن منصبه. وكان هذا تأكيداً لتساوي المواطنين أمام القانون بغض النظر عن ملكياتهم ومناصبهم. إن هذا الموقف الثوري العظيم يعبر عن أماني ملايين الناس وبالدرجة الأولى أناس العمل. لذلك جاء الشعب إلى مبنى السوفييت الأعلى ليحمي الدستور لاليدافع عن حسبولاتوف أو عن روتسكوي.

وأنا أعتقد أن واجب الشيوعيين هو أن يكونوا مع الشعب حتى عندما يكون الشعب على خطأ. تذكر المظاهرة التي اندلعت في تموز عام ١٩١٧ في بيتروغراد. لقد شعرت أنت آنذاك أن من المحتمل حصول استفزاز مبيّت، ومن المحتمل إطلاق النار على الناس العزل ومع ذلك قلت: «ينبغي السير معهم. لايجوز الانعزال عن الشعب». لقد تذكرنا كلماتك.

---

١ - «بيلايا فيجا»: اسم المسرح التاريخي في بيلوروسيا الذي شهد في ١٩٩١/١٢/٨ توقيع معاهدة إنشاء رابطة الدول المستقلة وإلغاء معاهدة تأسيس الاتحاد السوفييتي. وقد وقعها كل من يلتسين عن روسيا وكرافتشوك عن أوكرانيا وشوشكيفتش عن بيلوروسيا.

ربما كان من الواجب في وضعنا الحاضر الإصغاء إليها باحتراس. ولكن كيف كنت ستتصرف لو كنت مكاني؟

لينين: كان ينبغي إرسال جميع الدعاة الحزبيين إلى بوابات المصانع والمعامل.

السجين: لقد فعلنا هذا ونفعله وسنفعله.

لينين: ثم إنني كنت سأنصح بأن ...

في الساعة ٦ حسب توقيت موسكو في ٣٠ كانون الثاني عام ١٩٩٤ من العصر الجديد، ارتفعت قعقعة الطاقة وهي تفتح في الباب الحديدي للزنزانة رقم ٣٢ في سجن ليفورتوفو:

«نهوض!».

الفصل الثالث عشر

ألقي بهذا الكتاب،
في دوامة الحروب كقارورة في لجة الموج،
فلينتقل ـ كشمعة العيد،
هكذا: من يد إلى يد.

ـ م. تسفيتايفا ـ

الوليمة

في ٣ شباط عام ١٩٩٤ من العصر الجديد حسب توقيت موسكو تفتح الطاقة في الباب الحديدي للزنزانة رقم ٣٢ في سجن ليفورتوفو: «مبيت!» وتمتلىء الزنزانة بالفلاسفة الإغريق ومعهم هيجل ولينين.

السجين: هانحن أخيراً نلتقي في أول خميس في الشهر!

أبيقور: وهل أنت حقاً تؤمن بـ «الأخمسة النقية» و«الاثنينات الثقيلة» وماشابه هذا من السخافات؟

السجين: أنا أؤمن بزوجتي ـ نور حياتي فيرا يميليانوفا، التي يحق لها أن تحضر لي في هذا الخميس طرد زيارة. أترون! في السجن كل شيء مشترك بغض النظر عن عقائد السجناء السياسية: مرتديلا، وبصل، وتفاح، وليمونة من أجل الشاي، ودهن وبسكويت... لنجهز المائدة.

ديوجين: (وهو يفرك يديه بسرور) إذن سنقيم وليمة.

السجين: (يزيح طربيزة ويلصقها بأخرى ويغطيهما بجرائد قديمة) فلتكن إذن وليمة.

لينين: (وهو ينحني فوق جريدة): إيه، ياعزيزي، هنا يوجد كاريكاتور عنك. انظر هذه الرسمة في «الازفستيا»: سجين خلف القضبان يرتدي ملابس خشنة مخططة وبجانبه مجلدات سميكة لماركس وانجلز ولينين، وهو ينظر في أحدها باهتمام وقد تغضن جبينه ويسأل: «أين ارتكبنا خطأ ياترى؟».

السجين: يتهكمون، الأنذال! أو على الأصح يشاكسون، لأن التهكم يفترض العقل.

هيجل: التهكم هو التركيب المطلق لأطروحتين متضادتين مطلقتين، ولذا فهو أسرع وسيلة لمعرفة الحقيقة.

السجين: إن المزحة، حتى وإنْ كانت تفوح منها رائحة سيئة، تظل تحتوي مع ذلك على ذرة من الحقيقة. وهذا هو شأن الكاريكاتور المرسوم هنا في سجن ليفورتوفو لاوجود لمؤلفات ماركس ولينين، ولكن توجد هنا محاضراتك يابروفيسور، وقد عكفت على قراءتها في أثناء وجودي خلف القضبان وهي، إلى جانب قيمتها الذاتية، عرّفتني عن كثب على أشخاص رائعين. إن التعرف على هؤلاء الأشخاص واستشارتهم يشرفان أي إنسان بغض النظر عن الظروف المحيطة به. بالمناسبة، ياإيليتش. هلا ساعدتني في تبديد شك يساورني ريثما ينتهي الضيوف من غسل أيديهم.

لينين: بكل سرور!

السجين: هل ثمة فرق بين مفهومي: ديكتاتورية البروليتاريا وديكتاتورية الطبقة العاملة؟

لينين: دون شك! الطبقة العاملة هي الجزء الأكثر تنظيماً في البروليتاريا بحكم الطابع الاجتماعي للعمل. أما البروليتاريون فهم ذلك الجزء من المجتمع الذي جُرِّد من ملكية الأرض، والمصانع، ووسائط النقل. والثروات الباطنية. إن البروليتاري يمكن أن يكون عاملاً وممثلاً وطبيباً ورساماً وطالباً وهو يرى مصلحته في أن تعود وسائل الانتاج ذات الطابع الاجتماعي على الجميع بمنافع متساوية، لا أن تكون أداة في أيدي الذين يملكون ليستثمروا الذين لايملكون. إن ما تستهدفه دكتاتورية البروليتاريا بالدرجة الأولى هو إلغاء الشكل الخاص للملكية، وتوزيع المنتجات المتحققة توزيعاً عادلاً. ومن البدهي أن طبقة المالكين لايمكن البتة أن تتخلى من تلقاء نفسها عما استولت عليه، بل هي ستقاوم بضراوة ولايمكن للبروليتاريين التغلب على هذه المقاومة إلا إذا تولت الطبقة العاملة المنظمة الواعية قيادة نضالهم. هذا علم كامل ياعزيزي! اقرأ كتابي «الدولة والثورة».

السجين: ولكن، للأسف، ليس هناك تمييز واضح بين الطبقة العاملة والبروليتاريين. وهذه المسألة ذات أهمية استثنائية، وذلك لأن «بروليتاريي العمل الذهني» يناضلون اليوم إلى جانب الطبقة العاملة.

لينيــن: هذا رائع! المهمة تقوم في توحيد جميع البروليتـاريين، وليس في إبراز إحدى فصائلهم. على كل، حان وقت الطعام...

السجين: المائدة لاتتسع للجميع، لذا لابد من الجلوس «آلافورشيت»(١) أرجوكم أشد الرجاء أن تعذروا المضيف عن تواضع الضيافة، فكل مالدي موضوع على المائدة. .

سقراط: الوليمة لاتوصف بالعظمة لوفرة ما تحتويـه من أطعمـة، بـل انطلاقاً من نوعية المتحاورين.

أفلاطون: يجب أن لاننسى أن المتعة الجسدية، بما في ذلك لذة الأكـل، مصدر إغراء شديد يودي بالمرء إلى مهاوي الشر. وفي هذه الخانـة يجب أن نصنف الآلام التي تشكل عائقاً يحول دون الوصول إلى الخير، وبعـد ذلك تـأتي الجرأة الرعنـاء والخوف: هـذا الناصحـان الأحمقـان، ثـم الغضب والأمل الخ..كل هذه المشاعر تنتسب إلى النفـس الفانيـة. ولكـي لايتلوث الإلهي هناك حيث لاتوجد ضرورة مطلقة لذلـك فصـل الآلهـة الأسفلون هذا الفاني عن مكان وجود الإلهـي وأسكنوه جزءاً آخـر مـن أجزاء الجسد. فأنشؤوا بهذا برزخاً وحداً بـين الـرأس والصدر ووضعـوا بينهما العنق وعلى هذا فإن المشاعر والأهواء تستقر في الصدر والقلـب بالذات، أما الروحي فيوجد في الرأس.

السجين: هذا يعني أن أجهزة الهضم وكل الملذات المرتبطة بها لاتنسبها إلى الحسي، ولا إلى الروحي؟

أفلاطون: كل هذه الأجهزة تنتسب إلى الجزء غـير العـاقل مـن النفس، ولذا فهي مجردة من الإلهي ولأن الجزء غير العاقل من النفس يشتهي الأكل والشرب ولايطيع العقل فإن الإله خلق طبيعة الكبد لكـي يخـاف جزء النفس هذا من قوة الأفكار التي تتنزل إلى الكبد كما إلى مرآة تتلقـى الصور الأولى وتظهر الأشباح. ولكي يصبح هـذا الجـزء مـن النفـس بعـد ذلك، عندما يلين من جديد، متصلاً بالرؤى في أثناء الحلـم. وذلـك لأن الذين خلقونا لم ينسوا الوصية السامية للأب بصنع جنس البشر الفانين

---

١ ـ على أنساق كأسنان شوكة مائدة.

في أحسن تقويم فتظموا أسوأ الأجزاء فينا بطريقة تجعل هذا الجزء متصلاً بالحقيقة ولو بعض الشيء، ومنحوه القدرة على التنبؤ.

السجين: لو لم تكن وليمتنا هذه هنا في زنزانة السجن حيث يُحظّر وجود أية مشروبات كحولية لظننت أنك يا أفلاطون قد أفرطت في السراب. فكيف يمكن للكبد أن تتنبأ؟ إن هذا من العبثية اللاعقلانية بحيث لو قلت به في عصرنا لأخذوك حتماً إلى التلفزيون، ولانضممت إلى زمرة السحرة والتخاطريين وقارئي الطالع والمنجمين أو ببساطة الدجالين الذين يصبون سخافاتهم على رأس شعبي شاذ آخر. ولاشك في أن آراءك هذه ستكسبك شهرة لاتقل عن شهرة جونا أو كاشبيروفسكي(١).

أفلاطون: ولكنني اعتبر أن ملكة التنبؤ تبرهن على غياب ملكة العقل. ويكفي، للبرهان على أن الإله وهب ملكة التنبؤ للبشر المحرومين من ملكة العقل، حقيقة أنه لايوجد أي إنسان عاقل له علاقة بالتنبؤ الإلهي والحقيقي، إذ أنّ الإنسان الذي توهب له ملكة التنبؤ هو إما ذاك الذي تكون قوة ذهنه في النوم مقيدة أو ذاك الذي أدى به المرض أو الهوس إلى الجنون. وليس على العاقل سوى أن يفسر أو يؤول هذا التنبؤ، وذلك لأن الذي لايزال في حالة الجنون لايستطيع أن يناقش النبوءة. وقد أحسن من قال قديماً: لاأحد بوسعه أن يعمل عمله ويعرف نفسه سوى الإنسان العاقل.

السجين: هذا يعني أنك لاتعتبر التلفزيون الروسي مذنباً. فهم يقدمون الشاشة للمجانين، وتعمد السلطة إلى إطلاق النار على العاقلين الذين يحاولون أن يتمتعوا هم أيضاً بمثل هذا الامتياز، أما استخلاص النتائج وتأويل مثل هذا الجنون فيظلان مع ذلك من مهام العاقلين.

أبيقور: في الوقت الحاضر لايمكن استشراف المستقبل والتنبؤ به إلا على أساس معرفة قوانين الطبيعة والمجتمع كلما ازداد الناس ثقافة وتعمقوا في معرفة قوانين الطبيعة ازدادت سرعة اختفاء الخرافات

---

١ ـ من التخاطريين المشعوذين المشهورين الذين ظهروا على شاشة التلفزيون الروسي مرات عديدة في عهد البيريسترويكا.

والمعجزات والتنجيم والسخافات المماثلة. يجب علينا أن نعتمد المرئي والمسموع والمحسوس، أن نعتمد ما يمثل أمام الروح ولايكون غريباً عنها، وألا نتحدث عن الأشياء التي يجب أن تكون هكذا. أي أن تكون مسموعة ومرئية ولكنها لاتستطيع أن تكون هكذا، لاتستطيع أن تكون مسموعة ومرئية، لأنها غالباً ما تكون مختلقة ذهنياً. إن كلّ هذا الهراء عن طيران الطائر إلى اليمين (السنوح) إو إلى اليسار (البروح) وعن عبور الأرنب أو الهر الطريق، وكل المتطلبات الغبية التي تقضي بأن يحدد الناس تصرفاتهم حسبما تنبئهم به أحشاء الحيوانات أو على أساس ابتهاج أو إكتئاب الدجاج — إن كل هذه الخرافات يجب استئصالها وذلك لأن الحقيقي هو فقط ذاك الذي يعتبره الإحساس حقيقياً.

هيجل: لاتجوز الموافقة على هذا من الواضح تماماً أننا إذا اعتبرنا الحقيقي هو الوجود المحسوس نكون بهذا قد ألغينا على العموم ضرورة المفهوم، وبهذا يختل كلُّ شيء دون أي معنى ذهني، وتترسخ النظرة العادية الضيقة إلى الأشياء.

لينين: هكذا إذن! هذا يعني أن من ينطلق من الاحساسات والاعتراف بالوجود القائم خارجنا وإنكار الخرافات الغيبية فهو عادي ضيق الأفق. أما من يستمع وهو فاغر فمه وريالته تسيل إلى غيبيات المنجمين وقارئي الطالع والكهنة فهو مثال للإنسان العاقل.

هيجل: القضية هي في أن أبيقور اختار أسهل معيار للحقيقي وهو معيار لايزال مألوفاً حتى الآن بقدر ما يكون الحقيقي غير مدرك بالبصر، وهذا المعيار هو: أن الحقيقي يجب ألاّ يتناقض مع مانراه وما نسمعه الخ... ويفسر أبيقور كل شيء، بما في ذلك النفس، بحركة «ذرات غير مرئية»، فيستبعد بذلك الغاية النهائية للعالم- وهي حكمة الخالق. فليس ثمة شيء سوى الوقائع التي يحددها التصادم الظاهري التصادفي للذرات.

لينين: إنك يابروفيسور تفتري على المادية وتشفق على الإله. فكيف نسميك بعد هذا؟

هيجل: وأنت يعجبك أكثر زعم أبيقور بأن النفس «تجمّع للذرات بشكل معين» لقد قال هذا «لوك» أيضاً... وكل هذا كلام فارغ.

ليفيسون: لا، يابروفيسور. هذه تخمينات عبقرية وإشارات إلى الطريق التي ينبغي أن يسلكها العلم لا الكهنوت. أما أن هذا هو ما يقوله «لوك» فهو أمرٌ رائع!! لقد عاش أبيقور في الأعوام ٣٤١ ــ ٢٧٠ ق.م. وعاش لوك بعده بالفي سنة، في الأعوام ١٦٣٢ ــ ١٧٠٤ الفرق ألفا سنة، ولكن هذا لم يجعل الحقيقة تبلى بتقادم الزمن.

هيجل: يستحيل إيجاد نظرية للمعرفة أهزل من هذه.

ليفيسون: كل شيء يصبح هزيلاً إذا حرّفته وسلبته محتواه.

السجين: دعونا نقلل من النزاع ونهتم أكثر بالوليمة وتبادل الآراء. اقترب يابروفيسور إلى المائدة، لقد أعددت لك شطيرة رائعة من الخبز الروسي الأسود والمرتديلا استرخ ياإيليتش. دع القدماء يحدثونا بأنفسهم عن تخميناتهم العبقرية التي أثبتتها أحدث مكتشفات العلم في القرن العشرين من العصر الجديد. وها هو شيشرون يقرر قبل إينشتاين بـ ٢٤ قرناً وجود صلة متبادلة بين المادة والطاقة، وكان يسمي هذه الأخيرة: النار.

هيجل: وحتى قبل شيشرون عبّر عن هذه الأفكار كل من ستوبيس وهيرافليطس اللذين سمّيا النار العنصر المفضل على سائر العناصر الأخرى لأن كل ماسواه صدر عنه باعتباره البداية الأولى. ولكن العناصر الأخرى تعود في نهاية المطاف فتتحول إلى نار وتنصهر فيها باعتبار النار هي النهاية الأخيرة. وهكذا فإن هيراقليطس والرواقيين (ككل) كانوا يفهمون هذه العملية فهماً صحيحاً بصفتها عملية ما عامة وسرمدية.

شيشرون: في النهاية ستقهر النار كل العناصر لأنه عندما تنفذ الرطوبة بكل أشكالها لن يعود بمقدور الأرض أن تتغذى ولن يعود بمقدور الهواء أن يرجع إلى الوجود. لن يبقى شيء على الإطلاق سوى النار، وبواسطة انبعاثها الجديد، وبوساطة الإله سيتجدد كل شيء ويعود النظام السابق كما كان.

السجين: أليست هذه الأفكار هي التي وضعتها المسيحية في أساس تعاليمها؟ نهاية العالم، النار التي تلتهم كل شيء ـ كل هذا ليس سوى

تخمين ضبابي ساذج وصفت به البشرية التجدد الأبدي للعالم المادي عبر تحوله إلى طاقة. وبالطبع يبرز هنا أمام العاقل السؤال التالي: هل يمكن تفادي مصير الوجود المادي إن العقل الذي لم يبلغ بعد من القوة ما يجعله قادراً على مقاومة نبض الكون مضطر إلى أن يخلق لنفسه أملاً ـ هو الإله.

شيشرون: القضية ليست في الإله، بل في البداية المنظمة. بالنسبة لنا، نحن الرواقيين، الإله، والطبيعة، والقدر، وجوبيتير، والقوة المحركة للمادة، والعقل، والتنبؤ بالآتي كل هذه التسميات ذات دلالة واحدة. فالبداية العاقلة تلد كل شيء، ولذا يمكن مقارنتها بالبذرة. إذ أن البذرة التي تلد العاقل هي ذاتها عاقلة، والعالم يفرز من ذاته بذرة العاقل: وهو، نفسه، بالتالي، عاقل في حد ذاته.

هيجل: في هذا يكمن كل مذهب وحدة الوجود الذي تنطوي عليه النظرة الرواقية إلى الطبيعة. ومرة أخرى يُفهم الكون بصفته «حيواناً مفكراً».

السجين: ليس هكذا بالضبط. فعندما يقول شيشرون: «إن العالم يفرز من ذاته بذرة العاقل» فهو بهذا يميز بين العام والخاص. والعاقل هو جزء من العام ولكنه ليس العام.

أرسطو: إن العناصر كافة والسماء كلها لم تنشأ ولايمكن أن تحدث، بل هي كائن موحد أبدي ليس له بداية ولانهاية في الزمن السرمدي، بل له زمن لانهائي ضمن الزمن السرمدي. وحيث يوجد واقع توجد حركة. وما يحوز هذه الحركة الدائرية المطلقة ليس ثقيلاً ولاخفيفاً لأن الثقيل هو مايتحرك إلى الأسفل، والخفيف هو ما يتحرك إلى الأعلى. وهو لايفنى ولايولد ولاينقص ولايزيد ولايتغير. إنه يختلف عن الأرض والنار والهواء والماء. إنه ذاك الذي سماه القدماء: الأثير، بصفته أعلى الأماكن، وقد حاز عندهم تسميته هذه بسبب عدوه المستمر في الزمن اللانهائي

هيجل: حتى أرسطو يشهد أن العناصر لاتصدر عن جسم واحد وإنما يصدر أحدها عن الآخر، لأنها في نشوئها تصدر إما عن شيء ما لاجسم له أو عن جسم ما.

وفي الحالة الأولى تبدو وكأنها تصدر عن فراغ، لأن الفراغ هو بالضبط مالاجسم له، ولكن في هذه الحالة كان يتوجب على الفراغ أن يحوز وجوداً مستقلاً كالوجود الذي تنشأ فيه جسمية معينة. بيد أن العناصر لاتصدر أيضاً عن شيء ما جسمي وإلا لكان هذا الجسم نفسه عنصراً جسمياً معيناً موجوداً قبل العناصر.

غورغياس: الوجود ليس محدثاً، لأنه لو كان محدثاً لكان يجب أن يحدث إما من وجود أو من عدم. وهو لم يحدث من موجود لأنه في هذه الحالة يكون قد وجد أصلاً، كما أنه لم يحدث من عدم لأن العدم لاينتج شيئاً.

لينين: غورغياس أقرب الجميع إلى الحقيقة. فهو يضع الوجود خارج وعينا وخارج الزمن. أما بخصوص ملاحظتك يابروفيسور حول أن الفراغ لايمكن أن ينتج شيئاً فإن العلم المعاصر يثبت أن الفراغ، أو الخلاء المطلق لاوجود له في الطبيعة.

هيجل: في هذه الحالة أنت لاتلغي فقط دور خالق الكون مرجعاً كل شيء إلى حركة المادة العفوية، بل تستبعد أيضا سؤال الفلسفة الأساسي: ماهو الأسبق. الوجود أم الوعي

لينين: أتعرف يابروفيسور، إن سؤال الفلسفة الأساسي يذكرني أحياناً بالأحجية «العامية»(1) المعروفة عن الدجاجة والبيضة، وأيهما سبقت الأخرى إذا أجبت أن الدجاجة هي السابقة سألوك ومن أين أتت الدجاجة وإذا زعمت أن البيضة هي السابقة قالوا لك وكيف يمكن أن تباض البيضة دون دجاجة؟

هيجل: وأنت كيف تجيب عن هذا السؤال؟

لينين: لامناص لنا هنا من اللجوء إلى المقاربة التاريخية المحددة، فإذا أخذنا دجاجة معينة وبيضة معينة أمكننا التأكيد بجرأة أن البيّاضة هي الأولى، وأنها سبقت البيضة في الوجود. أما إذا جمعنا كل البيّاضات

---

1 ـ كلمة «العامي» أو «العادي الضيق الأفق» كلمة أثيرة لدى هيجل يستخدمها كمقابل لكلمة «العاقل المثقف الخ..».

وكل ماباضته فإننا سنرى إن الدجاجة والبيضة كلتاهما ليستا سوى نتيجة للارتقاء من الجماد إلى الحي. وأن هذه وتلك قد اكتسبتا وجودهما على مدى ملايين السنين، وهما جزء من كل هو في حالتنا هذه ـ جنس الدجاج.

سقراط: (يصب الشاي ويضع قطعاً من الليمون في الكؤوس) إن مايزيّن أية وليمة ليس الجدل حول أصل ومعنى الحياة فحسب، بل والأنخاب الحكيمة على شرف المستقبل. فليقل رب المائدة نخبه.

السجين: (ممسكاً بكأس الشاي) إخوتي في العقل! لقد سمعت عنكم جميعاً من قبل، عندما كنت لاأزال يافعاً. وقرأت عنكم ما قرأت في الجامعة. ولكن لم يتسن لي أن أنظر في أفكاركم بجدية إلا في هذا الوقت العصيب علي. وقد جهدت وأنا ألخص أفكاركم في أن ألتزم بالاقتراب مااستطعت من الأصل. ويمكنني التأكيد بوجدان صادق أن الاجتماع معكم لم يمض دون أثر. فكلكم «ساعدتم في توليد الأفكار». خلف قضبان السجن. ومرة أخرى اقتنعت بحكمة الطبيعة التي تتيح لكل إنسان إمكانية التفكير إذا رغب في هذا. إن الطبيعة من السخاء والانصاف بحيث تنعم بهبة التفكير العظمى على كل إنسان، وتصون بهذا هبتها التي لاتقدر بثمن من أن تستأثر بها أو تغتصبها هذه الطائفة أو تلك. ومن جهة أخرى فإن الفكرة الخاصة الفردية، شأنها شأن كل شيء في الطبيعة، تصبو إلى تجسيد نفسها في الممارسة الاجتماعية، وإلى النجاح في امتحان الفكرة الاجتماعية الكلية لها. هنا لاأهمية على الإطلاق للبلد والزمن اللذين ولدنا فيهما. أمام الفكر يختفي المكان والزمان، ويغدو العقل العام خالداً ولانهائياً. أوليس هذا هو الخير والعدالة الأسمى للإنسان؟ ! وفي إثر الفكر تصبوا الشعوب إلى التوحد العام. وتجري عملية توحدها العالمية الشاملة بغض النظر عن النظم السياسية. وعاجلاً أو آجلاً ستندمج شعوب كوكبنا في كلّ عام موحد. هذا أمر حتمي. ولكن كما أن الفكرة الخاصة الفردية لايمكنها أن تعتمد APRIORI (بشكل سابق للتجربة) الحقيقة التي بلغها العقل الاجتماعي الكلي، كذلك فإن الشعوب وهي تتوحد لاتريد وليس لها الحق في أن تفقد

هويتها، وروحها، وثقافتها، وأصالتها التي لاتتكرر. العام يستحيل بدون الخاص ولذا فعلى طريق توحد الشعوب لابد من حل المسألة الآتية: من الذي سيحكم؟ وفي مصلحة من سيحكم؟ وإذا كان الذي سيتولى الحكم حكومة عالمية تهتم بإثراء بعض الشعوب وتحوّل بعض الشعوب إلى عبيد، وتجعل من بلادهم مصادر للمواد الخام فإن العدالة تقتضي خوض نضال لاهوادة فيه ضد مثل هذه الحكومة، لأنها ستعكس مصالح خاصة لا عامة. أما الحكومة العالمية التي ترعى مصالح جميع الشعوب ومصلحة كل شخص على حدة، الحكومة التي تلغي الملكية الخاصة والسجون والجيوش، وتستبعد الحدود والحروب فإنها تستحق منا الترحيب بها والدفاع عنها.وفي المحصلة العامة ليس سوى العقل الموحد والجهد المتضافر للإنسان بقادر على إنشاء مركبات فضائية مناسبة لحالة خروج البشرية من مهدها ـ كوكب الأرض.
ومن البدهي أن الفرقاطات الفضائية ستنشأ بجهود مشتركة، ولن نستطيع أن نجد الطاقة اللازمة لمحركاتها إلا إذا عملنا معاً.ولكن ليحمل كل شعب معه على متن هذه المركبة ما يخصه بالذات ويمثل أصالته التي لاتتكرر. السوريون: الديباج المحيك بالذهب (البروكار) والنصول المصنوعة من الفولاذ الدمشقي؛ والاينكي: عباءة البونتشو؛ والروس: الخبز، والكوريون ـ لوحات من مسحوق الأحجار الكريمة...
إن كل ما أبدعه الفكر والعمل يملك الحق في الخلود. أما جمع المال والجشع وإذلال القريب واستثماره فهي أمور محكوم عليها بالزوال.
إنني أرفع نخب قدوم هذه الساعة بأسرع ما يمكن، ونخب حلول التفاهم بين الناس بأسرع مايمكن. ومرة أخرى أشكر لكم قدومكم إلى ليفورتوفو، فخلال اجتماعي معكم كنت أفكر، وبالتالي كنت حراً وقادراً على أن أطوف معكم في دوائر المعرفة. إن الطريق إلى الحقيقة شائكٌ ولا نهاية له، ولكنه جديرٌ بأن نسلكه حتى ونحن في زنزانة السجن، كي نعود إلى عالم الصفاء، كما يقول دانتي اليجيري الرائع، ونستمر في الصعود إلى الأعلى دون تعب إنني أرفع كأسي نخب شرارة الحقيقة اللانهائية التي أنارت الزنزانة رقم ٣٢ في سجن ليفورتوفو.

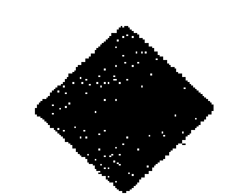
المحتوى

صدر عن

دار الطليعة الجديدة

ـ الحضارة البشرية أمام مفترق طرق	تأليف: د. قدري جميل
ـ الكتاب الأبيض لأبخازيا	ترجمة: د. تيسير كم نقش تدقيق: د. أحمد باكير
ـ العمل الشيوعي الفلسطيني في سوريا	تأليف: حمد موعد
ـ الدراما التلفزيونية	إعداد: عماد ندّاف محمد ندّاف
ـ ميثاق الموج	شعر: أسامة اسبر
ـ آكان، أحرث صوتك بناي	شعر: أكرم قطريب
ـ ثلاث ليالٍ لقمر أريحا	شعر: وليد عيسى الزوكاني
ـ علم السلوك (بحث)	بإشراف: أ.د. زياد درويش د.منال المختار
ـ محاولة في رصد ما حدث	تأليف: أمين الحسن
ـ ماالذي حصل ياإلهي	تأليف: عماد نداف
ـ خالد بكداش (كلمات ـ أحاديث ـ مقالات)	
ـ حول الصراع الإيديولوجي	تأليف: ديمتري تسيخوف ترجمة: زياد الملاّ

- آه منا نحن معشر الحمير	تأليف: عزيز نيسن
	ترجمة: جمال دورمش
- حكايات من الشام	تأليف: محمد خالد رمضان
- وردة غان	تأليف: عماد ندّاف
- نقد أفكار زعماء الردة في الفكر الماركسي اللينيني المعاصر	تأليف: صالح بوزان
- خالد بكداش يتحدث	إعداد وحوار: عماد نداف
- على المبدأ	تأليف: ن.ك.نيفيروديفا
	ترجمة: زياد الملاّ
- جلجامش والبحث عن الخلود	ترجمة: سهام شاهين
- سامبو، الطاحونة السحرية	ترجمة: سهام شاهين
- إبرة الساحر	ترجمة: عمار مصطفى



تتصل الأزمنة، وتتوحد الفلسفة الكلاسيكية والوعي الطبقي، وترتبط خبرة المفكرين والروّاد التي تعود إلى أكثر من ألف سنة بخطوات مناضلي اليوم.

... إن الفلاسفة المشاركون في الجلسات المسائية في زنزانة في سجن «ليفورتوفو» يعلّمون الحس السياسي والمنطق الفولاذي.

... عملُ فكتور أنبيلوف هذا، خثارة حارة من الطاقة الفكرية، تشكلت في ظروف استثنائية في غاية القسوة، بين جدران سجن «ليفورتوفو» الشائكة.

.... إن معيار الحقيقة كان دائماً وسيبقى الممارسة العملية سواء أثناء التمشي في أكاديمية أثينا، أو أثناء التمشي في باحة السجن في موسكو.